بسم الله الرحمن الرحيم

(عالم بينچي والتر)

في عام ١٩٥٣ ميلاديا، اكتشف العالمان جينس واطسن وفرانسيس كريك، طبيعة الچين البشري، وأنه يتكون من جزأ من(د، ن، أ) الذي هو عبارة عن ذرتين متكاملتين من السكر والفوسفات والقواعد الأزوتية، وكان هذا الإكتشاف مقدمة لاكتشافات وصلت من التقدم إلى إعادة تركيب أل (د، ن، أ)، ثم استمرت التجارب لمحاولة خلط البرنامج الوراثي للإنسان بالبرنامج الوراثي للبكتيريا، بغرض اكتشاف بعض أنواع الدواء. كانت هذه الإكتشافات بمثابة ثروة علمية هائلة مباغتة، أثارت مخاوف العلماء وقادة المجتمع الدولي، فعقد أول مؤتمر عالمي لبحث النتائج المترتبة على تلك الإكتشافات العلمية المذهلة.

انعقد مؤتمر (أوسيلمار) بكاليفورنيا، لمحاولة وضع قرارات تتحكم في التجارب الخاصة بمحاولات استنساخ البشر، لكن المؤتمر فشل رغم المحاولات الجادة، فحدث ضغط شعبي هائل كان على إثره أن قررت إدارة جامعة هارفارد الأمريكية، في عام ألف وتسعمائة وست وسبعون، وضع عدة قوانين حاكمة لمراقبة بحوث العلماء في مجال الهندسة الوراثية.

أصاب علماء جامعة هارفارد الغضب لتوقف أبحاثهم، لكن العالم الأمريكي بينچي والتر كان أشدهم غضبا وسخطا، فلم يتخيل قط أن يحدث هذا الأمر بعد ما بذله من جهد مضاعف في تطوير أبحاثه في مجال الإستنساخ، فراح يحطم محتويات المعمل حوله في عنف، وهو يصرخ في انهيار ويسب العالم وإدارة الجامعة سبا قاذعا عنيفا. تدخل زملائه في محاولة لتهدئته، والحيلولة دون تحطيم المزيد من محتويات المعمل، ورأت إدارة الجامعة منحه إجازة مدة أسبوعين حتى تهدأ أعصابه، وتغاضت عن تحطيمه لمحتويات المعمل التي يقدر ثمنها بالآلاف، لتاريخه العلمي المشرف وجهده المبذول في تطوير أبحاثه. عاد بينچي إلى بيته منهارا فاقد الشغف، ثم استحال غضبه إلى لا مبالاة قاتلة وعزوف عن الحياة، جلس في منزله يشاهد التلفاز ويأكل النقانق في سكون تام، وهو الذي كان قلما يجلس ساكنا دون عمل شيء، ثم راح يقضي معظم وقته خارج المنزل، ويذهب لتناول الطعام في أحد المطاعم التي لم يرتادها منذ كان طالبا في جامعة هارفارد، وعلى الرغم من حالة اللامبالاة التي كانت تعتريه في الظاهر، إلا أنه كان يخفي داخله غضبا عنيفا، وحنقا عظيما يكفي لتحطيم حي بأكمله، لكنه كعالم، كان يدرك أن عدم تحكمه في غضبه قد يفسد الكثير من الأشياء، مع عدم جدواه في حل مشكلته بالطبع، بل ربما يزيد الأمر سوءا وتعقيدا، لذا بقي على تلك الحالة من

اللامبالاة وعدم الإكتراث من جهة، و الغضب والحنق الذي يخفيه داخله من جهة أخرى. لم يستطع تخيل أن تضيع ثمرة أبحاثه بسبب قوانين مجحفة ظالمة، بعد أن قضى ما يقرب من عشرون عاما لتطويرها، حتى اقترب كثيرا من تحقيق حلمه، وهو استنساخ إنسان كامل، عن طريق أخذ المادة الوراثية على شكل نواة من خلية جسدية كاملة، وإيداعها في بويضة منزوعة النواة، فتنتج نسخة كاملة من الشخص الأصلي دون أي اختلاف يذكر. بل إنه كان يسعى جاهدا لمحاولة استنساخ الذاكرة أيضا، حتى يبدو وكأن الشخص الثاني نسخة كربونية من الشخص الأصلي ويحمل ذاكرته أيضا.

كان (بينچي والتر) قد سعى طويلا في تحقيق حلمه دون أن يفقد أمله قط، فظل يحاول إقناع إدارة جامعة هارفارد بقدرته على تحقيق استنساخ بشري كامل حتى اقتنعت ووافقت، ووفرت له معملا متطورا ساعده في تطوير أبحاثه، حتى بات قريبا من ساعة الصفر، ثم جائت تلك القوانين الجائرة التي قلبت الموازين، وقضت على مجهوده ومجهود زملائه و مساعديه في لحظة طائشة، إنه لا يعترف بمحاولاتهم إقناعه أن الأمر لا يعدو وضع قوانين للمراقبة فقط، ولكنه يدرك أنها لمنعه من استنساخ انسان كامل، بحجة مخالفة ذلك للتعاليم الدينية الصريحة، وخوفا من أن يؤدي ذلك إلى العبث بالطبيعة وخلق أجنة مشوهة.

****

لم يستطع (بينچي والتر) جلب النوم لعينيه المنهكتين، جراء الحرمان من النوم مدة طويلة، كأن هناك ستارا كثيفا حال بينه وبين النوم فتركه مستيقظا رغما عنه. مضى أسبوع كامل دون أن يعود إلى معمله، محافظا على تلك الحالة من الإحباط والمرارة والإكتئاب. تحول إلى النوم على جنبه الآخر لعل النوم يصطلح معه، ويسمح له بعبور بوابته الكبيرة المظلمة، لكن بوابة النوم أبت إلا الإنغلاق في وجهه بقسوة وغلظة، فجلس على فراشه ساخطا محنقا، كأنه يعلن رفضه لتحكمات النوم إرضاءا لكرامته. قضى الليلة كلها يفكر في أمر عودته إلى عمله، هل يذعن لتلك القوانين الجائرة حتى تنجلي الغمة؟ أم يركب رأسه ويرفض العودة حتى يرضخوا هم لطلباته؟ مضت الليلة بظلمتها ثم انكشف النهار على استحياء، بينما بينچي والتر لا يزال محتارا في اتخاذ قرار محددٍ لمستقبله. بدأ التثاؤب يغزو فمه، فانفتحت بوابة النوم عن آخرها جاذبة إياه عبرها بجاذبية لا تقاوم، ليودع تلك الحياة بنشاطها و حركتها مؤقتا، و يذهب إلى عالم من الظلام والسكون والراحة.

استيقظ بينچي في المساء بعد عشر ساعات من النوم المتواصل كان يحتاجها جسده بشدة، رفض عرض زوجته (كارول) بإعداد العشاء له، بل ومشاركته الطعام أيضا بالرغم من خضوعها لحمية قاسية، هادفة من وراء ذلك إلى إخراجه من حالته النفسية السيئة، ومساعدته في عودته إلى شخصيته النشيطة المشعة من جديد. أخبرته زوجته أن صديقه (كارل) حاول الإتصال به للمرة الخامسة، لكن بينچي تجاهل الرد عليها كأنما لم يسمعها، حلق ذقته ثم ارتدى سترته الرمادية على قميص أبيض و بنطال أسود، ثم مضى نحو المطعم الذي يرتاده منذ بدأت تلك المشكلة، كان يشعر منذ حصلت تلك الأحداث أن المنزل صار كالسجن بالنسبة له، و أنه يذكره بشكل أو بآخر بمعمله البائس، الذي فقد قيمته منذ توقفت أبحاثه الهامة.

جلس على مائدة غير الذي تعود الجلوس عليها، حيثُ كان قد أتى في وقت الذروة، مرت دقائق قليلة قبل أن توضع بين يديه أطباقا متنوعة من اللحم والمعكرونة، كان يشعر أن شهيته مفتوحة على غير العادة، تناول طعامه في شراهة، ثم طلب زجاجة خمر كاملة من النوع الجيد، صب لنفسه في كأس طويل حتى منتصفه قبل أن يتجرعه دفعة واحدة، ثم أتبعه بثانٍ و ثالثٍ و رابع، حتى احتقن وجهه، لكنه لم يتوقف بالرغم من إحساسه بالسكر يجري في دمه، ويغلف مخه، ويضع غشاوة رقيقة على عينيه. لكن عناده أبى إلا الإستمرار فصب لنفسه كأسا خامسا، رفع الكأس إلى فمه وتمتم بصعوبة:

نخب توقف أبحاثي إلى الأبد.

أمسكت يد بغتة بالكأس قبل أن يصل إلى فمه، التفت في سرعة لصاحب اليد فطالعه وجه صديقه (كارل) عالم النباتات، الذي ابتسم قائلا :

ينبغي أن تعرف متى تتوقف يا بينچي، كفاك ما شربت حتى الآن.

نزع بينچي الكأس من بين أصابع كارل في حدة، ثم شربه دفعة واحدة، وقال غاضبا:

هل كنتَ تراقبني منذ دخلتُ إلى هنا يا كارل؟

جلس كارل أمامه وقال في نبرة هادئة :

كلا بالطبع، لقد ذهبتُ إلى منزلك، فأخبرتني كارول أنك على الأغلب أتيت إلى هنا، وعندما دلفتُ وجدتكُ تجرع الخمر كالماء، ورأيتُ الزجاجة قد انتقصت كثيرا، فعلمت أنك قد بالغت في الشرب فتدخلت لمنعك؟

قال بينچي وهو يصب الكأس السادسة متهكما :

أشكر لك مشاعرك الرقيقة، والآن أتركني وحدي أرجوك.

تأمله كارل وهو يجرع كأسه في سرعة، ثم يحتقن وجهه كحبة فراولة، فقال مشفقا :

متى بدأت تشرب الخمر يا رجل؟

لم يرد بينچي واكتفى بإشاحة وجهه، فأردف كارل :

أشعر بما تمر به جيدا يا بينچي، ولكن شربك لزجاجة خمر كاملة، وعدم عودتك لعملك لن يحل مشكلتك، بل سيزيدها تعقيدا.

هتف بينچي متهكما :

وماذا تعتقد أنت أيها العبقري؟

قال كارل في سرعة :

أن تنسى ما حدث، وتعود إلى عملك حتى تنجلي الغمة و تعود الأمور إلى طبيعتها.

لاحت على وجه بينچي ابتسامة ساخرة هازئة هاتفا :

أعود إلى عملي وأنسى ما حدث، هكذا بمنتهى البساطة، يالك من مثالي !

تسائل كارل وهو يرمق صديقه بنظرة مشفقة حزينة:

وما الذي تنوي فعله إذا؟ هل ستستمر على تلك الحالة من الغضب والسكر والعصبية والتهكم على كل شيء؟

قال بينچي في نبرة صارمة :

كلا بالطبع، سأبحث عن مكان آخر يقدر قيمتي العلمية وتاريخي الطويل.

سأله في حزم :

وأين ستجد هذا المكان بالتحديد ؟

لوح بينچي بيديه قائلا في احتداد :

سأبحث عن أي مكان في العالم يقدر قيمتي الحقيقية، وإن لم أجد من يقدرني في هذا العالم، سأبحث في عالم آخر .

تغير وجه كارل بغتة، وانتفض جسده انتفاضة سريعة عندما سمع عبارة بينچي الأخيرة، والتزم الصمت التام كأنه يفكر، فهتف بينچي ساخرا :

كارل لماذا صمتّ هكذا بغتة، هل أكلت القطة لسانك أم هبطت عليك حكمة الفلاسفة وصمت الحكماء؟

حاول كارل أن يهدأ من انفعال صديقه المخمور ويخفض من حدة صوته، خاصة و أن بعض الزبائن بدأوا يتضايقون من ارتفاع صوته، فقال ملاطفا :

ربما نجد هذا العالم الذي يقدر قيمتك وتاريخك يا بينچي، والآن قم حتى أوصلك لمنزلك.

تجرع بينچي كأسه السابعة ثم قام يترنح، فأسنده صديقه بيده حتى أوصله إلى سيارته، ثم ساعده في ركوب السيارة و مضى به نحو منزله مباشرة.

****

استيقظ بينچي والتر في اليوم التالي على صداع عنيف يحطم جمجمته دون هوادة، ظل راقدا على فراشه لفترة زادت على عشر دقائق حتى تخف حدة صداعه، ثم تحامل على نفسه و تناسى آلام رأسه مؤقتا و مضى نحو الحمام، مكث تحت الدش قرابة نصف الساعة حتى بدأ يعود إليه صفاء ذهنه تدريجيا، ارتدى روبا منزليا أسودا ومضى نحو البار، ثم التقط كأسا وصب فيه شمبانيا، لم يكد يجرع كأسه حتى سمع جرس الباب يطلق رنينه المميز، ذهب ليستقبل القادم فطالعه صديقه كارل الذي ابتسم قائلا :

يبدو من هيئتك أنه قد عاد إليك نشاطك؟

سمح له بينچي بالدخول وهو يقول :

كل ما هناك أنني اغتسلتُ وشربت كأسا.

سأله كارل في دهشة :

هل تشرب في الصباح أيضا ؟

لسنا في الصباح يا (كارل) لقد أوشك النهار أن ينتصف.

مضى بينچي نحو البار ليرتشف كأسا آخر لكن صديقه هتف :

لا داعي للشرب الآن يا بينچي، فما أريدك من أجله يحتاج لذهنٍ صاف.

شرب بينچي كأسه على دفعتين ثم قال :

عقول العلماء لا يفسدها الخمر يا صديقي ؟

تجاهل صديقه عبارته الساخرة، ثم قال في حسم :

دعك من ترهاتك أيها العجوز واستمع إلي جيدا، فما سأقوله لك يقع تحت بند سري للغاية.

صمت بينچي وهو يحدق في وجه صديقه للحظات، ثم اندفعت من حلقه قهقهات أشبه بدفعات المياه من خرطوم المطافي، قال بعد أن جاهد لإيقاف ضحكاته القوية:

اعذرني يا صديقي فأنا لستُ متعودا على ذلك الوجه الجاد منك.

مرة أخرى تجاهل كارل عبارة صديقه المستفزة وهو يحافظ على صرامته، ثم قفز من مكانه بغتة واختطف الكأس الثالث من بين أصابع بينچي، ثم هتف :

قلت لك اترك ذلك الشراب وركز معي، فما سأقوله لك شديد السرية والخطورة.

حينها أدرك بينچي أن الأمر جد خطير، فاكتسب وجهه مسحة اهتمام وتمتم قائلا :

حسنا حسنا لا تغضب، كلي آذان صاغية.

التقط كارل نفسا عميقا ليتحكم في انفعالاته، ثم قال :

هل تذكر عندما أخبرتني أنك على استعداد للبحث عن مكان يقدر قيمتك وتاريخك وخبرتك، حتى لو بحثتُ في عالم آخر؟

تمتم بينچي في خفوت حذر :

نعم قلتُ هذا بالفعل ولكني لم أقصد المعنى الحرفي بالطبع.

مال نحوه صديقه قائلا:

وماذا لو أخبرتك أن هناك عالم آخر ربما تجد فيه ضالتك؟

انعقد حاجبا عالم الهندسة الوراثية، ثم قال متسائلا :

ماذا تعني، هل تقصد دولة أخرى؟

قال كارل في حزم :

بل أعني عالم آخر كالعالم الذي نحيا فيه.

ظل بينچي على صمته برهة ثم انفجر ضاحكا بقوة، حدجه صديقه بنظرة مستنكرة ثم هب قائما وهمّ بمغادرة المكان، لولا أن استوقفه بينچي هاتفا :

كلا لا تذهب، اعذرني فأنا لا أفهمك جيدا، ما الذي تعنيه بقولك عالم آخر كعالمنا هذا؟

عاد كارل لمقعده قائلا :

أعلم أن ذلك الأمر قد يكون غير قابل للتصديق ومدعاة للسخرية أيضا، ولكنها الحقيقة.

بدا على وجه بينچي الحيرة و الإنزعاج لكنه لم ينبس بكلمة، تطلع إلى زجاجة الخمر التي سكب منها كأسين فقط، ثم عاد يتطلع إلى صديقه وسأله في نبرة خافتة محاذرا أن يغضبه :

كارل هل شربت ويسكي قبل أن تأتي إلى هنا ؟

اعتدل كارل في جلسته، ثم قال بنبرة جادة هادئة :

سأخبرك بكل التفاصيل حتى تفهم ما أعنيه جيدا، حسنا سأبدأ من البداية، حدث هذا في سنة ألف وتسعمائة وواحد وسبعون، أي منذ خمس سنوات تقريبا، حين كنتُ أبحث عن نبات نادر موجود في إفريقيا، بالتحديد في تنزانيا، يدعى (ايرثرينا شلبيني) أو الشجرة المرجانية، لكنها كانت على وشك الإنقراض، لذا وجدتها بصعوبة لكن بكمية غير كافية، وهناك التقيتُ رجلا إفريقيا من أوغندا يدعى ماسا، تحدث معي بلغة انجليزية ركيكة، وأبدى تعاطفه الشديد نحوي، وأخبرني أنه بإمكانه مساعدتي شريطة أن أذهب معه إلى أوغندا، حينها سألته مستغربا :

ولكن هذا النبات لا يوجد إلا في تنزانيا فقط، فما علاقة ما أبحث عنه بأوغندا؟

ابتسم ماسا وقال في ثقة عجيبة:

ستجد كل ما تبحث عنه في أوغندا، هيا تعال معي ولن تندم أبدا.

وعلى الرغم من استغرابي وحيرتي كعالم نبات، إلا أن الفضول الكامن في داخلي دفعني دفعا لأتبعه إلى أوغندا، نزلنا في مطار عنتيبي، ثم مضينا عبر طرقات مزدحمة إلى إحدى القرى النائية، وعندما وصلنا هناك شعرتُ كأن الزمان عاد بنا ألف سنة إلى الوراء، وأنا أرى أجسادا قوية ترتدي أسمالا ذات ألوان بيضاء

وصفراء، ووجوها اختفت خلف نقوش غريبة بألوان زاهية لتمنحها مظهرا مرعبا، وعندما أبديتُ انزعاجي جذبني من يدي، ثم ذهب بي إلى داخل منزل كبير بخلاف المنازل الصغيرة المنتشرة حوله، ثم طالعني داخله رجل ضخم الجثة له نظرة ارتعد لها جسدي كله، أجلسني ماسا أمامه على أريكة قديمة ثم راح يكلمه ويتجادلان فيما بينهما، ثم رأيتُ ذلك الرجل الضخم يهز رأسه إيجابا ويبتسم ابتسامة واسعة، كانت تلك الإبتسامة الودودة على ذلك الوجه المخيف تسبب لي حيرة نتيجة التناقض العجيب بينهما، لكني تجاهلت حيرتي حين التفت إلي ماسا باسما، ثم قال :

لقد وافق الساحر الأعظم على عبورك إلى العالم الآخر.

سألته ذاهلا :

ماذا تعني بعبوري نحو العالم الآخر؟

فأخبرني حينها في بساطة زادت من حيرتي أضعافا مضاعفة :

ذلك العالم الآخر هو عالم موازي لعالمنا، ويشبهه تماما في كل شيء، ولكن مبعث الإختلاف يكمن في اختلاف وظائفنا عن وظائف أشباهنا هناك، أي أن شبيهك في ذلك العالم لن يكون عالم نبات، ولكن سيعمل في وظيفة أخرى، وهناك بعض الإختلافات البسيطة الأخرى التي لن تشكل فارقا كبيرا.

استمعتُ له حينها وأنا أتسائل في حيرة قاتلة : هل هذا الرجل مجنون أم أنه يعاني مرضا نفسيا قاتلا؟

لكنه لم يدعني لتساؤلي طويلا حيثُ قال لي :

اسمع ما سوف أقوله لك والتزم به التزاما صارما، حتى لا تعاقب على مخالفتك عقابا ستندم عليه طويلا.

أومأت برأسي في خوف، فاستطرد ماسا في نبرة صارمة :

ذلك العالم نعبر إليه عبر جسر يظهر بعد إعداد طقوس معينة يفعلها الساحر الأعظم بنفسه، وبعدها سيكون لك الحق في العبور والمكوث هناك لفترة لا تتعدى الشهر، ستستغل تلك الفترة في البحث عن ذلك النبات الذي تريد، وسأرافقك طوال رحلتك أينما ذهبتَ كظلك ثم تعود معي بعد أن تنتهي من مهمتك، ولكن إذا زادت تلك المدة يوما واحدا فسأعيدك إلى عالمك بالقوة، ثم أترك مصيرك بين يدي كبير السحرة هذا، مفهوم.

بالرغم من ذهولي وذعري لغرابة الأمر وافقت بدافع الفضول، لكن فضولي لم يمنعني من أن أسأله :

لماذا كشفت لي أمر ذلك العالم، مادام الأمر سرا خطيرا إلى هذه الدرجة؟

قال ماسا :

نحن لا نكشف سرنا إلا لأناس يحتاجون العبور إلى هناك لأمر فيه فائدة لعالمنا.

سألته في فضول :

وهل كبير السحرة هو المسئول فقط عن ذلك العالم؟

هز رأسه وقال في جدية بالغة :

نعم، ذلك المنصب الخطير يتوارثه الإبن عن أبيه منذ آلاف السنين.

ثم قال كارل :

وافقت على تلك الرحلة العجيبة حرصا على إيجاد أنواعا مختلفة من النباتات التي انقرضت في عالمي منذ زمن، وبالفعل أقيمت الطقوس، ثم بدأ يتمتم بكلمات لم أسمع بمثلها من قبل، وبدأ صوته يعلو تدريجيا، ثم رفع يديه أمامه مشيرا بهما نحو مكان ما، وبغتة أضائت الدائرة ثم سرى ضوئها للأمام في سرعة، وبدأ يتشكل جسرا حقيقيا أمامنا، وكان ذلك الجسر يحوطه الضباب من كل جانب، كاد قلبي يتوقف من الخوف وأنا أرى ذلك الجسر يبرز أمامي من العدم، ثم أمرني ماسا بالسير عبره إلى الجانب الآخر بعد أن تقدمني إليه، وبعد السير مدة دقيقة وجدت نفسي في عالم يشبه عالمنا من الوهلة الأولى.

ظل بينچي والتر طوال حديث كارل صامتا كمذياع معطل، بالرغم من عقليته النادرة الفائقة إلا أن ما كان يسمعه يتخطى كل حدود العقل والمنطق والعلم، ثم تحرر من صمته الأبدي وتسائل :

هل تعني أن ذلك العالم يعتبر استنساخ من عالمنا مع بعض الفوارق؟

أومأ عالم النبات برأسه إيجابا ثم قال :

نعم، هذا ما رأيته بعيني هناك؟

كان ما يزال الذهول مرتسما بحدة على صفحة وجه بينچي، لكن هذا لم يمنعه من سؤاله في لهفة عالم :

وما الذي رأيته هناك بالضبط؟ أخبرني بكل شيء.

التقط كارل نفسا جديدا غير الذي تبدد في رئتيه، ثم قال وهو يعود بذاكرته إلى الوراء:

مشينا عبر الجسر يغلفني الضباب من كل جانب، حتى وجدتُ نفسي في عالم آخر كالذي تركته خلفي تماما، كأني أقف أمام مرآة وأرى صورة منعكسة لما هو موجود خلفي، كنا في أوغندا أيضا، وفي نفس القرية، ثم قال لي ماسا وهو يشير إلى سيارة أجرة قديمة :

هيا يا مستر كارل ، إنك لا تريد أن تضيع الوقت القصير المتاح لديك في التطلع حولك في فضول، أليس كذلك؟

ركبنا سيارة الأجرة التي اخترقت صفوف الناس متجهة إلى مطار عنتيبي، وحين تطلعت إلى السائق رأيت وجهه يشبه وجه الساحر الأعظم الذي أدى طقوس فتح الجسر وسمح لي بعبوره، التفت إلى ماسا أريد إخباره بالشبه الشديد بين السائق والساحر الأعظم، لكنه فاجأني بإيمائة من رأسه وابتسامة تعني أنه يعرف ما أفكر فيه ويوافقني عليه أيضا، ثم تمتم قائلا :

نعم، كبيرة السحرة في عالمنا يعمل سائق تاكسي في هذا العالم.

جال بخاطري سؤال مضحك فسألته :

هل يعلم كبير السحرة بذلك؟

قال ماسا بابتسامة خبيثة :

لم أشأ إخباره، فلربما يصيبه الحرج لذلك.

ابتسمتُ بدوري، في حين تقدمت بنا السيارة ببطأ وسط الزحام حتى وصلنا إلى مطار عنتيبي، ثم ركبنا طائرة أخرى إلى تنزانيا، وهناك بحثتُ عن نبات (اريثرينا شلبيني)، ولم يطل البحث حتى عثرتُ على ذلك النبات بوفرة، بالرغم من أن طبيعة الجو هناك في تنزانيا لها نفس طبيعة الجو في نفس البلد في عالمنا، أنهيتُ مهمتي في يوم واحد وكان أمامي تسعة وعشرون يوما فقررت الذهاب إلى قارة أمريكا الجنوبية، للبحث عن بعض النباتات المنقرضة أو المهددة بالإنقراض في عالمي، و بالفعل عثرتُ على أنواع من النباتات لم أصادفها في عالمي طوال رحلتي العلمية، وعندما رضيتُ بما عثرتُ عليه طرتُ إلى نيويورك، وهناك في أمريكا فوجئتُ بما لم يبلغه خيالي يوما.

اعتدل بينچي في حماس، ثم سأله في لهفة متقدة :

ماذا رأيتُ هناك يا رجل، هيا أخبرني؟

ذهب كارل إلى النافذة ليلتقط أنفاسا عذراء جديدة، ثم التفت إلى بينچي واستطرد الحديث.

****

أردف كارل في انبهار و إعجاب :

لاحظت عندما حطت قدماي في نيويورك أن لا شيئا غريبا عن المعتاد، حجزنا أنا وماسا غرفتين منفصلتين، ثم رحتُ أتتبع الأخبار لأعرف ما هو جديد في ذلك العالم، لاحظتُ أنني لا أسمع أي حديث عن الحرب في ڤيتنام، بخلاف الزخم الإخباري عن هذه الحرب في نشرات الأخبار في عالمنا، و عندما سألتُ عنها أحد الناس تطلع إلي في دهشة، ثم قال :

هل كنتَ نائما في كهف لسنوات طوال يا رجل؟

ثم علمت منه أن تلك الحرب قد انتهت في عام ألف وتسعمائة وخمس وستون، أي بعد عشر سنوات فقط من بداية الحرب وليس كما هو الحال عندنا، حيثُ تستمر الحرب حتى هذه اللحظة التي أكلمك فيها، وعندها أدركت أن ثمة اختلافات هامة بين العالمين، على الرغم من الشبه الواضح بينهما للوهلة الأولى، ورحتُ أبحث في التواريخ لتصل دهشتي حدا غير معقول، فمثلا وجدتُ أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت في عام ألف وتسعمائة وست وأربعون بعد أن صمدت برلين تحت قيادة زعيمها عاما كاملا، قبل أن تنهار ويستسلم أدولف هتلر، ثم يعدم في ساحة برلين العامة، أما بالنسبة للحرب الباردة بين أمريكا والإتحاد السوفياتي فظلت كما هي دون تغير، و هنا أدركت أن أحداث هذا العالم تتشابه مع أحداث عالمنا بنسبة سبعون في المائة فقط، وهذا يعني أنه من الممكن أن تزداد أوجه الإختلاف، حتى تنفصل الأحداث هناك عن الأحداث في عالمنا تماما بفعل عامل خارجي، ولا يعد هناك وجه للشبه سوى الشكل الخارجي فقط.

قال بينچي في حماس وشغف كبيرين:

هاك العالم يحتاج فقط لمن يحرك سطحه الساكن، وساعتها سيتغير تماما من تلقاء نفسه.

تسائل كارل في حيرة :

ماذا تقصد يا بينچي؟

أجاب بينچي :

هذا العالم له سطح مضطرب قليلا عما عليه عالمنا، وكل ما يحتاجه هو شخص يلقي حجرا على سطحه، وحينها سيحدث تغيرا هائلا في العالم كله.

سأله كارل في قلق متصاعد :

وكيف ستفعل ذلك ؟

هتف بينچي في حماس :

عن طريق إرسالي إلى هناك بالطبع يا صديقي العزيز.

قال كارل في نبرة صارمة حاسمة :

بينچي، أنا أخبرتك عن هذا العالم فقط لأساعدك في تحقيق أبحاثك في حال ذهبت إليه، وليس لتحدث تغيرا في عالم لا يمت لنا بِصلة، ثم إن أي تجاوزات ستحدث سيتعامل معك حراسه هناك بقسوة هائلة.

أطلق بينچي ضحكة قصيرة ثم قال :

لا تقلق يا رجل، أنا أقصد أن أبحاثي نفسها سيتلقفها ذلك العالم بحماس على عكس عالمنا، وستصنع أبحاثي في هذا العالم تأثير الحجر في سطح البحيرة.

تطلع إليه كارل في شك، ثم أردف متجاهلا الموضوع برمته:

المهم أننا سافرنا أكثر من دولة بناءا على طلبي، لأعرف الفارق بين هذا العالم وبين العالم الآخر، حتى انتهت المدة، وعدتُ مع ماسا إلى عالمنا مرة أخرى عن طريق الجسر.

سأله بينچي في اهتمام بالغ :

وكيف أعادك ماسا إلى عالمك مرة أخرى؟

هز كارل كتفيه وقال :

كما فعل عظيم السحرة من قبل، أدى بعض الطقوس الخاصة فظهر الجسر في المكان المحدد، ثم عبرناه و عدنا إلى عالمنا مرة أخرى.

سأله بينچي في فضول حقيقي :

هل ظهر في نفس المكان في أوغندا أم ظهر في مكان آخر.

قال كارل في بساطة دون تفكير :

على حد علمي، فإنه يظهر في عدة أماكن يعرفونها هم دون غيرهم.

صمت بينچي لحظات ثم قال في فضول :

عندي بعض الأسئلة المحيرة بالنسبة لي، ما هي الطقوس التي فعلها بالضبط ليظهر الجسر؟ وما الذي كان سحرة و حراس العالم الآخر سيفعلونه معك بالتحديد إذا لم تعد في وقتك المحدد؟

أجابه كارل قائلا :

بالنسبة للطقوس فقد مد يديه وردد كلمات لم أفهمها ولا أستطيع تذكرها بالتالي، أما بالنسبة لما كانوا سيفعلونه معي فهذا شيء لا أريد تخيله.

هز بينچي رأسه متفهما ثم قال :

متى إذن يمكنني الذهاب إلى ذلك العالم؟

سأسافر إلى أوغندا لأقابل ماسا وأخبره عنك وما تنوي فعله، فليس بيننا وسيلة اتصال سوى الذهاب إليه هناك.

هتف بينچي بغتة :

كلا لا تخبره وإلا فلن يوافق على سفري لهذا العالم.

قطب جبين كارل وهو يرمقه في دهشة وحذر، فأردف بينچي في سرعة :

تخيل يا رجل لو أخبرته أن صديقا لي لم يجد فرصة لتطوير أبحاثه في استنساخ البشر في عالمنا، فقرر الذهاب إلى العالم الآخر للبحث عن وسيلة تمكنه من تطوير أبحاثه واستنساخ االبشر هناك، هل تراه يبتسم في وجهك ابتسامة خلابة ثم يشير بيديه قائلا في ود : وما المانع يارجل، دعه يذهب و يبحث عمن يساعده ويدعمه في هذا العالم الجديد، بدلا من عالمه المحبط الفاشل! كلا بالطبع لن يفعل ذلك، بل سيتدخل بكل قوته لمنع حدوث هذا، لأنه سيظن أنني سأفسد العالم الآخر.

تسائل كارل في حيرة :

وما الذي ينبغي علينا فعله في تلك الحالة إذن؟

هب بينچي قائما ومضى نحو صديقه، ثم جلس بجواره ووضع يده على كتفه، ثم قال في رجاء :

كما فعلت أنت من قبل، ستخبره أنني عالم نباتات صديق وزميل دراسة، وأنني ذرعتُ العالم جيئة وذهابا فلم أعثر على نوع نبات انقرض في كل أنحاء العالم، وأنك عندما رأيتَ حيرتي وفشلي أخبرتني بأمر هذا العالم، ولم يكن هدفك من وراء ذلك سوى خدمة البشرية.

صمت كارل مليا وهو يفكر في كلام صديقه الذي يبدو عليه حرص لا يخلو من الملاوعة، لكنه تجاوز تلك النقطة وتمتم في حيرة :

لا أدري هل ما سنفعله صحيحا أم لا؟ لا أحب أن أكذب على ماسا وأخدعه بعد أن رأيتُ منه الصدق والشهامة.

ربت بينچي على كتفه، ثم قال في حماس :

الغاية تبرر الوسيلة يا صديقي، وما سأقدمه للعالم إذا ما نجحتُ في تطوير أبحاثي في الإستنساخ، يفوق في نفعه ما سنرتكبه من الكذب آلاف المرات، ولا تنسى أننا بلغنا الخمسين عاما، ولم يعد أمامنا الكثير من الوقت لنحقق ما نصبوا إليه.

تمتم كارل في أسف :

لا أخالفك في ما تقول، ولكن الكذب شيء بشع، و لو اكتشف ماسا ما فعلناه سيغضب وستكون العواقب وخيمة.

أطلق بينچي ضحكة عالية ثم قال :

الكذب شيء بشع ولكن الفشل أبشع منه بكثير .

غلفهما الصمت للحظات، راح كارل يفكر خلالها في عمق ثم سأله:

وكيف ستقنعه بأنك عالم نباتات؟

عاد بينچي لمقعده، ثم قال و هو يرتشف من كأسه :

لا يوجد حاجة للإقناع، ستقنعه هويتي بأنني عالم نباتات دون أن أتفوه بكلمة.

ردد كارل في دهشة :

هويتك! ماالذي تنوي فعله ؟

قال بينچي في هدوء واثق :

ستواجهني عقبتين وليس عقبة واحدة عند عبوري إلى العالم الآخر، أولها ماسا الذي سيطلب الإطلاع على هويتي بالتأكيد، وثانيهما إدارات الجامعات المختلفة التي سأعرض عليها أبحاثي العلمية، دون أن أظهر لهم هويتي الحقيقية التي تثبت عدم انتمائي لعالمهم.

اعتدل كارل بحركة حادة ثم سأله في قلق بالغ :

و كيف ستتصرف لتجاوز تلك العقبتين؟

هز بينچي كتفه وقال :

سأزور هويتين وليست هوية واحدة، الأولى تثبت أنني عالم نباتات للإقناع ماسا ورفاقه.

تمتم كارل في تحفز :

و الثانية؟

والهوية الثانية ستقنع الإدارات العلمية هناك أنني عالم في الهندسة الوراثية في جامعة (أكسفورد) البريطانية .

قال كارل في عصبية :

و هل تظن أنك ستخدع الجميع بتلك الهويات المزورة؟

ابتسم بينچي ابتسامة مستفزة وقال :

لا تقلق من تلك الناحية، فذلك الرجل الذي سيقوم بإعداد الهويتين هو الأبرع بين المزورين جميعا.

هتف كارل في حنق :

أنت تأخذ الأمور بأريحية بالغة يا بينچي.

وأنت مصاب بالوسواس القهري يا عزيزي كارل.

تأمله كارل وهو يرتشف من كأسه في بطأ ثم قال :

دعني أسألك سؤالا يا بينچي، ماذا سيحدث إذا عكسنا الصورة، ووجدنا في عالمنا الراهن رجلا يشبهك تماما كأنه صورتك في المرآة، ثم راح يخبرنا أنه يدعى

بينچي والتر، وأنه يعمل في مجال الهندسة الوراثية، وأنه أتى من عالم موازي لعالمنا يشبه في كل شيء، ترى كيف سيكون رد فعل عالمنا تجاهه؟

بدا العالم الأمريكي كما لو كان فاجأه سؤال ليس له إجابة، ذكره ذلك بما كان يحدث له أثناء امتحانه مادة النحو، ظل صامتا كأنما أوقف عقله عن العمل، لكنه في الحقيقة كان يفكر في حل لهذا السؤال المعضل والمفاجيء، وكلما غاص بعقله في حل السؤال شعر بالرعب، وعقله يرسم صورة لما يمكن أن يحدث في هذا الموقف العجيب والفريد، لكن النتيجة دائما كانت واحدة مهما حاول وناور، التفت إلى كارل قائلا :

ستكون ردة الفعل عنيفة على كل المستويات، وسيسعى الجميع للبحث عن الحقيقة قبل أن تفاجئهم النتيجة.

هل ستنوي إذن التقاعس عن تلك الرحلة؟

تطلع بنچي إلى ملامح كارل التي تنطق بالترقب لإجابته، ثم قال في عناد :

كلا بالطبع، سأخوض تلك التجربة مع أخذ الإحتياطات اللازمة، وإن لم أنجح في مسعاي سأكون حظيتُ بالتجربة على الأقل، وفعلتُ ما يمليه علي ضميري عندما لا أبخل ببذل كل جهدي لتحقيق إنجاز علمي، سيكون بمثابة نقلة مذهلة ستخدم العالم كله، أقصد العالمين .

نطق بينچي عبارته الأخيرة بابتسامة واسعة، ولكن في داخله كان قلبه ينبض على الرغم منه بالخوف والقلق والرهبة.

قال ببنچي وكأنه تذكر شيء بغتة :

ما رأيك لو عبرنا ذلك العالم معا؟ سيجعل ذلك من مهمة إقناع ماسا أكثر سهولة .

تمتم كارل كأنه قد تفاجأ بالسؤال :

ماذا! لكني مشغول بكثير من الأشياء التي يجب علي إنهائها.

لوح ببنچي قائلا في إلحاح :

لا تبالغ يا كارل، إنه مجرد شهر واحد وسنعود على الفور.

لم يجب كارل على الفور، وإن بدا على ملامحه دلائل التفكير، مضى بينچي نحو الطاولة فسكب في كأسين، ناول أحدهما لكارل وارتشف من الآخر قائلا :

نخب عبورنا معا لذلك العالم يا عزيزي كارل.

ولم يعلق كارل بكلمة.

****

ذهب بينچي إلى أحد أصدقائه والذي ساعده في الوصول إلى المزور الذي سيقوم بإعداد الهويتين له ، واحدة كعالم نبات أمريكي والأخرى كعالم بريطاني تخصص في الهندسة الوراثية في جامعة أكسفورد، وبهذه الهوية الأخيرة سيعرض أبحاثه على جامعة هارفارد ومعهد ماساتشوستس وجامعة ستانفورد، كان ما يزال أمامه أسبوعا كاملا حتى تصبح الهويتين جاهزتين، ولم يكن ليتحمل المكوث أسبوعا آخر في المنزل دون عمل شيء، لذا قرر العودة إلى أبحاثه في جامعة هارفارد حتى يتسلم الهويتين الجديدتين، لكن لم تكن عودته إلى عمله نتيجة شعوره بالملل فقط، ولكنه كان في داخله يتمنى أن تعود الأمور إلى سابق عهدها ويصير حرا من جديد، لكن الأمور استمرت كما هي تحت القيود التي وضعت على أبحاثه وأبحاث زملائه، والتي كانت بمثابة سجن هائل أودع فيه مواهبهم ومهاراتهم في سلاسل و أغلال حديدية. انتهى الأسبوع وتسلم ببنچي هويتيه، ثم صار جاهزا للذهاب إلى ذلك العالم الذي ألهب خياله وأشعل وجدانه بسياط من الشغف والأمل، لكن كان عليه الإنتظار حتى يعود كارل من أفريقيا، بعد أن يقابل ماسا ويقنعه بأمر ذهابه إلى ذلك العالم الجديد، قرر أن يقضي الوقت المتبقي مع أسرته حتى يعود كارل من إفريقيا، قضى وقته يلعب مع طفليه توم ومايكل بحنان أبوي جارف، كأنه يخشى أن يحرم من رؤيتهم للأبد، وعندما ناما الطفلين الصغيرين قضى ليلته مع زوجته في علاقة حميمية ملتهبة، ثم أخبرها بعد أن ارتمى بجوارها في إنهاك، أنه سيسافر إلى إفريقيا في رحلة لا تستغرق أكثر من شهر ثم يعود على الفور، لم تعترض كارول على الرغم من دهشتها لفهمها ما يمر به من فترة نفسية خانقة، ثم ناما حينما كان النهار على وشك الظهور. كان يعد الساعات في لهفة جامحة حتى تحين تلك اللحظة التي سيعبر فيها إلى العالم الآخر، وكان خوفه كبيرا من أن يرفض ماسا ذهابه لأي سبب، لكن خوفا أكثر عنفا هجم عليه كأسد يزأر في شراسة ويلتهم خياله التهاما، وكان ذلك الخوف عبارة عن سؤال هاجمه قائلا : ماذا لو تجشمت عناء الذهاب إلى ذلك العالم، ثم كان الناس هناك صورة طبق الأصل من الناس هنا في عنادهم وغبائهم و قصر خيالهم؟ ماذا لو كان ذهابك إلى ذلك العالم الشبيه بعالمنا بداية لسلسلة من النكبات والمصائب التي لستَ في حاجة إليها؟ و كيف سيكون استقبال الناس والحكومات لذ هناك إذا علموا حقيقتك؟ هل

سيستقبلونك بالورود والأحضان والإبتسامات الواسعة، أم سيقبضون عليك ويودعونك سجنا كالذي لديهم هنا؟

أسئلة كثيرة هاجمت ذهنه دون أن يكون لديه خط دفاع قوي ضد هجماتها الشرسة، استنام لفكرة أن كل هذه الخواطر ما هي إلا مخاوف من الشيطان أو خواطر من النفس وهواجسها، لكن طرقات عنيفة انبعثت من عقله تأمره أن يتخذ جانب الحيطة والحذر البالغين، قبل أن يقدم على خطوة تكون فيه هلاكه، حاول بينچي أن يمسك العصا من منتصفها قائلا لنفسه: لا ضير من الذهاب إلى هناك لكن دون أن أكشف هويتي الحقيقية حتى أطمأن لهذا العالم وأعرف حسناته وسيئاته. هاجمه هاجس آخر لا يقل خطورة عما سبق: ما الذي ينبغي عليك فعله عندما تقابل شبيهك في العالم الآخر؟ لم يحر جوابا لهذا السؤال، كأن ذهنه أصابه شلل فأقعده من جراء المفاجئة، لكنه كان كالظمئان الذي يبحث عمن يروي عطشه، ولن يجد ساقي أفضل من ذلك العالم الآخر ليروي ظمأه، ويسد رمقه، ويشفي غليله. رن الهاتف فأخرجه من طاحونة أفكاره، هرع نحوه والتقط السماعة في لهفة، ولم يكد يسمع صوت كارل حتى هتف :

كارل متى جئتَ من أفريقيا؟

قال كارل بصوت متناوم :

منذ ساعتين فقط، لم أشأ أن أنام قبل أن أخبرك بما قاله ماسا...

قاطعه ببنچي هاتفا :

لابد أن أحضر عندك بنفسي الآن.

قال كارل في دهشة :

أنا عدت لفوري من رحلة طويلة للغاية، سأنام الآن وعندما استيقظ سأتصل بك.

هتف بينچي في سعادة :

كارل، أنت تستطيع أن تتحمل حاجتك للنوم لنصف ساعة أخرى، لكني لن أستطيع تحمل لهفتي لدقيقة واحجة لمعرفة ما دار بينكما هناك، انتظرني ربع ساعة وستجدني أمامك، أنا قادم إليك الآن.

أغلق هاتفه ثم ارتدى ملابسه في عجالة، كان يخشى أن ينام كارل قبل أن يحكي له كل ما حدث بالتفصيل، بادره ولداه (مايكل) و (توم) و هو يهم بالخروج باللعب

والمزاح، لكنه لم يكن لديه الوقت لذلك فتركهما مسرعا بعد أن اعتذر لهما دون أن يأبه لحزنهما، تبعته زوجته كارول ببصرها في غضب خفي، ثم ربتت على رأسي ولديها لتنسيهما مرارة تجاهل والدهما، انطلق بينچي بسيارته عبر الطرق في سرعة كبيرة، كاد يصدم طفلا يعدو نحو أمه، لكنه تفاداه بصعوبة بالغة دون أن يلقي نظرة خلفه، كانت لهفته تقتل إنسانيته بقسوة، مضى ربع ساعة فقط قبل أن يتوقف بينچي أمام منزل كارل في حدة، نزل دون أن يركن سيارته في الموقف المخصص لها، ثم هرع نحو الباب وطرقه عدة طرقات سريعة، انتظر لحظات ثم أتبعها بعدة طرقات أخرى دون صبر، لحظات وطالعه كارل ناعسا من خلف الباب وعلى وجهه ابتسامة غضبان، وقد اكتسبت بشرته غمقانا ملحوظا، احتضنه بينچي ثم قال ساخرا :

هل عذبوك تحت أشعة شمس أفريقيا اللاهبة؟

أطلق كارل ضحكة عالية خففت من غضبه، ثم قال :

بلى يا عزيزي بينچي، ولكن والحق يقال كانت رحلة ممتعة للغاية، بالرغم من تقيظ الجو هناك وحرارته الجهنمية.

دلفا معا إلى الداخل ثم قال كارل معاتبا :

أليس للهفتك حدود يا رجل؟ أكاد أسقط من فرط احتياجي الشديد للنوم، وأنت تجبرني على أن أحكي لك ما حدث هناك.

سأله بينچي في قلق متجاهلا عتابه :

هل وافقوا على عبوري ذلك العالم أم رفضوا الأمر برمته؟

قال كارل باسما :

بل وافقوا ولكن بشروط.

هتف بينچي في لهفة :

وماهي تلك الشروط؟

أشترطوا أن تذهب بدوني، وسيصحبك ماسا بنفسه في تلك الرحلة كما فعل معي من قبل.

كانت المفاجئتان قاسيتان بطريقة تحملهما بينچي بصعوبة، ثم قال :

و لماذا رفضوا ذهابك معي؟

لوح كارل بيده في استسلام :

لأنهم يرون أن مراقبة شخصا واحدا أسهل من مراقبة اثنين، وعلى العموم لقد أسعدني رفضهم هذا، فأنا كنتُ أريد الذهاب إلى أستراليا لفحص أحد النباتات هناك.

قال بينچي في حيرة وخوف :

قلتَ مراقبة! ما الذي يعنيه هذا؟

هز كارل كتفيه ثم قال :

يخشون من أن تحدث مفاجئات يصعب التعامل معها بسرعة كافية، مما يسبب لهم مشكلات مع الحراس في العالم الآخر.

تسائل بينچي في حدة :

وما الفارق إذن بين ما يمارسوه من تعقيدات وضغوطات وتقييد حريات، وما يمارسه الإتحاد السوفيتي على أرضه مع زائريه تحججا بالحرب الباردة.

هز كارل كتفيه في حيرة قائلا :

كما قلت لك، إنهم يخشون أن تنفرط الأمور من بين أيديهم ويصبح من الصعب السيطرة عليها.

سكت بينچي وهو يفكر في الأمر من كل جوانبه، لاشك أن تلك الإجراءات ستصعب من مهمته وتكبل حريته، وربما تسببت في فشل مسعاه أيضا، لكنه سيتعامل معها كما تعامل مع عشرات المشكلات من قبل، كل ما عليه أن يقبل الوضع الراهن ويتظاهر بالرضا.

التفت إلى صديقه قائلا :

وهل ماسا هذا رجل ذكي بدرجة تجعل من الصعب خداعه؟

قال كارل محذرا :

بالتأكيد، هو رجل يتمتع بالذكاء والحزم، لذا لا أنصحك بمحاولة خداعه وإلا ستكون أنت الخاسر في النهاية.

سأله كارل في استخفاف :

ومالذي يمكن أن يفعله ذلك العبقري؟

قال كارل :

سيعود بك إلى عالمك في الحال ولن يستمع إلى توسلاتك مهما فعلت .

مط بينچي شفتيه في امتعاض، فأردف كارل محذرا :

سيكون كظلك في كل مكان تذهب إليه حتى تعود إلى عالمك في الوقت المحدد.

قال كارل في استخفاف :

لا داعي للقلق يا صديقي.

لكن كارل سأله بنبرة احتداد حاول كتمانها :

كيف تخبرني ألا أقلق وهو سيعلم بمجرد وصولكما إلى ذلك العالم أننا كذبنا عليه عامدين؟

قال بينچي في نبرة هادئة :

لن أكشف عن أبحاثي حتى تكون الأمور سانحة .

تسائل كارل في استنكار :

كل هذا في شهر واحد فقط!

قال بينچي في ثقة :

وفي أقل من تلك المدة أيضا.

تفحص كارل وجه صديقه الذي يذكره في تلك اللحظة بوجه الثعلب في خبثه ودهائه، كان يتمنى أن يملك الجرأة ليعلن رفضه ذهابه، لكنه يعلم مدى حرصه على استكمال أبحاثه. وفي داخله كان ثمة شيئا يخبره أن العالم هناك سيشهد أحداثا جساما مهولة، ستغير من طبيعته للأبد.

****

ودع بينچي أسرته بحرارة، احتضن ولديه في حب، ثم قبل كارول هامسا في أذنيها بكلمات محبة حارة، قالت كارول في حزن وهي تداعب لحيته :

لا أدري لم يختلج قلبي اختلاجة مؤلمة، ربما لأنها المرة الأولى التي تسافر فيها بعيدا دوني.

منحها ابتسامة متلهفة، ثم قال هامسا:

قلبي يختلج لفراقكم طوال شهر كامل، لكني سأعود بمجرد الإنتهاء من بعض الأعمال هناك؟

تركهم ومضى نحو المطار وأنهى إجراءات سفره، ثم صعد الطائرة المتجهة من نيويورك إلى القاهرة، حيث ستتوقف فيها الطائرة للتزود من الوقود، ثم تكمل رحلتها نحو العاصمة عنتيبي، تنهد بينچي تنهيدة حارة وهو يتطلع من خلال النافذة المستديرة إلى الأفق البعيد، راح يتخيل ماالذي سيواجهه في ذلك العالم العجيب، الذي بالرغم من تشابهه مع عالمه، إلا أنه يختلف عنه اختلافا مبهما يجعله عالما فريدا بذاته، وبالرغم منه احتل عقله وجه ماسا المجهول وهو يلتصق به التصاقا وثيقا لا ينفك عنه، ومن داخله انبعث الغضب كنيران تنفث من بين أنياب تنين غاضب، ثم استحال ذلك الغضب إلى دهاء وخبث يغرف منهما بغير حساب، ، لم يكن يؤمن بأن هناك معضلة لا يمكن حلها مهما كانت عسيرة، كل ما عليه فعله أن يستخدم دهائه الثعلبي بعد أن يدرس الأمر جيدا، وسيعثر على تلك الثغرة التي من خلالها يستطيع أن ينفذ من ذلك الحصار المفروض عليه، ثم يضع قنبلة من قنابل دهائه فتهدم المشكلة من الأساس و تجعلها أثرا بعد عين. المهم ألا تضيع تلك الفرصة النادرة من يده أبدا، إنه لا ينسى كيف مرت تلك الأيام عليه و هو ينتظر كارل أن يعود من أفريقيا، بين اشتياق ملتهب وخوف عميق، لكنه استكن مشاعر الخوف والقلق، وحسمها لمصلحة اشتياقه ولهفته لرؤية ذلك العالم الآخر. وصل أخيرا بعد رحلة استمرت أكثر من عشر ساعات في مطار القاهرة، ثم ركب طائرة أخرى طارت نحو أوغندا قبل أن تهبط في مطار عنتيبي، ما إن خرج من المطار حتى أشار إلى سيارة أجرة ركبها ومضت به عبر طرقات شديدة الإزدحام، أشد مما يراه في نيويورك نفسها، وصل إلى قرية (كيازانجا) ثم أخذ يتلفت حوله ينتظر أن يستقبله أحد، وفي أثناء انتظاره راح يتأمل شكل البيوت الطينية الصغيرة المتناثرة في كل مكان، انقطع تأمله حين وقف أمامه رجل طويل أسود، تلوح في وجهه ابتسامة ودود، قال الرجل في ترحاب:

لقد أرسلني السيد ماسا لأصطحبك إلى منزله.

بلهفة مضى بنچي معه دون أن ينطق بكلمة واحدة، بالرغم من إرهاقه الشديد بسبب عشر ساعات من السفر المتواصل، إلا أنه كان يتعجل تلك المقابلة العاجلة

مع ماسا، ذلك الحارس الذي حدثه عنه كارل مرارا أثناء حديثه عن ذلك العالم الموازي، والذي سيرافقه كظله في رحلته الفريدة. وصل إلى منزل ماسا بعد عشر دقائق من السير عبر منازل بسيطة وصغيرة، بعضها اعتلاه سقف من القش وبعضها من الخشب، حتى وصل إلى منزل ماسا فوقف يتأمله، كان بيتا مكون من طابقين، ويبدو أكبر حجما من البيوت التي مر عليها منذ دخل القرية، وتميزه ساحة متوسطة الحجم يركض في أرجائها كلب كبير، ثم توقف وأخذ ينبح حينما وقعت عيناه على بينچي، دلف بينچي خلف الرجل الطويل إلى الداخل، ما إن سار عدة خطوات حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام رجل طويل يبتسم في هدوء، أدرك من خلال الأوصاف التي أدلى إليه بها كارل أنه ماسا نفسه، صافحه الرجل بقوة تشي بما يتمتع به من صحة، ثم دعاه للجلوس على أريكة وضع عليها مفرشا أحمرا تبدو حالته جيدة، لم يشعر بينچي بالإستياء من الجلوس على الأريكة وهو يتأمل في ملامح ماسا الوسيمة بالنسبة لبني جنسه، وجسده النحيل القوي المعروق، الذي يعطي انطباعا بكونه مقاتلا رشيقا، رنا ببصره إلى ملابسه المزركشة الفضفاضة التي تبعث على الراحة لاتساعها، والحركة والحرارة لألوانها المبهرجة على نحو متناقض، قال ماسا بلغة انجليزية ركيكة دون أن تفسد ركاكتها قدرته على التعبير :

يبدو أنك يا مستر بينچي قد بذلت مجهودا كبيرا حتى تأتي من أمريكا إلى قريتنا المتواضعة.

منحه بينچي ابتسامة واسعة، ثم قال :

المجيء إليك ومقابلتك وجها لوجه يستحق بذل مجهود أكبر يا مستر ماسا.

ابتسم الأفريقي للباقته ثم هب قائما وقال :

تعالى معي لأريك غرفتك التي ستبيت فيها حتى الصباح، حتى ترتاح من وعثاء السفر وعنائه.

تبعه بينچي شاعرا بالحنق، فقد كان يود أن يتحدث معه عن تفاصيل رحلته التي من المفترض أن يخوضها في الغد، لكنه رأي أن ينتظر حتى الصباح حتى لا يبدو أمامه شخصا متلهفا، أراه ماسا حجرته ثم قال:

سنأتيك بالطعام على الفور، فلا شك أن معدتك تستغيث من عضة الجوع.

أومأ بينچي برأسه موافقا، ثم قال محافظا على ابتسامته :

في الحقيقة أشعر أن معدتي بدأت تأكل نفسها من فرط الجوع والعطش.

ابتسم ماسا قائلا :

ونحن لسنا قوما بخلاء يا مستر بينچي، سنأتيك بشتى أطايب الطعام والشراب مما يفضله كبير السحرة شخصيا، فأنت ضيفه حتى ترحل.

لم تمض دقائق حتى جائت إمرأة عجفاء تحمل صينية طعام كبيرة، وضعتها أمامه ثم عادت من حيث أتت دون أن تنطق بكلمة، راح بينچي يتأمل الأطباق الموضوعة أمامه دون أن يميز منهما صنفا واحدا، قطع ماسا حنقه قائلا :

رجاءا تناول طعامك ثم نم حتى الغد لتستعيد طاقتك، فلا أحب أن تبدأ يومك في العالم الآخر مرهقا.

كاد بينچي يصرخ فيه أن يسمح له بالعبور إلى ذلك العالم على الفور دون الإنتظار إلى الغد، لكنه كتم صرخته في أعماقه لتشترك مع صرخات أمعائه الفارغة المحنقة مخلفة صدى عميقا مزدوجا، بادله الإبتسامة بأخرى مغتصبة، غادر على إثرها ماسا الحجرة بعد أن أغلق بابها خلفه في إحكام، تأمل بينچي صفحة الطعام مرة أخرى ككلب جائع، ثم قرر أن يلعب دور الكلب في عناية فراح يتشمم الطعام بأنفه في حذر، وكانت نتيجة ذلك الدور المؤدى ببراعة أن أبعد صينية الطعام عن وجهه، شاعرا بالحنق يملأ أمعائه بدلا من الطعام الذي يشبه الروث في شكله والبول في رائحته، ثم قرر بينچي مستخدما إرادة صلبة تميزه عن الحيوان، أن يظل جوعانا حتى الصباح دون أن يقرب هذا الطعام المنفر المقزز، وتسائل في دهشة كيف يمكن أن يتمايز البشر في طعامهم إلى هذا الحد، تذكر عندئذ طعام الصينين من الحيوانات والحشرات فأبدى تأنفه، وأخذ يصبر نفسه قائلا لها : إن الليل قد آن وقت سدول أستاره ولم يبقى سوى سويعات قليلة ويرفع الستار باكرا. استوى بينچي بجسده على الفراش الخشن، فزاده شعورا بالإستياء والضجر، أغمض عينيه محاولا الفرار من الحياة التي يحياها في هذه اللحظة، هاربا بعقله إلى العالم الآخر الذي تصطلي روحه بنار الإشتياق للذهاب إليه.

****

تفتحت عين بينچي مع تفتح النهار فهب قائما من مكانه، ثم تحسس ظهره في ألم من جراء نومه على الفراش الغليظ المحاشي، أحس كأنه كان راقدا على جذع شجرة قاس متيبس وليس فراش معد للنوم، لكن لم يكد يتجاهل آلام ظهره حتى هاجمته آلام معدته الجائع الحانقة، التي تصرخ معترضة من ألم الجوع الذي يكاد

يمزق أمعائها بأنيابه الحادة، التفت حوله لعله يجد ما يصلح للأكل لكن دون جدوى، ولما يأس طرق باب حجرته فطالعه وجه ماسا الباسم يسأله في اهتمام:

هل نمت جيدا؟

قال بينچي محاولا مداراة حنقه وسخطه :

نعم نمتُ جيدا لكني لم أستطع تناول طعامكم .

بدا على وجه ماسا الإنزعاج فسأله :

لم تأكل منذ البارحة! ما الذي تريد تناوله لنحضره لك؟

لوح بيديه قائلا :

أي طعام يصلح للأكل يا رجل، أقصد طعامنا نحن بالطبع وليس طعامكم .

ودون تأخير أرسل ماسا شخصا ليحضر له من مطاعم المدينة طعاما أوروبيا على جناح السرعة، ويبدو أن جناح السرعة هذا كان لذبابة عجوز، فقد استغرق الرجل في الذهاب والعودة ثلاث ساعات كاملة، كاد يسقط خلالها بينچي على الأرض مغشيا عليه، لكنه أقسم ألا يقرب طعامهم بالرغم مما حل به من الإنهاك والتعب، ما إن رأى الطعام الشهي أمامه حتى انقض عليه فاتكا به دون رحمة أو هوادة، تأمله ماسا وهو يمزق قطع الفراخ ويلقفها فمه، ويلتهم المعجنات دون مضغ، كأنه أجرى عملية استئصال لحنجرته، ثم وسع مجرى البلعوم باستخدام ماسورة صرف كبيرة كي يسهل عليه بلع الطعام دون مضغه، وبعد نصف ساعة كاملة من البلع وقليل من المضغ، انتهى بينچي من حملته الأمنية الواسعة، ثم ربت على بطنه وقال بعد أن تجشأ :

هذا هو الطعام الذي أعرفه .

ضحك ماسا ثم قال :

أنتم تتناولون طعاما غير صحي، ثم تفتخرون أمام العالم بانتهاج سبل المعيشة الراقية.

تجاهل بينچي كلامه تماما وسأله في لهفة :

ألم يحن الوقت بعد للذهاب إلى عالمكم؟

قال ماسا في جدية مباغتة :

بالتأكيد، ولكن ينبغي أن نؤكد على عدة أشياء قبل الرحيل.

أومأ بينچي برأسه في استسلام، فأردف ماسا :

لقد وافقتُ على إرسالك إلى عالمنا لأن كارل هو الذي رشحك لتلك الرحلة، وهو رجل أثق فيه كثيرا، لذا من الأفضل أن تتخذ صديقك قدوة في أخلاقه وحفظه للعهد وابتعاده عن المشاكل، أي أننا حينما نتفق على مكوثك شهرا واحدا فهذا يعني الإلتزام التام بالمدة المحددة، لا ينبغي أن نتأخر يوما واحدا، ولا ينبغي أيضا افتعال أي مشكلة في العالم الآخر، لأن هذا سيغضب حراسه ويلفت نظر الأجهزة الأمنية إلينا هناك، هل فهمت؟

وافقه بينچي بإيماءة أخرى من رأسه تحمل لا مبالاة خفية، التقطتها عيني ماسا الضيقتين الحادتين في عدم ارتياح، لكنه تجاوز الأمر مردفا في صرامة :

إذا ارتكبت جريمة هناك أو خالفت أحد قوانينهم الصارمة، فسيتحتم علي حينها إعادتك إلى عالمك مهما أبديت من أسباب ثم محاسبتك على ما ارتكبت من جرائم، لأننا كسحرة هنا وهناك أقسمنا على الإلتزام بالعهد الذي بيننا وبينهم، والذي أهم قواعده الإلتزام بالقوانين الموضوعة في كل عالم، وعدم التدخل في قوانين العالم الآخر أو السعي لإبطالها أو حتى الإعتراض عليها، والتي من بينها بالطبع الإلتزام بقوانين الدول والحكومات.

سأله ببنچي في اهتمام :

ومن الذي يضع هذه القوانين في العالمين؟

أجابه ماسا في اقتضاب :

السحرة أنفسهم.

سأله بنچي :

هل هؤلاء السحرة في العالم الآخر يعلمون بقدومي من الآن.

قال في حزم :

نعم ولكنهم لن يتدخلوا حتى تتخطى القواعد التي ذكرتها لك منذ قليل.

ابتلع العالم الأمريكي ريقه في قلق، لم يكن يتخيل أن الأمر معقد إلى هذا الحد، كان من الغباء أن يتخيل أن العالم الآخر ليس لديه هو الآخر سحرة يقومون بحراسته ومراقبته، ومع كل ما يشغله في تلك اللحظة خطر له خاطرا مضحكا، فسأل ماسا :

هل هناك ماسا آخر يحرس الجسر هناك؟

ابتسم الساحر بالرغم منه وقال :

لا بالتأكيد، قد يكون مهندسا أو طبيبا أو أي شيء آخر.

تسائل بينچي في ابهار :

ولماذا هذا الإختلاف بين عالمين متناسخين؟

قال ماسا في بساطة :

لا أحد يعرف بالتحديد، كل ما أعرفه أن الإختلاف ليس في وظائفنا فقط، بل الإختلاف يتعدى إلى الأفعال والأحداث المترتبة على ذلك لاختلاف الشخصيات .

سأله بينچي في حيرة :

ماذا تعني؟

سأشرح لك، على سبيل المثال أنت تعمل عالما، ماذا لو استلم وظيفتك أحد غيرك؟ هل كانت قرارات ذلك الشخص ستكون مثل قراراتك، أم أنها ستختلف لاختلاف شخصية كلا منكما ؟

تمتم بينچي متفهما :

الآن فهمت، شخص مختلف تعني قرارات وردود أفعال مختلفة، وبالتالي نتائج مختلفة .

قال ماسا :

كنت أعلم أنك ستفهم الأمر بمنتهى السهولة، يالعقول العلماء.

هب بينچي واقفا بغتة، ثم قال باسما :

حسنا، ألم يحن الوقت بعد للذهاب إلى كبير السحرة؟

هناك شيء أخير ينبغي أن تعرفه قبل أن تذهب إلى العالم الآخر؟

سأله في بينچي في حذر :

وماهو؟

قال ماسا :

هناك نسخة منك في العالم الآخر، لا ينبغي عليك الإقتراب منها طوال الشهر الذي ستقضيه هناك مهما حدث، هل فهمت؟

أومأ بينچي برأسه إيجابا، تطلع ماسا إلى الشمس التي انتصفت كبد السماء، ثم قال :

حسنا لقد حان الوقت، هيا بنا .

قام بينچي من مكانه في حماس، وبدت على صفحة وجهه ابتسامة منتصرة لم ينجح في إخفائها تماما فبقيت رواسبها، سأله بينچي وهو يمسح عرقه الغزير أثناء سيرهم عبر المنازل البسيطة :

هل لابد للشمس أن تكون في منتصف السماء، حتى يؤدي كبير السحرة طقوس الإنتقال إلى العالم الموازي؟

قال ماسا :

كلا، ولكن كبير السحر يفضل ذلك الوقت دائما.

راح بينچي يمسح عرقه وماسا يتقدمه في خطوات واسعة قوية، حتى وصلا إلى ساحة كبيرة يتوسطها منزل كبير مكون من طابقين، كان يبدو واضحا أن كبير السحرة هو من يقطن هذا المنزل الكبير الواسع، قال ماسا :

سننتظر حتى يخرج كبير السحرة .

لاحت ابتسامة مزهوة على شفتي بينچي نجح في وأدها سريعا، ثم أطلق صفيرا منغوما خافتا جعل ماسا يرمقه بطرف عينه قبل أن يتجاهل الأمر برمته، على خلاف ما اعتقده بينچي لم يستغرق كبير السحرة طويلا حتى خرج من بيته بجسده الضخم وملابسه الفضفاضة الملونة، يسير عن جانبيه رجلين طوال القامة مفتولي العضلات في صمت مهيب، انحنى له الجميع بمجرد ظهوره، فاضطر بينچي إلى الإنحناء بدوره حتى لا يثير غضبه، كان يشعر بالسخرية دائما من تلك الطقوس الأفريقية البالية التي انتهت من العالم منذ قرونٍ طويلة، لكنهم مازالوا يحتفظون بها ويتدارسونها فيما بينهم بطريقة تدعو للإستغراب والإستهجان، لكنه

لم يتوقف عند تلك النقطة طويلا حين أشار لهم كبير السحرة بيده فانتصبوا قائمين، ثم مضى نحو عرشه فجلس عليه وملأه بجسده الضخم، ثم أشار إلى (ماسا) فتقدم نحوه وتكلم معه بلغته المحلية، ثم أشار إلى بينچي فاقترب على الفور وقلبه يدق دقات عنيفة، بدا كبير السحرة حديثه فترجم ماسا كلامه قائلا :

يؤكد (أوكوي) كبير السحرة، والمسئول الأول عن فتح الجسر بين عالمنا والعالم الآخر على أن تلتزم بموعد العودة المحددة، وألا تفتعل أو تتسبب في أي مشاكل هناك وإلا كان جزائك الطرد وقطع رحلتك، وعدم السماح لزيارة ذلك العالم الآخر مرة أخرى إلى الأبد.

أومأ بينچي برأسه في خضوع، فهز أوكوي رأسه في رضا ثم قام من مقعده ومضى نحو منتصف الساحة في بطأ، ثم توقف في وسط الدائرة وأخذ يتمتم بكلمات مبهمة وهو يمد يديه أمامه باسطا راحته للسماء، لوهلة ظن بينچي أن الأمر لا يعدو كونه مهزلة كوميدية ستوقعه أرضا من الضحك، لكن بغتة انبعث ضباب كثيف أمامهم، ثم ظهر من بين ذلك الضباب جسرا طويلا لا يرى نهايته، أصاب بينچي ذهولا وارتياعا مما رآه أمامه، ثم أطلق صيحة دهشة كتمها سريعا عندما رمقه أحد السحرة بنظرة صارمة، أشار له ماسا أن يتقدمه نحو الجسر، تردد بينچي للحظة ثم كسر تردده وتقدم نحو الجسر بقلب مرتجف ومتلهف، كان يظن من قبل أن رحلته أشبه ما تكون برحلة تقليدية عبر السهول والغابات، ثم يعود منها وقتما يشاء بعد أن يفعل كل ما يتمناه في رحلته، لكنه في تلك اللحظة أحس أن الأمر أخطر مما كان يتصور، وأنه لم يعد له سبيلا للتراجع، سار على الجسر وهو يتلفت حوله محاولا اختراق الضباب المنتشر دون جدوى، التفت إلى رفيقه قائلا :

هل سنمشي طويلا؟

لم يكد ينهي عبارته حتى رأى نهاية الجسر أمامه يبدو على حافته العالم الآخر، التفت إلى ماسا يسأله وقد اختلج صدره بشدة :

هل هذا هو العالم الموازي لعالمنا؟

أومأ ماسا برأسه في إيجاب وقال باسما :

نعم هو بشحمه ولحمه وعظامه، هيا استعد يا بطل لتبحث عن نباتاتك النادرة.

تحسس بينچي أوراق الأبحاث التي يخفيها أسفل قميصه بعناية، ثم أكملا سيرهم نحو نهاية الجسر قبل أن يختفي بغتة، ويجدوا أنفسهم يقفون وسط الناس في

العاصمة (عنتيبي)، توقف بينچي بالرغم منه وهو يتطلع إلى الناس من حوله في دهشة، لكن فجأة أطلقت سيارة أداة تنبيهها عندما فوجئ قائدها برجلين يبرزان من أمامه بغتة، قفز ماسا وبينچي من أمام السيارة المنطلقة قبل أن تدهسهما، وقائدها يلتفت إلى الخلف نحوهم متمتما في ذهول :

متى ظهرا هاذان الرجلان؟!

تبادل ماسا مع بينچي النظرات، ثم قال الأول :

نسيت إخبارك أن العابرون إلى العالم الآخر يظهرون بين الناس بغتة.

حملق بينچي في وجهه للحظات، ثم راح ينظر إلى الناس والسيارات والبنايات من حوله قائلا :

لا أشعر أن هناك اختلافا جذريا بين هذا العالم الجديد والعالم الذي تركناه خلفنا.

قال ماسا مستنكرا :

وهل تظن أنك ستجد عالما مختلفا تمام الإختلاف عما تركناه خلفنا؟ لا تنسى أنه في النهاية مجرد عالما مستنسخ من عالمنا.

وهنا راح بينچي يتسائل في قلق : هل سيجد فرصته في هذا العالم أم أنه سيعود إلى عالمه خالي الوفاض؟

حثه ماسا على السير مرة أخرى قائلا :

ولكن هذا ليس معناه أنك ستجد عالما مماثلا لعالمك في كل شيء، وأعتقد أن كارل قد شرح لك الإختلافات التي رآها هنا عندما جاء منذ خمس سنوات .

قال بينچي متمتما :

وهذا ما أعتمد عليه في الحقيقة.

أحس ماسا بالنبرة التي تحدث بها أنها تشي بأنه يخفي شيئا ما لا يود إظهاره له، أشار إلى سيارة أجرة احتوتهما على الفور واخترقت بهما تيارا زاخرا من الناس يسدون الطريق بزحمتهم، فقال بينچي ساخرا :

كنتُ أتمنى أن أجد دول إفريقيا أكثر تقدما في هذا العالم منه هناك، ولكن يبدو أن العقلية نفسها في كل مكان وفي أي عالم.

لم يستطع ماسا أن يتجاهل سخرية بينچي كما فعل من قبل، فقال بسخرية مماثلة تحوي مرارة و غضب:

لو لم تتدخلوا بكبريائكم وصلفكم وغروركم لإفساد قارتنا باحتلالكم لبلادنا وسرقتكم لثرواتنا، لكانت قارتنا هي الأعظم بين القارات، لكن حسدكم لنا على ثرواتنا الواسعة، منعتكم من أن تقبلوا الوضع على ما هو عليه فتآمرتم علينا.

لحظه بينچي بعينه دون أن يرد، أدرك الخطأ الذي ألقى نفسه فيه دون حكمة، لم تطاوعه نفسه على الإعتذار فسكت، غلفهم الصمت حتى وصلت السيارة التي تقلهم إلى مطار عنتيبي، فنزلا منها ثم توجها إلى ضابط الجوازات وقدما أوراقهم إليه، تطلع الضابط إلى أوراق بينچي ثم قال في دهشة :

كيف دخلت إلى بلدنا بهذا الختم يا رجل! إنه ختم لم نعد نعمل به منذ شهر مضى.

أسقط في يدي بينچي وهو يتطلع إلى ضابط الجوازات في قلق وترقب، لكن ماسا تدخل قائلا :

هذه مشكلة الموظف الذي كان في مكانك وليس مشكلتنا نحن يا أوكا، هيا لا تجعل الرجل ينتظر كثيرا.

لم يكد الموظف يلمح ماسا الذي يقف خلف بينچي في تلك اللحظةحتى ابتسم، وقال كمن فهم الأمر :

نأسف لإزعاجك يا مستر بينچي، تقبل اعتذارنا.

استلم بينچي جواز سفره، ثم لحق به ماسا فقال له :

يبدو أن القوم هنا أكثر تطورا منكم هناك.

قال ماسا في اقتضاب :

بعض الشيء يا مستر بينچي.

طارت طائرتهما نحو القاهرة، ثم منها إلى أمريكا قبل أن يحطا في نيويورك، كان قلب بينچي يختلج بشدة، والأفكار المخيفة تهاجمه بقسوة حين شرع يهبط من سلم الطائرة، في بداية الأمر لم يجد اختلافا واضحا، لكن بعد أن خرج من المطار بدأ يشعر باختلافات كثيرة، بدءا من الوجوه التي لم يرها من قبل، إلى درجة الحرارة المتدنية بعض الشيء، ثم كان صورة رئيس الجمهورية التي حملت وجه رونالد ريجان، بدلا من چيمي كارتر الرئيس الحالي لأمريكا في عالمه الأصلي، كل

هذا جعله يدرك أن ثمة فروقا واضحة بين العالمين، وأن هناك فرصة كبيرة لأن يجعل تلك الفروق البسيطة فروقا جذرية إذا أحكم قراراته. توجها نحو فندق (ماندارين أورينتال) وحجزا فيه غرفتين متجاورتين، ثم قال ماسا وهو يهم بدخول غرفته :

لا تقدم على أي خطوة قبل أن تخبرني بها.

أغضب هذا الكلام بينچي لكنه أسرها في نفسه ولم يبدها له، فقال في نبرة هادئة :

لا تقلق يا عزيزي ماسا، سأحصي حتى أنفاسي وأخبرك بعدها .

قال عبارته ثم دلف إلى حجرته و أغلق بابها خلفه، تابعه ماسا بعينيه معقود الحاجبين في صمت، لكن عقله كان يعمل بسرعة صاروخ عابر للقارات، وذلك العقل أخبره للمرة الألف أن بينچي يختلف عن كارل اختلافا جذريا، فبينما كان كارل هادئا مطيعا واضحة أهدافه، يتفادى المشاكل ويتجنبها قدر استطاعته، كان على النقيض من ذلك يبدو بينچي كائنا متمردا، داهية مشاكسا، لا يتجنب المشكلات فضلا عن أفعالها. زم ماسا شفتيه في قلق، ثم دخل غرفته وقلبه يحدثه أن الأمور لن تظل هادئة لفترة طويلة.

****

بعد ساعة واحدة فقط من دخوله إلى غرفته، تسلل بينچي خارجا على أطراف أصابعه، مصطحبا معه أبحاثه التي سيعرضها على إدارة جامعة هارفارد، حيث أحب أن يبدأ بها دون سواها. مضى نحو الجامعة آملا أن ينظروا بعين الإعتبار آخر ما توصل إليه في مشروعه العلمي، آملا أن يمنحه القدر الفرصة لتحقيق حلمه في هذا العالم بعد أن عجز عن تحقيقه في عالمه الأول. توقفت سيارة الأجرة أمام جامعة هارفارد فنزل منها بعد أن نقد السائق أجرته، ثم دلف إلى الداخل في سرعة ولهفة. طلب مقابلة مدير الجامعة، وحين وقف أمامه أدرك أنه جاء إلى عالم مختلف بالفعل، فذلك الذي يقف أمامه مديرا للجامعة، هو نفسه چيسي عامل النظافة في جامعة هارفارد في عالمه الحقيقي. (يا لسخرية القدر!)

هكذا حدث بينچي نفسه وهو يصافح چيسي في احترام بالغ. شرع يقدم نفسه كعالم هندسة وراثية في جامعة أكسفورد، وحكى له أنه لم يجد فرصة هناك ليستمع أحد له فتوقف عن تطوير أبحاثه، ثم هرع إلى جامعة هارفارد لعله يجد فرصة لاستكمال أبحاثه. طلب منه مدير جامعة هارفارد الإطلاع على هويته، تأمل

المدير وجه بينچي الذي يزينه لحية، وقارنها بالصورة التي تطابقت مع الأصل، وكتب أسفلها: (بينچي والتر، عالم في الهندسة الوراثية في جامعة أكسفورد، بريطاني الجنسية.)

منحه چيسي ابتسامة سريعة ودعاه للجلوس للإستماع له، ما إن جلس بينچي حتى راح يشرح له مشروعه العلمي قائلا :

مشروعي العلمي يعتمد على الإنحلال النووى، وكما تعرف سيادتكم بالطبع، نأخذ نواة من خلية جسدية، ثم نزرعها في الرحم بعد أن ننزع نواته، ولكن بما أن الرحم يظل ملتصقا به بعد التنظيف بقايا النواة السابقة، فأنا على وشك اكتشافُ مادة تستطيع إزالة أي رواسب من نواة الرحم، مما يمكنني من استنساخ بشري بنسبة مائة في المائة، وهذا هو أول انجازاتي يا مستر چيسي. أما ثاني إنجازاتي فهو سعيي لاستنساخ ذاكرة البشر وليس استنساخ الجسد فقط.

كان الإنبهار الذي لاح في وجه المدير لا يحتاج إلى شرح، فأكمل بينچي بعد أن اكتسب الثقة :

وأنا قادر على تحقيق كلاهما في القريب إذا ما وفرت لي سيادتكم الدعم والبيئة المناسبة.

أبدى المدير إعجابه واهتمامه البالغ بالمشروع، ووعده أن يلقى منه كل اهتمام وتقدير، ثم سأله في حيرة :

ولكن كيف لعالم عبقري مثلك أن يظل مجهولا لنا كل هذا الوقت؟

قال بينچي في ارتباك :

قضيتُ أغلب وقتي في الإعداد لهذا المشروع، ولم أهتم بالشهرة أو إقامة علاقات في الأوساط العلمية.

تمتم المدير قائلا في اقتناع :

حسنا، لهذا لم أسمع اسمك من قبل بين العلماء الأفذاذ، ربما أكون سمعتُ اسم بينچي والتر الطاهي العبقري في مطعم (نيڤادا) في نيويورك، آه تذكرت، إنه لا يحمل اسمك فقط بل يحمل وجهك أيضا لكن دون لحية، حتى أن من لا يعرفكما يظنكما تأمين!

بدا على وجه بينچي الصدمة والدهشة، فأطلق چيسي ضحكة عالية، ثم قال :

آه، خجل العلماء، لابأس، سأراجع هذا البحث العلمي العظيم مع فريق من العلماء في الغد، ويجب أن تكون حاضرا للإجابة على أية أسألة.

قال بينچي في حماس وسعادة :

بالتأكيد يا سيدي المدير، أنا رهن الإشارة.

صافحه بينچي في امتنان ثم غادر حجرة المدير ومبنى الجامعة، لكنه لم يعد مباشرة إلى الفندق، بل عرج على مطعم نيڤادا لرؤية بينچي الطاهي الذي تحدث عنه المدير أثناء المقابلة، كان يتسائل أثناء ذهابه إلى ذلك المطعم الذي يعمل فيه مثيله، هل ما ينتوي فعله بالذهاب إلى هناك هو الصواب، أم أن ذهابه لمقابلة نظيره سيجر عليه متاعب ومشكلات لا حصر لها؟

لكن فضوله لم يكن ليتركه يرتاح لحظة حتى يرى بنفسه ما يشك بوجوده. دلف إلى المطعم المزدحم ثم اتخذ لنفسه طاولة، ثم جلس ينتظر أن يثير وجوده التسائل أو يدله أحد على بينچي الآخر، لحظات وتقدم نحوه شابا قائلا في تهذيب :

هل تريد طعاما محددا، أم تريد الإطلاع أولا على قائمة الطعام لدينا؟

لم يكد النادل ينهي عبارته حتى حدق في بينچي بدهشة قبل أن يتراجع إلى الخلف في حدة، أدرك بينچي سبب دهشته فأسرع يقول ملاطفا حتى لا يلفت لهم الإنتباه :

لا داعي للدهشة يا رجل، أعلم ما الذي أدهشك بالتحديد .

قال الشاب و الدهشة لم تزايله بعد :

أنت تشبه بينچي تماما لكن مع وجود لحية !

قال بينچي في حذر وهو يتلفت حوله :

هل أستطيع أن أراه دون أن نلفت نظر الناس إلينا؟

قال النادل في حماس :

بالتأكيد تعالى معي.

تبعه بينچي وقلبه يخفق من الإنفعال، لحظات وسيقابل نظيره في هذا العالم وجها لوجه، بل إذا شئنا الدقة سيقابل نفسه، ولكنه في هذا العالم لا يمتهن وظيفة عالم هندسة وراثية، بل يعمل طاهيا في مطعم شهير، ولسخرية القدر أيضا فهو لا يحب الطهي، ولا يحب حتى التواجد في المطبخ في أي وقت إلا إذا اضطرته الظروف

لذلك. دلف خلف الشاب عبر ممر قصير ثم وجد نفسه في المطبخ، توقف جانبا في ركن خفي وطلب من الشاب أن يستدعي بينچي إلى هذا المكان، أطاعه النادل وذهب ليستدعي نظيره، في حين انتظر بينچي في مخبأه و هو لا يزال يتسائل في شك : هل سيقابل نفسه فعلا في هذا العالم أم أن الأمر كله محض خيال؟ لكنه تذكر في تلك اللحظة مدير جامعة هارفارد چيسي، الذي كان عامل نظافة في نفس الجامعة في عالمه الأصلي.

لحظات ثم عاد النادل وخلفه نظيره في العالم الآخر، بينچي والتر الطاهي .

****

حدق بينچي ونظيره في بعضهما بدهشة وذهول بالغين، مرت فترة لم ينبس أحدهما ببنت شفة، بدا لكل منهما كأنه ينظر إلى نفسه في المرآة مع اختلاف اللحية والشارب، كان النادل يراقبهما عن قرب في مزيج من مشاعر الإثارة والحماس وعدم التصديق، أخرج العالم الأمريكي نفسه بصعوبة من بحر دهشته اللجي، وطلب من النادل أن يتركهما وحدهما ولا يخبر أحدا بما رآه، غادرهما الشاب مسرعا في حين مد بينچي يده مصافحا مثيله بيد مرتعشة، قال الأخير في سعادة :

كنتُ دائما أشك أن لي أخ من أبي العربيد في مكان ما، ولكني كنتُ أستبعد حدوث الأمر بالرغم من ذلك.

راح عقل بينچي يعمل كالصاروخ، أوحت له عبارة مثيله بالحل لكل مشاكله التي ستعترضه مستقبلا، وكم أثلجت صدره هذه العبارة فابتسم قائلا :

أنا أيضا لم أكن أعرف أن لي أخ إلا عندما أخبرني النادل بأمرك، ولكن أليس اسمك هو بينچي والتر؟

قال الطاهي :

نعم، وأنت؟

قال بينچي :

وأنا اسمي چيسي والتر.

تعانقا في حرارة، قطع لحظاتهما العاطفية الطهاة الذين كانوا يشاهدون هذا المشهد من مكانهم، فراحوا يهنئونهم ويباركونهم على اجتماعهم من بعد تفرق.

جلس بينچي مع نظيره يتكلمون في أمور عديدة، كان بينچي يستهدف من ورائها معرفة أموره الدقيقة عن حياته، حتى يتسنى له وضع خطة متقنة يمكنه من الإعتماد عليها مستقبلا، إذا ما فاجأه القدر بمفاجئاته القاسية، كان دائما يعد لكل شيء عدته ويستغل كل معلومة لصالحه. استأذنه بينچي في الرحيل على أن يعود لرؤيته قريبا، ثم غادر المطعم وهو يحس بالتفاؤل يحتل كيانه، ويبعث جنوده النشطة لحث خلاياه ودفع الطاقة خلال عروقه، عاد للفندق الذي يقيم فيه ثم صعد السلم بحيوية لم يعرفها منذ زمن، لكنه لم يكد يقترب من غرفته حتى انفتح باب الغرفة المجاورة لغرفته، ثم ظهر منها ماسا يقول بنبرة حادة :

أين كنت يا بينچي طوال هذا الوقت، ألم أخبرك ألا تذهب إلى أي مكان بدوني؟

تحاشى بينچي النظر إلى وجه وقال وهو يفتح باب غرفته :

لم أستطع النوم فخرجت أتسكع في الطرقات.

حدجه ماسا بنظرة متشككة، ثم سأله :

منذ الصباح وأنت تتسكع يا بينچي.

منحه ابتسامة واسعة تخفي سخرية عميقة، ثم قال :

نعم منذ الصباح، هل أنا مسجون في هذا العالم؟

قال عبارته ثم دلف إلى حجرته وارتمى على فراشه، ثم راح يفكر في المقابلة التي سيجريها مع مدير الجامعة غدا، والتى من المفترض أنها ستغير مجرى حياته للأبد. أما ماسا فقد أخذ يفكر في قلق عما يمكن أن يحدث في الأيام القادمة، بدأ يظن أنه أخطأ عندما اصطحب بينچي معه إلى العالم الموازي، ولكن لم يعد بيده حيلة إلا أن يتلافى الأخطاء التالية، إنه لا يعرف نيته الحقيقية في المجيء إلى هنا، لكنه ليس بحاجة لكثير من الذكاء ليدرك أنه ضحية خدعة سقط فيها كالغر الساذج، لكن كان هناك سؤال يحيره بشدة : هل اشترك كارل في هذه الخدعة، أم أنه هو الآخر كان ضحية خطة شريرة لا يعرفها إلا صاحبها؟ لكنه يشعر أن كارل أيضا يعرف شيئا وقد أخفاه عنه، لذا كان من الضروري أن يعرف هوية بينچي الحقيقية، فتلك النقطة سيعتمد عليها اعتمادا كبيرا في تعامله معه في المستقبل.
ولما كان قد أخذ قسطا كافيا من النوم لم يجد حاجة في الجلوس بغرفته، فهبط إلى بهو الفندق الفسيح وتناول طعاما نباتيا، ثم خرج يتمشى في الشوارع القريبة بعض الوقت قبل أن يدلف إلى مقهى صغير، كان يريد الإسترسال مع نفسه وإعادة تقييم كل ما حدث منذ قابل بينچي وحتى هذه اللحظة، فهو كرجل شكاك، مجرد

نظرة ودودة من رجل غريب، أو تلعثم رجل بليغ مفوه يلقي الشك عميقا في نفسه، فما بالك برجل تندي منه أفعال ليس لها إلا تفسير واحد، وهو أنه يخفي شيئا خطيرا قد تنتج عنه كوارث. أنهى قهوته ثم عاد إلى الفندق وتحدث مع موظفة الإستقبال لبرهة ثم مضى لغرفته مباشرة، لكنه توقف بغتة عندما بلغه صوت بينچي من داخل غرفته يقول في حماس بالغ :

هذا خبر عظيم يا مستر چيسي، سأكون عندك في الوقت المحدد دون تأخير دقيقة واحدة، إلى اللقاء.

ثم بلغه صوت بينچي من داخل غرفته يصيح في نبرة انتصار واضحة بعد أن أنهى الإتصال:

ها قد اقتربت كثيرا من تحقيق حلمك يا بينچي بعد أن تعسر تحققه في عالمك الحقير.

أسرع ماسا بالدخول إلى غرفته وقلبه يدق دقا عنيفا، ما سمعه يفصح عن أشياء أدرك خطورتها منذ رأى بينچي أول مرة، لكنه كذب قلبه الذي لم يتعود منه الكذب مطلقا، أفضل ما يفعله هو أن يواجهه مباشرة بما سمعه، ولكن رجلا ماكرا مثله سينكر ما سمعه، أو يفسره تفسيرا مختلفا عما يبدو عليه في وضوح، وهذا لن يمنحه الأفضلية في معركته، أو يكسبه انطباعا عادلا إذا أجبره على العودة إلى عالمه دون سبب واضح جلي، لابد أن يمسك في يده دليلا قويا وبرهانا ساطعا إذا أراد أن يثبت لنفسه قبل الآخرين أنه على حق. انتظر ماسا حتى المساء ثم اصطحب بينچي لمطعم قريب ليتناولا فيه العشاء، تناول ماسا طعاما نباتيا في حين تناول بينچي طعامه المعتاد، قال له ماسا ناصحا :

ستقتحم جسدك الأمراض بضراوة، إذا استمريت في تناول هذا الطعام المليء بالدهون والكربوهيدرات والسكريات.

قال بينچي باسما :

ساعة من الرياضة يوميا قادرة على محو كل أثر للدهون والسكريات من الجسم تماما.

مط ماسا شفتيه في عدم اقتناع، ثم أكمل طعامه صامتا كأن لا شيء يشغل باله، ثم سأله بغتة:

هل تخصصك هو نفس تخصص صديقك كارل أم أن هناك وجه اختلاف بينكما؟

كان السؤال مباغتا، ولكن بينچي أجاب على الفور :

نفس التخصص ولكن اهتماماتنا تختلف بعض الشيء.

سأله ماسا في تخابث:

وهل وجدت النبات الذي تبحث عنه، أم أنه قد انقرض في هذا العالم كما انقرض في عالمك السابق.

قال بينچي في حذر :

لا أدري فأنا لم أبحث عنه بعد.

حدجه ماسا بنظرة فاحصة، ثم قال بحزم :

سمعتك وأنت في غرفتك تحدث شخصا وتخبره أنك ستذهب له في الميعاد المتفق عليه.

أصاب بينچي غضبا مباغتا فهتف :

هل وصل الأمر لتتنصت علي يا ماسا؟ لقد تعديت حدودك بالفعل.

قال ماسا وهو يتأمل ردة فعله العنيفة قائلا في هدوء :

لم أتعدى حدودي مطلقا، كل ما هنالك أنني كنتُ عائدا إلى غرفتي، فسمعتك تكلم شخصا من خلال هاتفك ثم تصيح بعدها في فرح وابتهاج.

بدا على وجه بينچي أثر الصدمة، لكنه تجاوز هذه النقطة قائلا :

هذا رجل تعرفت عليه في أحد المطاعم عندما كنتُ أتناول الغداء.

وماذا يعمل هذا الرجل؟

رمقه بينچي بنظرة ضيق ثم قال :

يعمل طاهيا.

بدا على وجه ماسا عدم التصديق، فقال بينچي في نبرة قوية:

أنا لا أنكر أن لك الفضل في إحضاري إلى هذا العالم، لكن هذا لا يعني أن أشعر أنني محاصر طوال الوقت بكم من النظرات والأسئلة، كأنني جاسوس أعمل لدولة معادية، ينبغي أن يكون بيننا ثقة متبادلة.

صمت ماسا قليلا، ثم تمتم :

معك حق، يبدو أنني رجل شكاك للغاية، لكن كل ما أريده أن ينتهي الشهر ونرجع إلى عالمنا دون أن نصنع مشكلات مع كبير سحرة هذا العالم وحراسه.

تسائل بينچي في فضول بالغ :

وهل هؤلاء الحراس أفارقة أيضا أم من قارة أخرى؟

لم يجاوبه ماسا مباشرة، ظل على صمته دقيقة كاملة كأنه يفكر في إجابة مقنعة ثم قال في اقتضاب :

أفارقة مثلي.

ثم وضع على الطاولة ورقة نقدية وهب قائما، فسأله بينچي :

أين تذهب؟

ابتسم ماسا قائلا :

سأعود إلى غرفتي فقد حان وقت النوم.

ابتسم بينچي ابتسامة ذات مغزى وهو يتابعه يغادر المطعم في سرعة، ثم تمتم هامسا :

ها قد هربت عندما حاصرتك بسؤال واحد فرحتَ تبحثُ عن إجابة، ولما عجزتَ اضطررتَ للكذب، ثم لم تستطع مواجهة عيني وخشيتَ أن أسأل المزيد فغادرت المكان مسرعا.

اتسعت ابتسامة الإنتصار لتحتل كل مساحة وجهه، أكمل تناول طعامه في أريحية حتى أنهاه عن آخره، دون أن تغادر ابتسامته المنتصرة وجهه قط، لكنها تجمدت بغتة وحل محلها الذعر والفزع، عندما اقتحمه هاجس مخيف هوى على رأسه بمطرقة من الصلب بقسوة هائلة، فماسا لايبدو له بالرجل الذي يهرب من مواجهة غريمه ثم يغادر المكان مع أول سؤال، لابد أن في الأمر خدعة ما، عصر مخه محاولا البحث عن حقيقة ما يجري وراء ظهره، ثم هب من مقعده كأنما لدغه عقرب وهتف :

يا إلهي، الغرفة.

انطلق يعدو مغادرا المكان كالمجنون، ثم قفز داخل سيارة أجرة وطلب من سائقها الذهاب إلى الفندق الذي ينزل فيه بأقصى سرعة ممكنة، وفي أقل من ربع ساعة كان يقتحم الفندق وسط دهشة أفراد الأمن، ثم عرج مباشرة نحو غرفته دون أن يأبه للمرأة التي اصطدم بها في عنف، لتسقط حقيبتها أرضا وتتبعثر محتوياتها على درجات السلم، كان يعلم أنه قد استغرق وقتا يكفي ماسا لتفتيش غرفته والبحث فيها بدقة إذا استطاع الحصول على المفتاح، أخذ يتضرع إلى الله وهو يقفز درجات السلم قفزا أن تكون خيالاته مجرد أوهام، وصل إلى غرفته فاستخدم مفتاحه للدخول وقلبه يخفق في عنف، ورئتيه تعلوان وتهبطان في سرعة. أشعل الإضاءة ثم راحت عيناه تجوبان الغرفة وتجوسان المكان في دقة، ذهب إلي صندوق الملابس وتأمل محتوياته، ثم هرع بعدها نحو الكومود وفتح الدرج العلوي به، قبل أن يتناول منه هويته التى استقرت داخله وراح يقلبها في يده بلهفة، حينها فقط تنهد تنهيدة ارتياح عميقة ثم جلس على طرف فراشه يبتسم في سعادة، لقد كان سيفضح أمره لو نجح ماسا في الدخول واطلع على هويته التي تشير بوضوح إلى حقيقة عمله، ولو أدرك أنه يكذب لكانت فرصته الوحيدة في البقاء في هذا العالم ستنتهي من قبل أن تبدأ، يبدو أنه بالغ في تقدير ماسا وتضخيم خطورته، وعندما تأكد من ذهاب الخطر بعيدا عنه ترك جسده يسقط على الفراش، ثم أغمض عينيه وراح في نوم عميق.

****

ما إن رن المنبه حتى امتدت يد بينچي توقفه قبل أن يصل صوته المزعج إلى غرفة ماسا المجاورة لغرفته، هب من رقدته ثم اغتسل وارتدى ملابسه حريصا ألا يصدر عنه صوتا يبلغ مسامع ماسا، بالرغم من أنه وضع له حبوبا منومة في قهوة المساء ليظل نائما حتى يعود من مقابلة مدير الجامعة. كان بينچي قد اضطر لوضع حبوبا منومة ليستطيع الهروب من الحصار المفروض عليه من قبل ماسا، الذي يراقبه طوال الوقت بعيني صقر جائع، وكان هذا يشعره بالغضب جراء المراقبة اللصيقة التي يجريها عليه، كاد يصرخ مرة في وجه غاضبا ساخطا، لكنه رأى أن التحايل خير من المواجهة المباشرة التي لن تكون في صالحه أبدا. فهو لم ينس أنه وعدهم باتباع التعليمات وعدم الخروج عنها، وفي حالة ما إذا حاد عنها فلهم كل الحق في اتخاذ ما يرونه صحيحا لعقابه. لم يكن ذلك الرجل الذي يوافق أن يعاقبه أحد، لكنها كانت ضريبة مجيئه إلى العالم الموازي. ودون أن يضيع لحظة واحدة كعادته، ارتدى ملابسه وأخذ هويته وغادر الفندق كله قاصدا جامعة هارفارد، بخطوات واسعة قطع الممر المؤدي إلى الداخل بعد أن أطلع رجل الأمن

على هويته، ثم اتجه إلى حجرة مدير الجامعة وطرق بابها وانتظر حتى سمع صوته يأذن له بالدخول، هب المدير من مقعده وصافحه بحرارة هاتفا :

كيف حالك أيها العالم العبقري؟

تطلع بينچي إلى ابتسامته الواسعة، نفس ابتسامته في العالم الأول والتي لم يهتم بمبادلتها يوما، ثم قال :

بخير حال مستر چيسي، هل اطلعت على الأبحاث التي قدمتها لك؟

دعاه للجلوس ثم قال :

بالتأكيد وهي مذهلة بحق، أنت عالم بارع.

سأله في لهفة :

وهل ستوافقون على دعمي لتنفيذ مشروع استنساخ البشر؟

أفرد چيسي راحتيه أمامه وقال في بساطة :

بالطبع، مشروع كهذا لابد أن يستفيد منه العالم بكل تأكيد .

لم يصدق بينچي أذنيه وهو يستمع إلى كلام المدير الذي قال بحماس :

يسعدنا أن تنضم إلى فريق علمائنا كعالم لك وضعك ومكانتك.

سأله في لهفة :

وهل سأستكمل العمل على أبحاثي من جديد؟

بالطبع ، بل وسيكون تحت يدك خمسة مساعدين لتنفيذ مشروعك في أسرع وقت .

ابتسم بينچي في امتنان ثم سأله متلهفا :

هل أستطيع أن أبدا من الغد؟

قال چيسي :

من الآن لو أحببت، المهم أن تنهي أي مشروعات علمية بينك وبين جامعة أكسفورد .

قال بينچي في سرعة :

لقد استقلتُ من الجامعة منذ عام على الأقل .

ابتسم المدير وقال :

حسنا، في هذه الحالة أنت مرحب بك معنا في أي وقت.

قام بينچي يصافحه في حماس قائلا :

سأكون معكم من الغد، وسيصبح تعاوننا بداية لعهد جديد وعالم جديد.

أطلق المدير ضحكة مرحة وهو يومأ برأسه موافقا، غادر بينچي المكان وهو يتسائل في حيرة: كيف لم يأبه بچيسي ودماثة خلقه واستظرافه في عالمه من قبل؟ كان يود الذهاب إلى المطعم الذي يعمل فيه نظيره لكنه خشي أن يستيقظ ماسا فلا يجده في غرفته، لذا عاد من فوره إلى الفندق، ثم صعد إلى غرفته وتنفس الصعداء عندما تأكد أن ماسا مايزال نائما، استرخى على فراشه وانتظر حتى هبطت طرقات قوية على باب غرفته، فتح الباب فطالعه ماسا مرتديا روبا منزليا ويتأمله في تركيز، ثم سأله :

أراك ترتدي ملابسك كاملة، هل ذهبت إلى مكان ما؟

قال بينچي في هدوء :

ليس بعد، أنا انتظرك منذ ساعة على الأقل بعد أن طرقتُ بابك عدة مرات دون أن ترد، يبدو أنك نمت متأخرا.

حرك ماسا رأسه نفيا في حزم، ثم قال :

أنا لا أستيقظ متأخرا أبدا حتى لو نمت ساعة واحدة .

سأله بينچي في ترقب :

وما الذي حدث معك إذن هذه المرة؟

رمقه ماسا بنظرة تطفح شكا، ثم قال :

يبدو أنني تناولتُ شيئا ما هو المسئول عن ذلك التأخير.

تظاهر بينچي بالحيرة وهو يسأله :

ما الذي تعنيه بقولك تناولت شيئا تسبب في إيقاظك متأخرا؟

قال ماسا في لا مبالاة :

لا تشغل بالك يارجل، سأجهز ثم ننزل لنتناول إفطارنا، ثم أشرب قهوة مكثفة لأستعيد نشاطي وتركيزي.

ذهب ماسا ليرتدي ملابسه، ونزل بينچي ليتناول إفطاره في الردهة الواسعة دون أن ينتظره، تطلع من مكانه إلى ماسا الذي يهبط السلم في نشاط وخفة، ثم شد انتباهه عندما توقف أمام إحدى موظفات الإستقبال التي راحت ترمقه من مكانها وهي تتحدث مع ماسا، أدرك بينچي حينها أنها ربما تكون عينه في هذا المكان، راقب ماسا الذي منح الموظفة ابتسامة وهو يومأ برأسه نحوها شاكرا، ثم اتجه نحو طاولته ببنيانه القوى وبشرته السوداء البرونزية وخطواته الواسعة النشيط. جلس بجواره وبدأ يتناول إفطاره النباتي، ثم ارتشف قهوته في صمت يتخلله نظرات حادة إليه بين الحين والآخر، تيقن بينچي حينئذ من افتضاح أمره عن طريق تلك الموظفة الشقراء، وأنه يفصله عن المواجهة المرتقبة بينهما دقائق معدودة، أنهى ماسا قهوته ثم تطلع إلى بينچي في نظرة سافرة تحوي غضبا مكتوما، ثم قال بعينين حمراوين غاضبتين:

هل تظنني أحمقا أيها العالم الأمريكي؟

انعقد حاجبا بينچي الرفيعين بسبب لهجته التي تحوي تهديدا سافرا، ثم سأله في هدوء وحذر :

ماذا حدث ؟

استطرد ماسا كأنه لم يسمعه :

ربما تكون ذكيا أو حتى داهية في مجالك، لكن في مجالي أنت مجرد طفل يتلمس خطواته الأولى.

ازداد انعقاد حاجبا بينچي واحتقن وجهه لامتهانه، فصاح مدافعا عن كرامته :

لا تنسى أنني أحد أفضل العلماء في مجال...

بتر بينچي عبارته بغتة، فهتف ماسا غاضبا :

لماذا توقفت يا بينچي، دعني أخبرك أنا، أنت واحد من أهم علماء الهندسة الوراثية في العالم، أليس كذلك؟

بدا بينچي مشدوها وهو يسأله في صوت مبحوح :

كيف عرفتَ ذلك؟

حدجه ماسا بنظرة غاضبة ساخطة ثم قال :

عندما تركتك في المطعم البارحة سبقتك إلى غرفتك واطلعتُ على هويتك الحقيقية، وحينها علمت أن وراء زيارتك لهذا العالم أمرا خفيا، لكني لم أشأ إخبارك بانكشاف أمرك حتى أعرف ما هو هدفك الحقيقي.

غلفهم الصمت بستاره الكثيف، ثم تمتم بينچي سائلا:

وهل علمت بهدفي الحقيقي أم أنك ما تزال تجهله؟

أشار ماسا بإصبعه قائلا :

دقائق وسأخبرك أين ذهبتَ هذا الصباح، بينما كنتُ نائما من جراء أقراص المنوم التي وضعتها لي في قهوتي، فجعلني غائبا عن الوعي حتى الساعة الحادية عشر صباحا .

غلفهم الصمت هذه المرة بستار أشد كثافة وقلب بينچي يدق ساخطا محنقا يتلوي من الغضب، هتف في داخله بغيظ بالغ : لن أدعه يفسد خطتي بعد أن صرتُ على بعد خطوة من الهدف، سأفعل أي شيء حتى أحافظ على إنجازي دون أن يوقفه أحد .

قطع أفكاره رجل همس في أذن ماسا للحظات ثم غادر المكان في سرعة، نظر إليه بينچي في ترقب، فقال ماسا وهو ينظر إليه في استياء بالغ :

لماذا ذهبت إلى جامعة هارفارد يا بينچي؟

قال بينچي في بساطة :

كان لدي فضول شديد لأرى ما إذا كانت جامعة هارفارد في هذا العالم هي نفسها في عالمي، أم أنها تختلف عنها اختلافا كبيرا؟

لم يبد على وجه ماسا الإقتناع وهو يسأله :

ولماذا لم تخبرني بذلك؟

لوح بينچي بيده قائلا :

وهل كنت ستقتنع بكلامي هذا حين أخبرك؟

هز ماسا رأسه نفيا وقال في صراحة :

كلا، فأنا اعرف الكاذب حين أراه من أول مرة .

هتف بينچي بنبرة غاضبة :

ما الذي تعنيه بعبارتك هذه؟

التقط ماسا نفسا عميقا ليسيطر على مشاعره الملتهبة، ثم قال بنبرة من اتخذ قرارا لا عودة فيه :

أعني أنك تخفي هدفا غاية في الخطورة، ومهمتي منذ هذه اللحظة أن أمنعك من الوصول إليه، هيا استعد لنعود إلى عالمنا غدا سويا.

حدق بينچي في وجه (ماسا) بدهشة وعدم تصديق، لم يكن ليسمح لأحد أن يسحب يده بعدما كادت أن تصل لنجم الشعرى، كان هذا بالنسبة له هو المستحيل بعينه، لذا مال نحو ماسا حتى كاد وجهاهما يتلامسان، ثم قال بنبرة مضخمة بالصرامة :

لن أسمح لك أن تنتزع مني ما بذلت حياتي كلها في تحقيقه، الوصول لنجوم السماء أقرب لك من مبتغاك.

قال ماسا بهدوء يشبه ذلك الذي يسبق العاصفة:

لا شأن لي بما بذلته طوال حياتك، هناك عالمك أفعل فيه ما تشاء، فجره بقنبلة نووية لو أردت، لكن هذا العالم لا سلطان لك فيه، ينبغي أن تتركه غدا.

هتف بينچي دون أن يعبأ بالزبائن الذين بدأوا يصيبهم الذعر مما يحدث :

لا يزال لدي سبعة وعشرون يوما حتى موعد الرحيل من هذا العالم، أم أنك نسيت؟

هز (ماسا) رأسه نفيا ثم قال :

كلا لم أنس، ولكن يبدو أنك نسيتَ تلك التعليمات التي أقسمتَ على اتباعها، والتي أحد أهم بنودها عدم الكذب واختلاق قصة.

التقط العالم الأمريكي نفسا عميقا ملأ به صدره المضطرب، ثم قال :

لن أترك هذا العالم وأعود حتى تنتهي المهلة كلها، أما قبل ذلك فلن أعود أبدا .

قال ماسا بنبرة متوعدة تفوح منها رائحة الخطر :

لا ترغمني على استخدام العنف معك أيها العالم الأمريكي، فأنا لا أحب استخدام العنف إلا في أضيق الحدود.

ربت بينچي على كتفيه قائلا في نبرة ساخرة :

هل تظن يا ماسا أن هذا العالم ليست به قوانين تحكمه؟ دعني أوضح لك أنني وبالهوية التي معي والوظيفة الجديدة التي استلمتها، أصبحتُ في نظر الجميع عالِما أمريكيا ومواطنا شريفا لا يجوز لك المساس به أو تعنيفه.

لم ينبس ماسا ببنت شفة بينما راح يتطلع نحوه بعيني نمر جريح، فأردف بينچي في رنة زهو وانتصار :

وفي المقابل ماذا تكون أنت؟ أنت رجل أفريقي تهذي بكلام مجنون عن عالم موازٍ لهذا العالم، ومهمتك أن تعيد عالم أمريكي لا ينتمي لهذا العالم إلى عالمه مرة أخرى، قل لي يا عزيزي ماسا، من يمكنه أن يصدق مثل هذا الهراء؟

ظل ماسا على حالته من الهدوء وتماسك الأعصاب، ثم قال :

هل تظنني لا أعرف بأمر نظيرك الطاهي في مطعم نيفادا؟ والذي يظنك أخيه چيسي الذي ظهر فجأة من العدم، ماذا لو عرف العالم بأنكما متماثلان في كل شيء، في حمضكما النووى وچيناتكما الوراثية وكل شيء؟

مط بينچي شفتيه قائلا في لا مبالاة :

لاشك أن ذلك سيكون أمرا مذهلا لعلماء الهندسة الوراثية في العالم كله، وسيدفعهم هذا لمحاولة فك اللغز والسعي لحله وإقامة مؤتمرات علمية ولقاءات تلفزيونية إلخ، ثم ماذا، سيقولون في النهاية أنها مجرد استثناء للطبيعة ليس إلا، ولن يفكروا أبدا في وجود عالم مواز لعالمهم .

لاح الغضب على وجه (ماسا) فاربد وتغير، وبدا كأنه يقاوم غضبا عنيفا بكل إرادته، كادت مقاومته تنجح لولا أن وأدها بينچي حين قال :

أما أنت فستصبح سجينا هنا للأبد، بعد أن أتهمك بتهديدي ومحاولة اختطافي لطلب فدية، أو التمهيد لعملية إرهابية.

هتف ماسا محنقا :

أيها الحقير.

ثم انطلقت قبضته تمرق من بين ذرات الهواء في سرعة، قبل أن تنزل على فك العالم الأمريكي لتدفعه دفعا إلى الخلف كأنما أصابته نطحة ثور هائج، قبل أن يصطدم بالطاولة خلفه ويسقط أرضا في عنف باعثا هرجا ومرجا.

صرخت بعض النسوة في ذعر، بينما تراجع الرجال إلى الخلف دون أن يحاول أحدهم التدخل لمنع القتال غير المتكافئ، أما ماسا فلم ينتبه لذلك كله وهو يميل نحو بينچي الذي يمسك بفكه ويتأوه من فرط الألم، ثم قال في كراهية :

سأعود بك إلى عالمك غدا أيها الأمريكي شئتَ أم أبيت، ثق في هذا، فأنا لم أفشل في العودة بأحد الزائرين لهذا العالم من قبل قط .

تركه ماسا ساقطا على الأرض يأن ويتوجع، ثم انطلق نحو الفندق الذي يسكن فيه وهو يغمغم غاضبا، في حين قال بينچي من بين تأوهه :

ستندم على ضربي أيها الأفريقي، ثق أنك ستندم .

****

وقف بينچي أمام المرآة يتحسس فكه الذي تلقى لكمة قوية من ماسا مساء أمس، كان الألم مايزال رابضا في مكانه، وإن كان قد خفت حدته بعض الشيء، عدل ربطة عنقه وتأمل مظهره بحلته الجديدة، ثم مضى خارج غرفته قاصدا جامعة هارفارد، لكنه ما كاد يخرج حتى وجد ماسا واقفا في الردهة يسأله :

أين أنت ذاهب يا بينچي؟

عقدت المفاجأة لسانه وتحسس مكان اللكمة لا إراديا، ثم تجاوز مشاعره السلبية وفرد قامته قائلا في جرأة:

أنا ذاهب الآن إلى جامعة هارفارد، هل لديك مانع؟

انعقد حاجب ماسا قائلا :

لماذا تذهب إلى هناك مرة أخرى؟

قال بينچي في صراحة :

لأن لدي عمل هناك .

وما هو هذا العمل؟

لا شأن لك .

هتف ماسا غاضبا :

بل هو شأني وشأن كبير السحرة أيضا، فعندما سمحنا لك بالمجيء إلى هنا، كان الهدف من وراء ذلك هو المنفعة التي ستعود على عالمنا جراء زيارة هذا العالم زيارة علمية ليس إلا، لكن أن يكون هدفك مجرد مصلحة شخصية، فهذا ما لن أسكت عنه مطلقا.

التزم بينچي الصمت وعلامات العناد تبدو على وجهه في وضوح، فأردف ماسا دون أن يحاول إخفاء غضبه :

منذ عشر سنوات جاء أحد علماء الفيزياء النووية من سكان هذا العالم إلى عالمنا، تظاهر في البداية أنه جاء لحضور مؤتمر لمناقشة خطورة الأسلحة النووية، إلا أن نيته كانت الحصول على أسرار القنبلة الهيدروچينية لدولته بعد أن عجز عن الحصول عليها في عالمه، وعندما اكتشفنا أمره أعدناه إلى عالمه بعد أن سلمناه إلى حراس العالم الآخر، والذين بدورهم منعوه من العبور إلى عالمنا مرة أخرى، وعندها كتبنا معاهدة التزم فيها الطرفان على التعاون ضد أي محاولة لاختراق العالم الآخر، وكسر التعليمات المنظمة لذلك .

قال بينچي في سرعة :

أنا لا أحاول الوصول إلى أسرار القنبلة الهيدروچينية أو التمرد على النظام الذي وضعه كلاكما، كل ما هنالك أنني قدمت مشروعا بحثيا في مجال الهندسة الوراثية لإدارة الجامعة، وقد وافقوا على التعاون معي، بل ووفروا لي كل ما يلزم لاستكمال أبحاثي.

سأله ماسا في حذر :

وتلك الأبحاث التي قدمتها لهم ما موضوعها؟

تردد بينچي للحظات ثم حسم أمره :

الإستنساخ البشري.

تسائل ماسا في ذهول :

وهل نجحت في الوصول لاستنساخ بشري كامل؟

لوح لينچي بيده نفيا وقال متفاخرا :

كلا ليس بعد، لكني على وشك الوصول لنتيجة مرضية.

حدجه ماسا بنظرة غاضبة، ثم هتف :

الآن فهمت كل شيء، أنت توقفت عن تطوير أبحاثك عندما وضعت إدارة جامعة (هارفارد) تلك القوانين الحاكمة لأبحاث استنساخ البشر، ولما كنت أحد العلماء القائمين على تلك الأبحاث، سعيتَ إلى المجيء إلى هذا العالم لتجرب حظك فيه، أليس كذلك؟

صمت بينچي للحظات يفكر في جواب مناسب، ثم قال:

نعم، هذا صحيح.

بدا على وجه ماسا الصدمة، لكنه هتف غاضبا :

ومن سيسمح لك بتجرب تلك الأبحاث المحرمة في هذا العالم بعد أن تبرأ منها عالمك؟

احتقن وجه بينچي فهتف :

لم يتبرأ منها العالم أيها الوقح، ولكن إدارة الجامعة اضطرت للرضوخ للضغط الشعبي للعض الوقت .

قال ماسا بقسوة :

كما ستضطر أنتَ للرضوخ لتعليماتي والعودة معي إلى عالمنا اليوم ودون نقاش .

تطلع إليه بينچي في نظرة امتلأت بالتحدي، ثم قال :

لم أضطر للرضوخ إلى أحد أبدا في حياتي أيها السمج .

اقترب منه ماسا بقامته القوية في بطأ مخيف، حاول بينچي التماسك قائلا في نبرة حادة :

إذا كررت ما فعلته في الأمس ستكون العواقب وخيمة.

اقترب منه ماسا متجاهلا عبارته، ثم أمسك بتلابيبه ورفعه بيديه عاليا فاتسعت حدقتا بينچي عن آخرهما، حرك قدميه ليدرك أنهما مرتفعتان عن الأرض بالفعل، رمقه ماسا بنظرة جففت الدماء في عروقه، ثم قال :

يمكنني أن أكرر ما فعلته بالأمس كل يوم وكل ساعة حتى ترضخ لتعليمات كبير السحرة وتعود معي فورا .

لم يستطع بينچي الرد عليه وهو في هذا الوضع الضعيف، تلفت حوله مستنجدا بأي أحد، لكن الممر كان فارغا فازدرد ريقه في صعوبة دون أن ينبس ببنت شفة، ظل ماسا يرمقه بنظراته التي تتقد شررا دون أن يفلت ملابسه ويعيده إلى موضعه، ثم انطلقت بغتة صرخة أنثوية فالتفت ماسا نحوها في سرعة كأنه يستغيث، لكنها ولولت وهي تعدو نحول الأسفل مذعورة، زمجر ماسا غاضبا ثم أفلت بينچي من بين قبضتيه فهوى على الأرض جالسا على مقعدته، تأوه بينچي من عنف الصدمة، لكنه قال شامتا بالرغم من آلامه :

تلك المرأة ستبلغ عما رأته الآن، وعندما تعرف إدارة الفندق بما حدث هنا، بالإضافة لما بدر منك من عنف تجاهي بالأمس سيكون وضعك شائنا.

حدجه ماسا بنظرة نارية أخرى فبلع بينچي لسانه مخافة أن يفتك به، سمعا أصوات أقدام كثيرة تصعد السلم وتقترب منهم في سرعة، تمتم ماسا متوعدا:

لن نبتعد عن بعضنا كثيرا يا بينچي، ستجمعنا المواقف في أقرب وقت.

قال عبارته ثم دلف إلى غرفته وأغلق بابها خلفه تزامنا مع وصول الأمن للمكان، فأشار بينچي نحو غرفة ماسا هاتفا :

هذا الرجل أراد قتلي أكثر من مرة، لا تتركوه يرحل دون عقاب .

اندفع رجال أمن الفندق نحو غرفة ماسا وطرقوا بابه في عنف، فلم يجد ماسا بدا من الخروج إليهم ومواجهتهم في كبرياء، قال رئيس أمن الفندق في صرامة وهو يشير إلى المرأة الشقراء :

هذه المرأة رأتك وأنت تقبض على عنق هذا الرجل الأمريكي وترفعه بيديك في الهواء حتى كاد يموت مختنقا.

قال ماسا في غيظ :

لاشك إنها تكذب .

أسرع بينچي يقول :

بل أنت الذي تكذب يا ماسا، أنت كدت تقتلني بالفعل، وفي مساء أمس لكمتني في وجهي فطرحتني أرضا، والكثير شاهدوك تفعل هذا فلا داعي للإنكار.

جاوبهم صمت مطبق، فسأل رئيس الأمن (بينچي) :

هل تريد أن تتقدم بشكوى ضده في قسم الشرطة؟

تبادل بينچي نظرات شامتة متشفية مع ماسا الذي تحاشى النظر إليه، ثم قال له:

سأتنازل عن تقديم شكوى ضدك على أن تتعهد على أن تتركني و شأني، ما رأيك؟

هتف ماسا في احتداد :

لا تحاول ابتزازي يا رجل، فأنا مكلف بمهمة ولابد من تأديتها مهما عانيت في سبيلها .

مط بينچي شفتيه آسفا، ثم قال لرئيس الأمن :

سأتقدم بشكوى ضد هذا الرجل أتهمه فيها بمحاولة قتلي وضربي بعنف شديد .

فقال رئيس الأمن في حزم موجها كلامه لماسا الذي يقف في اعتزاز :

ستأتي معنا إلى قسم الشرطة ولا تحاول المقاومة أو الهرب .

قال ماسا بصرامة :

لم أهرب في حياتي مطلقا عندما كنت أصطاد الأسود، هل تراني أهرب من مجموعة من الضباع الخائفة؟

أغضبت تلك النبرة وذلك المعنى الضمني رئيس الأمن، فصرخ في رجاله :

هيا خذوه إلى قسم الشرطة على الفور .

سار الجميع يتقدمهم ماسا وبينچي حتى ركبوا سيارة چيب كبيرة انطلقت بهم إلى مركز الشرطة، تطلع بينچي إلى وجه ماسا الغاضب الساخط ثم قال :

لا تعتبر ما سأقوله لك يعبر عن شماتة أو تشفي ولكنه مجرد تسائل، ما الذي تملكونه لتتحكموا في الدخول والخروج إلى ذلك العالم من دون الناس؟

التفت إليه ماسا ثم قال في اعتزاز :

ذلك الحق ورثناه عن آبائنا منذ قديم الزمان، لا يجوز لنا اطلاع الغير عن كيفية الدخول إلى ذلك العالم، ولا يحق لأحد أخذ ذلك الحق منا.

ابتسم بينچي وقال في حيرة تمتزج بالسخرية :

لا أستطيع أن أفهم كيف لرجل واحد وعدة حراس أن يتحكموا في العبور إلى عالم كامل، يبدو الأمر كأفلام الكارتون السخيفة منه بالحقيقة .

قال ماسا بسخرية مريرة :

وهل تجد أنه من الطبيعي أن تتحكم دولة بالعالم عن طريق استخدام قنابلها النووية، كما فعلتها أمريكا في هيروشيما ونجازاكي؟

لوح بينچي وقال في عناد :

كانت هناك حرب، وكنا مهددين عن طريق الأسطول الياباني، وفي الحرب كما تعلم كل شيء مباح.

هز ماسا رأسه هازئا وقال :

نعم كل شيء مباح، حتى إلقاء قنبلتين نوويتين على مدينتين آهلتين بالمدنيين لم يشاركوا في الحرب، فإن ذلك يعد في نظرك عملا مباحا و مبررا!

بدا على وجه بينچي الإرتباك و الخجل، فتمتم :

في الواقع لو كنت مكان الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت ما وافقتُ على ذلك أبدا.

مط ماسا شفتيه ثم قال في ارتياح :

جيد، على الأقل الجانب الإنساني لم يمت فيك بعد .

لحظه بينچي بنظرة خاطفة، ثم اعتدل عندما وصلت السيارة إلى قسم الشرطة وتوقفت أمامه، التفت بينچي و قال :

هل ما زلتَ عند رأيك يا رجل؟

قال ماسا باسما في اعتاد :

بالتأكيد أيها الأمريكي .

هز بينچي كتفيه في لامبالاة ثم قال :

كما تشاء.

دلفوا إلى مركز شرطة نيويورك، ثم قدم بينچي شكوته وأيدته المرأة في شهادته، فتم إيداع ماسا زنزانة صغيرة، ولوح له بينچي بيده قائلا في سخرية :

حظ سعيد لك في الأيام القادمة يا عزيزي ماسا .

بادله ماسا نفس ابتسامته الآخرة، ثم قال :

هل كنت تعلم من قبل يا عزيزي بينچي أن هناك خمس عوالم أخرى غير عالمنا وهذا العالم؟

اربد وجه بينچي كمن لطمه على وجه لطمة قاسية، جذبه رئيس الأمن من يده وهو يقول :

هيا يا مستر بينچي و لا تلتفت لكلام هذا المأفون.

جذب بينچي يده وسأل ماسا مدهوشا :

هل تقول الحقيقة يا رجل أم تكذب علي؟

جلس ماسا على أرضية الزنزانة، ثم قال :

بلى، هناك سبع عوالم في الكون، وهذا العالم واحد من الخمسة الباقين بخلاف عالمنا بالطبع.

هتف بينچي :

أنت تكذب ياماسا، لا يمكن أن يكون ما تقوله حقيقة.

أطلق ماسا ضحكة هازئة ثم قال :

إذا لم أعد إلى عالمي فلن يكون بوسعك الرجوع إلى عالمك، بالتالي لن ترى أولادك مرة أخرى.

جذبه رئيس أمن الفندق قائلا :

لا تستمع لهذا الهراء، إنه رجل مجنون ولا شك.

تبعه بينچي مضطرا، ثم ركب السيارة وذهنه يفكر في ما سمعه بجدية بالغة.

****

ذهب بينچي على الفور إلى جامعة هارفارد ليستلم عمله الجديد، كان قد تأخر نحو نصف ساعة بسبب عراكه مع ماسا، الذي مايزال كلامه يتردد صداه في عقله، توجه نحو غرفة المدير الذي ما إن رآه حتى قال مازحا :

يبدو أنك عالم كسول كما توقعت يا بينچي.

قال بينچي معتذرا :

أرجوا المعذرة فقد حدث ما أخرني عن القدوم مبكرا.

منحه چيسي ابتسامة صافية ثم اصطحبه إلى معمله الجديد، وهناك أشار إلى اثنين من الرجال يرتدون معاطف بيضاء قائلا :

هذان هما (بيتر) و(روني)، مساعداك في معملك منذ هذه اللحظة.

شعر بينچي بالرضا يسري داخل عروقه كمياه باردة منعشة، الآن فقط بات قريبا من تحقيق حلمه، صافح مساعداه الجديدان ثم شرع يعد معمله للعمل على أبحاثه التي توقفت قرابة الشهر، وأثناء انهماكه في عمله اقتحمه إحساس بالقلق من أن يعود ماسا إلى عالمه دونه، ويتركه يقضي بقية حياته دون أن يرى أولاده مرة أخرى، إنه لا يمكنه تحمل هذا لأكثر من عام واحد، لابد أن يجد حلا لمشكلته عندما يعود إلى غرفته في الفندق، ولكنه الآن سيركز في عمله الذي يحتاج لكل تركيزه وعلمه وجهده وخبرته .

وبيننا كان بينچي ينهمك في أبحاثه كان ماسا يجلس على أرضية زنزانته صامتا ساكنا كتمثال من البرونز، لكن في داخله كان الوضع مختلف عما عليه ظاهره تماما، إنه على يقين من أنه قادر على حل مشكلته بنفسه، لكن ما يؤرقه، بل يغضبه بشدة، أن بينچي استطاع خداعه، وهو سقط كالغر الساذج، هو لم يتعرض للخداع من قبل قط، أو ربما يكون الحظ قد ساعده فقط في تجنب الأشرار ولم يقف بجانبه تلك المرة، رفض أن يكون الحظ هو المسئول عن سلامته، فهذا يشعره أنه طفل صغير يحتاج إلى من يرعاه ويسانده، ولكن ما كان يؤلمه بأكثر مما فعل بينچي، هو كارل الذي كذب عليه بالرغم من أنه منحه ثقته، لم يتخيل قط أن يفعل تلك الفعلة القذرة، لو كانت ضربة واحدة لتحملها لكنهما ضربتين موجعتين بشدة، لكن ماذا لو لم يكن يعرف؟ ماذا لو تم خداعه كما خدع هو؟ تمنى أن يكون هذه هي الحقيقة لتستريح نفسه، إنه لم يضع ثقته في أحد دون أن يستحقها، تنفس بعمق و عاد بظهره يستند على الحائط الرمادي الذي تساقطت عنه قشرة الدهان في مواضع كثيرة، ثم راح يفكر كيف سيتخلص من سجنه، ثم يعود إلى بينچي ليأخذه ويعود به إلى عالمه؟ كاد أن يذهب إلى كبير سحرة هذا العالم ويطلب مساعدته، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة حيثُ خشي أن يظنوا فيه الضعف والخور، لكنه في تلك اللحظة صار يحتاج للمساعدة أكثر من أي وقت مضى، قبل أن تنفرط الأمور من بين يديه ويصبح من الصعب تدارك الأمور، لايهمه أن

تهيض كرامته، المهم عنده أن يعود بالعالم الأمريكي إلى عالمه وينجح في مهمته، قبل أن يتسبب بالخراب لهذا العالم ويتحمل هو المسئولية الكاملة لما سيحدث .

عند الساعة الخامسة مساءا أنهى بينچي يوم عمله الأول، ثم مضى نحو المطعم الذي يعمل فيه نظيره، كان يود رؤيته لسببٍ لا يدري كنهه، علمته تجاربه أن أي شيء قد يكون مفيدا له، وقد يكون ضارا أيضا، لا شيء يتخذ شكل الحياد من تلقاء نفسه إلا أن تحايده، وهو تعود أن يستفيد من كل شيء يقابله، وبشكل ما أحس أن وجود نظيره في مكان قريب منه سيشكل مصيره في هذا العالم في وقت لاحق، وهو لابد أن يستفيد من تلك الفرصة إذا ما أحتاج إليها، دلف إلى المطعم و طلب طبقه المفضل، بعد أن انتهى من طعامه مضى ناحية المطبخ، استوقفه أحد أفراد الأمن لكنه حملق فيه ذاهلا وهو يردد :

بينچي، هل أطلقتَ لحيتك؟

قال العالم الأمريكي باسما :

أنا لست بينچي الطاهي، أنا توأمه چيسي، هيا دعني أقابل أخي الحبيب فقد مر يومين كاملين دون أن أراه.

تركه الرجل يدلف إلى المطبخ ثم تابعه وهو يصافح أخاه ويحتضنه في حماس، ثم جلسا يتحدثان مع بعضهما لبعض الوقت، قال بينچي لنظيره :

أعلم أن دخولي إلى المطبخ في وقت العمل الرسمي مرفوض تماما، لكني أردت مصافحتك قبل أن أعود إلى منزلي .

أسرع مثيله يقول :

لا داعي للإعتذار، أنا على على وشك الإنتهاء من ورديتي، رجاءا انتظرني قليلا حتى أغير ملابسي، ثم أصطحبك إلى منزلي لتتعرف على زوجتي وأولادي.

قال بينچي :

حسنا، سأنتظرك في الخارج حتى تنتهي من عملك.

لم تمض عشر دقائق حتى أنهى نظيره عمله وارتدى ملابسه، ثم اصطحب بينچي إلى منزله بسيارته العتيقة، كان بينچي يختلس النظر إلى نظيره وسؤال يلح عليه دون ملل، هل سيجد أولاده شبه أولاده وزوجته شبه زوجته أم أن الأمر سيكون

مختلفا؟ لم يكن يستطع التأكيد من عدمه، لذا ترك الأمر للقدر مع ما يخشاه من مفاجئاته القاسية. وصلا إلى المنزل فركن نظيره سيارته في المرآب، ثم اصطحب بينچي للداخل وهو ينادي على أولاده، تلك اللحظات التي انتظر فيها بينچي مجيء أولاد نظيره كانت الأكثر ترقبا وخوفا وقلقا في حياته كلها، لم يكن يعرف سر خوفه وتوتره بالتحديد، هل يخشى من أن يكونوا طبق الأصل من أولاده، أم يخشى من أن يكونوا مختلفين؟ إنه لا يدري حقيقة شعوره في تلك اللحظة، كل ما فعله هو الترقب والإنتظار، سمع صوت خطوات الصبية تدب على الأرض فازداد ترقبه، يبدوان اثنين، هل هما صبيين أم فتاتين أم صبي وفتاة؟ لحظات و سيعرف، لكنه فقد قدرته على التحكم في أعصابه، تحركت إحدى يديه في عصبيه، ثم ظهرا طفليه وهما يعدوان في سعادة نحو أبيهم، وارتج جسد بينچي في عنف، اختلج صدره وتصلبت أعضاءه وبدا كأنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة، تطلع إلى نظيره وهو يربت على ظهري أولاده ويحتضنهم هاتفا في سعادة :

مايكل، توم، كيف حالكما؟

تصايحا في سعادة :

نحن بخير حال، كيف حالك أنت يا أبي .

حانت التفاتة من الصبييان نحو بينچي ثم ارتفعت حواجبهما حتى خصلات شعرهما المنسدل على جبهتهما في دهشة، ثم راحا ينظران لأبيهما في ذهول، فضحك أبوهما هاتفا :

هذا أخي چيسي الذي كنت قد حكيتُ لكما عنه.

صافحه الصبيان في سعادة ومشاعر الدهشة لم تفارقهما بعد. تأمل بينچي المنزل الذي يختلف عن منزله في الشكل والحجم والديكور، ثم اخترق سمعه صوت مألوف قادم من بعيد :

هل جئتَ يا بينچي؟ لحظات وسآتي على الفور .

وتوقف قلب بينچي عن النبض، فهذا الصوت هو صوت زوجته كارول، خالجه شعور أنه لم يبرح عالمه قط، وأن ذلك الواقف هناك ويشبهه هو نفسه لكن دون لحية، كأنه ينظر إلى نفسة وأسرته في مكان مختلف، اقترب صوت أقدام أنثوية من مكانهما، وكما حدث من قبل، تحولت مشاعره واتجهت حواسه نحو المكان الذي يأتي منه دبيب الأقدام الأنثوية، توقف به الزمن وهو ينتظر ظهورها، ثم دلفت كارول داخل الردهة وهمت بالكلام لكنها توقفت عندما وقع بصرها على وجه

بينچي، ربط الذهول لسانها فلم تقدر على النطق، راحت تنقل بصرها بين زوجها وبين شبيهه الملتحي في ذهول وتسائل، فهتف زوجها ضاحكا :

هذا أخي وتوأمي چيسي، تعرفنا على بعضنا صدفة عندما جاء إلى المطعم ليتناول غداؤه .

ابتسم بينچي مداريا اندهاشه وحيرته، مد يده إليها يصافحها، لكنه لم يشعر عندما لامس يدها أنها نفس يد زوجته، تبدو هذه المرأة طبق الأصل من زوجته بوجهها وجسدها وردود أفعالها، لكن ليس روحها، هناك شيء مختلف في هذا العالم لا يدري كنهه، تراه كالأصل تماما لكن لا تشعر نحوه بألفه، الجسد نفس جسد، لكن الروح مختلفة، فهذان الصبيان بالرغم من أنهما صورتين متماثلتين متطابقتين من ولديه، إلا أنه لشيء ما لا يشعر نحوهم بما يشعر به الأب نحو أبنائه، شيء ما يبدو مختلفا فيهما لا يجعله يشعر نحوهما بمشاعر الأبوة. هذه هي حقيقة العالم إذن، يبدو صورة طبق الأصل من عالمه، لكن الروح التي تسري داخله، وتحركه، وتمنحه طاقته، ليست هي الروح نفسها، بل روح مغايرة تسكب عليه من ذراتها فتفرز كيانا مختلفا في جوهره، لهذا لا يشعر نحو تلك الأسرة بالمشاعر نفسها التي يحسها نحو أسرته عادة، بالرغم من كم التشابه في الشكل والصوت والحركات والسكنات، ولهذا أيضا لا يحس نحو جامعة هارفارد في هذا العالم، بالمودة نفسها التي كان يشعر بها نحو جامعته في عالمه الأصلي.

دعتهما كارول للجلوس بعد أن تنحنحت عدة مرات، ثم استأذنتهما للذهاب لإحضار مشروب لهما، تابعها بينچي بعينه وهي تمشي، وكم أحس بالذهول عندما طالعته نفس المشية، كأنها تقلد زوجته تقليدا مدهشا، داخله شعور في تلك اللحظة أنه يحلم وسيستيقظ قريبا من حلمه ليجد أنه ليس هناك بينچي الطاهي، وأنه هو فقط من له وجود حقيقي، أخرجه نظيره من بين أمواج أفكاره المتدافعة في عنف حين سأله :

ماذا بك يا چيسي، هل تراك متعب من جراء عملك المرهق منذ الصباح؟

كاد يصرخ في وجهه أن يتوقف عن مناداته بذلك الإسم الغبي، إلا أنه تماسك في اللحظة الأخيرة، ينبغي أن يحافظ على سره ولا يخبره بحقيقته، فلربما يحتاجه يوما، رد باسما :

لا شيء يا بينچي، إنه بالفعل نتيجة يوم مرهق جراء العمل المتواصل؟

دخلت كارول تحمل كوبين من القهوة، أعطت أحدهما لزوجها ومدت يدها بالآخر لبينچي الذي قال متأففا :

ألا تعلمين أنني لا أحب شرب القهوة؟

حدجته بنظرة حائرة ثم قالت :

وكيف لي أن أعرف ماتحبه وماتبغضه؟

أصابه الإرتباك فأسرع يصحح خطأه الذي سقط فيه سهوا قائلا :

اعذريني فأنا لا أحب القهوة منذ صغري، وظننتُ أن زوجك أخبركِ .

قال نظيره باسما :

لم أكن أعرف تلك المعلومة أيضا يا أخي، لكن الغريب أنني أيضا ظللتُ طيلة حياتي لا أحبها، حتى بدأت شربها منذ عام بسبب اضطراري للسهر في بعض الأحيان.

تذكر بينچي في تلك اللحظة حينما أخبره صديقه كارل، أن هذا العالم يسبق عالمه بعام تقريبا، وراح يتسائل: هل هذا يعني أن الأحداث هنا تسبق عالمه بعام واحد أم أن الأمر يحكمه العبث؟

****

راحت كارول تسأله الكثير من الأسئلة التي ألحت على ذهنها بشدة، سألته عن عمله، وسر غيابه كل تلك المدة؟ وأين يعيش حاليا، وهل لديه أسرة؟ وراح بينچي يجيبها عن كل أسألتها محاولا صبغ إجابته بالواقعية والمنطقية حتى لا تلحظ شيئا غريبا، ثم التفتت إلى زوجها وسألته :

لكن أليس من الغريب ألا يعرف أحدكم شيئا عن الآخر طوال تلك السنوات الطويلة؟

قال زوجها في حيرة :

لم يحدثني والداي أن لدي أخ في أي مكان، وإلا كنتُ بحثت عنه حتى أجده .

التفتت تسأل بينچي :

ولا أنت يا چيسي؟

مط بينچي شفتيه وهز رأسه نفيا، تذكرت كارول شيئا فسألته في فضول :

أيكما أكبر سنا؟

تلعثم بينچي قائلا :

لستُ أدري في الحقيقة، لكن يبدو أن بينچي أكبر مني سنا.

قال الطاهي :

أنا ولدت في عام ألف وتسعمائة وتسعة وعشرون، بالتحديد في يوم الثالث والعشرون من شهر مارس.

كان هذا هو نفس تاريخ ولادة بينچي والتر، فشعر بالدهشة البالغة لتطابق تاريخ مولدهما تطابقا تاما، لكنه لم يشأ إخبارهما بذلك حتى لا يصابا بالدهشة، فتظاهر بأنه أصغر سنا بعام كامل، لم تمل كارول من كثرة الأسألة حتى أنها ذكرته بزوجته الثرثارة، وجد من الحكمة أن يغادر قبل أن تتطور الأمور إلى ما يحمد عقباه، استأذن بالإنصراف متعللا بالتعب، وقبل أن يغادر المكان قبّل الغلامين كما يفعل مع ولديه، لا يدري لما فعل ذلك، هل لأنهما يذكرانه بوالديه، أم لاشتياقه الشديد لهما؟ وعندما كان عائدا إلى منزله راح ذهنه يعد خطة للإستفادة من نظيره ومن أسرته .

وفي اليوم التالي بعد أن أنهى بينچي عمله الشاق في معمل الجامعة، مضى نحو الحجز الموضوع فيه ماسا منذ ليلتين، استأذن المأمور الذي أذن له على مصض، وحين وقف أمامه رأى ماسا يتطلع إليه في هدوء وعلى شفتيه شبح ابتسامة هادئة، قال بينچي شامتا :

يبدو أن جلوسك في غرفة الحجز الضيقة قد أتت ثمارها جيدا، فأنت تبدو بصحة أفضل وأسعد حالا عن ذي قبل، هل أطعموك طعاما يحتوي على لحوم الخنزير والدهون، أم أنك أصررتَ على أكل طعام المرضى خاصتك؟

قال ماسا باسما :

لا تقلق لحالي يا عزيزي بينچي بل اقلق لحالك أنت.

قال بينچي متحديا :

وما الذي أقلق بشأنه وأنا عالم مرموق في هذا العالم، ولدي معملي الخاص واثنين من المساعدين، بل وأحصل على تقدير يفوق التقدير الذي كنت أحوزه في عالمي بكثير.

سأله ماسا:

أيعني هذا أنك لا تود الرجوع لعالمك ورؤية زوجتك وأولادك؟

قال بينچي في سرعة دون تفكير :

بالطبع أود رؤيتهم، لكن لم يحن الوقت بعد.

هتف ماسا في صرامة :

ولن يحن أبدا، لقد أقسمتُ ألا تعود يا بينچي أبدا وعاهدت نفسي على ذلك .

قال بينچي بنبرة مهددة :

أستطيع أن أجبرك على هذا.

استرخى ماسا في مكانه ثم قال هازئا :

حاول يا مستر بينچي، يمكنك أن تحاول، لكنك لن تستطيع أن تجبرني أبدا على فعل شيء لا أود فعله.

بدأ بينچي يشعر بالقلق الحقيقي جراء عناد ماسا العتيد، نبرته الساخرة جعلته يخشى أن يكون تهديده حقيقي، دفعه ذلك الشعور بأن يهتف محتدا :

ما الذي تخفيه عني يا ماسا؟ لماذا تعاملني كأنني مجرد تابع لا يحق لي مناقشتك فضلا عن جدالك؟

قال ماسا بصرامة :

لا يوجد ما يدعوا للنقاش يا رجل، هناك تعليمات كان ينبغي عليك مراعاتها، لكنك خالفتها بكذبك وادعائاتك وخداعك المستمر .

وما الذي تنوي فعله بي إذا؟

قال ماسا بنبرة صارمة تمتزج بالقسوة :

ما تنص عليه قوانيننا المقدسة، من يخالف أحد تعليماتنا يجبر على العودة إلى عالمه، ثم يحرم العودة إلى العالم الآخر للأبد.

قال بينچي بسخرية :

تستطيع أن تنفذ تلك التعليمات إذا خرجت من هنا أولا، ولا تنسى أنك متهم بمحاولة قتلي مع سبق الإصرار والترصد، و الدليل على ذلك تعاملك العنيف معي في اليوم السابق .

سأله ماسا في استهتار :

وأين أداة الجريمة؟

أشار بينچي إلى جسده القوي، ثم قال :

يداك القويتان اللتان تكفيان لقتل رجل بالغ بضربة واحدة إذا ما أصابت مكانا مميتا .

اكفهر وجه ماسا وانعقد حاجباه دون أن ينطق بكلمة، فاستغل بينچي صمته اليائس واقترب من القضبان حتى لامست وجهه، ثم قال :

سنعقد اتفاقا جيدا يا رجل، أنا أتنازل عن اتهاماتي لك لمحاولة قتلي، في مقابل أن تعيدني إلى عالمي عندما أكون جاهزا لهذا .

حدجه ماسا بنظرة طويلة سابرا أغواره، ثم قال في اقتضاب حاسم :

كنتُ أتمنى ذلك يا صديقي لكن للأسف، ينبغي أن أعود بك على الفور بمجرد استعدادي لذلك؟

نطقت ابتسامة ساخرة على وجه العالم الأمريكي، ثم أعقبها بضحكة هازئة قائلا :

تعود بي بمجرد استعدادك! أنا أوافقك على هذا الرأي يا عزيزي ماسا، هل تعلم كم عاما ستناله لقاء جريمة الشروع في القتل؟ قد تصل المدة إلى المؤبد إذا كانت مع سبق الإصرار والترصد، ويمكنني أن أثبت ذلك بسهولة عندما يتم استدعاء الشهود الذين رأوك تلكمني في وجهي بعنف في اليوم السابق، قبل أن تتهجم على في اليوم التالي في ممر الفندق، أم أنك نسيت ما حدث يا ماسا؟

قال بينچي والتر عبارته ثم أخذ يتأمل بخبث تأثير كلامه على وجه ماسا الذي بدا ممتقعا مربدا، فأردف في ثقة :

ويمكنني أيضا إذا شئت أن أجعلها مجرد جريمة عنف دون استخدام أي سلاح، وأن أمحو عبارة (مع سبق الإصرار والترصد) من القضية، وحينها ستنخفض العقوبة كثيرا، ما رأيك؟

أشاح ماسا برأسه وقال :

اذهب إلى الجحيم .

قال بينچي ساخرا :

الجحيم الذي سأذهب إليه أهون كثيرا مما ستلقاه في السجون الأمريكية إذا أصررتَ على موقفك .

لاذ ماسا بالصمت للحظات، كان يحاول تجاوز مبادئه العتيقة واستخدام أساليب الخداع الملتوية التي لا يصلح غيرها للتعامل مع هذا الثعبان، سيضطر للكذب للنجاة من عقوبة المؤبد من جهة، ولعقاب بينچي على مخالفته التعليمات المقدسة من جهة أخرى، اتخذ ماسا قراره ثم رنا إليه بعينيه قائلا :

أوافق أيها الكاذب الماكر المخادع .

و عندها انفرجت أسارير بينچي بابتسامة ظافرة واثقة، شعر ماسا بالإستياء يضرب كبده لكنه كظم غيظه بإرادة قوية، همّ بينچي بالذهاب وهو يقول دون أن يلتفت له :

سأحضر غدا لأسجل أقوالي قبل أن تعرض على القاضي بعد الغد .

ثم مضى وعلى وجهه أكبر ابتسامة ظافرة جرت على وجه إنسان من قبل.

****

حكم القاضي على ماسا بالسجن عاما كاملا جراء العنف الذي أبداه نحو العالم الأمريكي(بنچي والتر) ، وكان من الممكن أن تصل العقوبة إلى المؤبد لو لم يغير بينچي أقواله في اللحظة الأخيرة، والتي جعلت من ماسا مجرد شخص عنيف وليس مجرما يسعى للقتل. تم نقل ماسا إلى سجن (سان كوينتن) في ولاية كاليفورنيا ليقضى فيه فترة سجنه، أما بينچي فكانت سعادته بالغة عندما سمع النطق بالحكم، لكنه أخفى حقيقة مشاعره وأبدى أسى وحزنا بالغين، كان ماسا يدرك أن هذا الحكم قد أتى على هوى بينچي الذي يتظاهر بالحزن والألم، لكنه تماسك مبديا لامبالاة واستخفافا، مضى إليه بينچي ثم قال :

لم أكن أتخيل أن تصل العقوبة إلى هذا الحد، كنت أظن العقوبة لا تتعدى شهرا واحدا أو شهرين، لا بأس، ستنقضي المدة سريعا، بل أسرع مما تتصور بكثير.

منحه ماسا ابتسامة هازئة ثم قال :

هل تظن أنك العبقري الوحيد هنا أيها الأمريكي، لو كنتَ تشعر بأسى حقيقي من أجلي لتنازلت عن اتهامك لي ولكنتُ الآن حرا .

هم بينچي بالدفاع عن نفسه بضراوة، لكن ماسا لم يمنحه الفرصة لذلك حين استطرد غاضبا حانقا :

لكن كان هذا سيهدد مصلحتك بالطبع، لذا سعيتَ لتخفيف العقوبة دون محوها، حتى يتسنى لك مواصلة العمل على أبحاثك طيلة العام الذي سأقضيه سجينا دون أن أتعرض لك، ثم أخرج من السجن وأعود بك إلى عالمك وبيتك وأسرتك وكأن شيئا لم يكن بعد أن تكون حققت ما تريد، يالك من حقير .

صمت بينچي مليا يفكر في إجابة مناسبة، ثم قرر أن يكشف الستار فابتسم قائلا :

لقد كنتَ شديد العناد معي يا ماسا منذ عرفت سري، ورحتَ تهددني بالعودة إلى عالمي بعد يومين فقط من قدومنا إلى هذا العالم، بعد أن كنتُ على وشكِ قطف ثمار مجهودي وتعبي، حينما وافقت جامعة هارفارد على دعمي بإمكانياتها ومعاملها وعلمائها لاستكمال أبحاثي التي توقفت في عالمي رغما عني، ثم بدأتَ تمثل لي خطرا حقيقيا بالنسبة للمشروع الذي سيتوقف لإصرارك في العودة بسرعة ودون الإنتظار حتى ينتهي الشهر، كنوع من العقاب لأني أخفيتُ عنك حقيقة وظيفتي ونيتي الحقيقية، حينها فكرت في حل يمكنني من الحصول على مدة تكفيني لأنتهي من عملي، وفي نفس الوقت تمنعك من العودة إلى عالمك قبل أن أكونُ جاهزا للعودة، كل ما عملته حينها أن فتحت لك المصيدة وأنت بنفسك دلفت إليها دون أن أدفعك إليها، أخبرني يا صديقي، ما الذي كان بيدي لأفعله لأتجنب عودة فاشلة؟

بدا على وجه ماسا أبشع آيات الغضب والمقت، مد يده بغتة من خلال القضبان وأمسك بتلابيبه، ثم همس بنبرة قاسية :

لو ظننتَ لوهلة أنك قد هربت بفعلتك إلى الأبد فأنت واهم وغبي، لو مكثتُ داخل السجن لعام كامل فأنا أعدك أنك لن تعود إلى عالمك، وسأتركك تحيا في هذا العالم للأبد.

حملق فيه بينچي مشدوها بعد سماع عبارته الأخيرة، ثم قال و هو يحاول تخليص ثيابه من بين أصابعه القوية :

ما الذي تعنيه بعبارتك؟

أفلت ماسا ثيابه بصعوبة وهو يقول بنبرة عدائية:

لا تظن أنني سأمكث في السجن عاما كاملا بسبب خديعتك، ثم حين أخرج أمنحك ابتسامة هادئة وأعد حقائب سفرك بنفسي، ثم أحملها عنك في لطف وأعيدك إلى عالمك سالما غانما، أنت واهم بالتأكيد.

حدجه بينچي بنظرة مبغضة ثم قال :

أنا لن أعود إلى عالمي حتى أنتهي من أبحاثي، أو أبقى في هذا العالم إلى الأبد .

قال بينچي عبارته الأخيرة في صرامة، ثم غادر قاعة المحكمة و هو يفكر في كل ما قاله ماسا الغاضب، إنه صادق فيما يقول لاشك في ذلك، وهو يعرفه جيدا، عنيد، صلب الرأس، لكنه ليس غبي، ولا يلقي تهديداته سدى. ابتلع ريقه في صعوبة ثم راح يتخيل نفسه ماكثا في هذا العالم إلى الأبد حتى يطعن في السن ويصيبه الخرف، محروما من رؤية أولاده الصغار حتى يكبروا وينسوه تماما، شعر بموجة هائلة من الغضب تجتاحه كإعصار مدمر، لكنه كسر تلك الموجة العاتية بحواجز عملاقة من صبره وثباته وشغفه باستكمال أبحاثه، لكن اليأس عاوده حين ذكر مدى عناد ماسا وتهوره، عصر مخه ليعثر على حلا ناجعا لكنه فشل، فنفض الفكرة من خاطره وعاد إلى منزله كي ينعم بنوما هادئا حتى الصباح.

مر شهر تبعه ثان ثم ثالث، وبينچي يواصل محاولاته المستمرة وسعيه الدئوب لاستنساخ بشري، كانت هناك عقبة تقف في طريق كل عالم يسعى لاستنساخ بشري كامل، وهي أن الجنين المستنسخ لا يكون طبق الأصل، لأن بويضة الأم المنزوعة النواة تظل مشتملة على بقايا نووية في الجزأ المحيط بالنواة المنزوعة، ولهذه البقايا أثر ملحوظ في تحوير الصفات التي ورثت في الخلية الجسدية، ولتجاوز تلك المشكلة الرئيسية في طريق الإستنساخ الشاق الطويل، استطاع أخيرا اكتشاف مادة قادرة على إزالة أي أثر متبقي للنواة في البويضة بعد إزالتها منه، وكان هذا بمثابة انتصار علمي كبير حكت عنه الصحافة العالمية، عندها فقط أدرك بينچي أنه بات قاب قوسين أو أدني من تحقيق حلمه القديم. راح بينچي يحضر المؤتمرات العلمية ويشرح إنجازه العلمي الفريد، وأهمية تلك المادة التي ستجعل من استنساخ بشري كامل أمرا ممكنا بعد أن داعب أذهان العلماء سنين

طويلة، وعندما اكتملت أبحاثه شرع لأول مرة في تاريخ العالم في استنساخ بشري كامل، لكنه احتار فيمن يأخذ منه نواته ليكون أول إنسان ينسخ منه مخلوق مماثل، مما يعني أنه سيكون آدم جديد لعالم من الكائنات المستنسخة، حينها رأى أنه يستحق بجدارة أن يكون ذاك الرجل، وكان بهذا يثبت جذوره في هذا العالم للأبد، ويضع ماسا أمام الأمر الواقع الذي لا مفر منه. ودون أن يضيع المزيد من الوقت، وضع العالم الأمريكي المادة الوراثية في بويضة منزوع منه نواته، لتتكون لقيحة تحوي الحقيبة الوراثية كاملة، ثم غرسها في رحم امرأة وافقت على الحمل بصعوبة بعد أن منحها عشرة آلاف دولار كاملة.

ونجحت عملية الإستنساخ، وانتظر بينچي والتر ميلاد بينچي الجديد، وانتظر معه العالم كله ذلك الحدث المدهش العظيم، ولم يكن هناك حديث في الإعلام وبين الناس إلا هذا، وأسموا الناس ذلك الجنين الذي في طريقه للحياة، آدم الجديد. لكن كانت هناك مفاجأة قاسية تنتظره في عناد وغضب ونقمة، فبعد ستة أشهر فقط من دخول ماسا السجن تفاجأ به بينچي يقف أمام منزله يطلب الدخول، تسمر بينچي من فعل الصدمة، ثم تحرر من تأثيرها بصعوبة قائلا بصوت مبحوح :

كيف خرجت من السجن بعد ستة أشهر فقط ؟

تجاهل ماسا سؤاله وقال :

هل سنتحدث في الخارج دون أن تدعوني إلى رؤية منزلك الجديد يا رجل؟

دعاه بينچي للدخول وهو يرمقه في حذر، أسرعت امرأة شبه عارية في الفرار إلى الداخل عندما رأت بينچي يدخل مع رجلا أسودا، رمقها ماسا وهي تجري بعينين مندهشتين، ثم تمتم :

يبدو أن حياتك قد أخذت منعطفا عاطفيا يا بينچي .

تجاهل بينچي عبارته الساخرة وسأله وهو يشعل لفافة تبغ :

أخبرني، كيف خرجت من سجنك بتلك السرعة؟

قال ماسا في نبرة هادئة تخفي بركانا ثائرا :

عندما لم أعد معك إلى عالمنا بعد مرور شهر، أرسل كبير السحرة في أثري أحد حراسه، والذي علم بعد مجيئه إلى أمريكا بأمر سجني لعام كامل، حاول إقناع القاضي بالعفو عني لكنه رفض قبل قضاء نصف المدة على الأقل، شرط حسن السير والسلوك ودفع غرامة قدرها خمسة آلاف دولار، فعاد الحارس إلى عالمنا

ثم رجع مرة أخرى بعد خمسة أشهر ومعه المبلغ الذي طلبه القاضي، فحكم بإخلاء سبيلي شريطة أن أترك الولايات المتحدة الأمريكية خلال يومين .

تأمله بينچي في حذر ثم سأله :

وهل ستعود إلى عالمك مرة أخرى؟

قال ماسا :

دعني أنا أسألك، هل ستعود معي إلى عالمنا أم اضطر إلى إعادتك إليه بالقوة؟

احتقن وجه بينچي وهتف غاضبا :

هل جئتَ إلى منزلي لتهددني، أستطيع أن أعيدك إلى السجن مرة أخرى بعد أن أتهمك باقتحام بيتي وتهديدي باستعمال العنف، وسيصدقني الجميع دون شك، فأنا بتُ عالما مشهورا ولي مصداقيتي في العالم أجمع .

هب ماسا قائما ثم هتف :

أنت لا تستوعب الأمر جيدا يا مستر بينچي، أنا لست وحدي في هذا الأمر، هناك الكثير من الحراس في هذا العالم بخلاف عالمنا، وكلهم لديهم أوامر صارمة بإعادتك لهذا العالم حيا أو ميتا.

صاح بينچي :

سأبلغ الأمن عنكم إذن ولن تستطيعوا الإقتراب مني أبدا .

حدجه ماسا بنظرة حانقة، ثم اندفع يغادر المكان تاركا بينچي يشعر بالخطر يقترب منه في ثورة، أخذ يفكر في وسيلة يقضي بها على خطر ماسا دون أن يتركه يفلت من بين أصابعه، حتى يكون وسيلته في العودة إلى عالمه مرة أخرى عندما ينتهي من مهمته.

****

لم يكن بينچي قد ذهب إلى نظيره منذ أسبوع مضى، فقد انشغل بحضور المؤتمرات العلمية واللقاءات الصحفية نتيجة لاكتشافه المذهل، وحين كان عائدا من عمله ذلك اليوم وبالرغم من إرهاقه الشديد، قرر الذهاب إليه في مطعمه كي يراه و يتناول العشاء معه، لكنه ما إن دلف إلى المطعم حتى أخبره موظف

الحسابات أن بينچي الطاهي يريد رؤيته، ذهب إليه فطالعه نظيره بوجه مربد وهو يسأله في غضب :

أخبرني من أنت؟

قال بينچي مندهشا :

ما هذا السؤال! اسمي چيسي كما أخبرتك من قبل؟

أمسك نظيره بجريدة (نيويورك تايمز)، ثم أشار إلى خبر في الصفحة الأولى قائلا :

هل تظنني لا أقرأ الجرائد أو أرى التلفاز، الخبر يقول أن عالم الهندسة الوراثية (بينچي والتر) قد اكتشف مادة تستطيع مسح كل أثر للنواة في البويضة، وقد شرع بالفعل في استنساخ بشري من نواته الخاصة.

التزم بينچي الصمت فأردف نظيره :

هل تنتحل اسمي يا رجل؟

قال بينچي :

لا أنتحل اسمك، ربما يكون هذا خطأ مطبعي .

صرخ الطاهي غاضبا :

أنت كاذب، لقد جاء إلى هنا رجل يدعى ماسا وأخبرني أشياء لم أصدقها في البداية لشدة غرابتها.

قال بينچي في قلق :

لا تصدق ذلك الرجل، إنه نصاب .

اقترب منه نظيره وقال :

أخبرني ذلك الرجل ماسا أن هناك عالم مثل عالمنا، فيه بشر يشبهوننا، بل نسخة منا تماما، وأخبرني أنك أتيت من ذلك العالم إلى هنا لتطوير أبحاثك في الهندسة الوراثية، لإن إدارة جامعتك لم تدعمك بشكل كافي بعد سن قوانين تمنعك من استكمال أبحاثك عن الإستنساخ البشري، وأخبرني أيضا أنك تتقرب إلي لتستغلني بشكل ما تحسبا لما قد يحدث في المستقبل، لكني لم أصدق كلامه فوصفته بالمخبول ثم طردته شر طردة، لكن الآن وبعد أن ظهر أنك عالم في الهندسة

الوراثية كما أخبرني ماسا، وليس عالم نبات كما ادعيت أنت، وبعد أن استخدمت اسمك الحقيقي، أدركت حينها أن ماسا كان يريد نصحي وليس خداعي، ومنذ شهر كامل وأنا أنتظر قدومك .

تراجع بينچي في خوف واضح، ثم سأله في عصبية :

منذ متى أخبرك ماسا بأمري؟

أخبرني في البداية منذ ستة أشهر، ثم عاد وأخبرني بالأمس.

ارتفع حاجبا بينچي في دهشة، أدرك كم كان ماسا داهية خبيثا، حاوطه الطهاة من كل جانب، فهتف محتدا :

ما الذي تنوي فعله بأخيك يا بينچي؟

قال نظيره الطاهي وهو يمسك سكينا كبيرا، وعلى وجهه تلوح ابتسامة كبيرة تشبه ابتسامة بينچي حين يبتسم ساخرا :

أعيدك إلى عالمك بالطبع يا رجل، فلا ينبغي أن تكون هناك نسختان منا في هذا العالم .

هتف بينچي في ذعر:

وكيف ستعيدني؟

كبله اثنين من الطهاة بحركة سريعة ثم قال نظيره :

أبلغني ماسا عنوان الفندق الذي ينزل فيه، وكل ما علي فعله أن أحكم وثاقك، ثم أسلمه إياك موثقا حتى يعيدك إلى عالمك الذي فررتَ منه.

صاح بينچي في عصبية بالغة :

استمع إلي يا بينچي، ما تود فعله هو الخطأ بعينه، أنا سأعود إلى عالمي مرة أخرى طائعا منقادا دون عنف، ولكن بعد استكمال أبحاث الإستنساخ خاصتي.

لوح الطاهي بيده وقال :

ولقد نجحت في مشروعك بالفعل واكتشفت تلك المادة التي تنظف الرحم كما فهمت، بل ونجحت في استنساخ جنين أيضا، فماالذي يمنعك من العودة؟

لوح بينچي بيده بدوره هاتفا :

لن أستطيع الجزم بنجاح المشروع من عدمه حتى أرى بعيني ولادة الجنين واكتمال نضجه .

رفع نظيره سكينه أمام وجهه، ثم قال في صرامة :

لا يهمني نجاح الإستنساخ من فشله، المهم أن تعود إلى عالمك قبل أن تفسد عالمي وحياتي.

صاح بينچي هلعا :

كلا أقسم لك، أنا لا أنوي مطلقا إفساد حياتك وعالمك، حياتك كما هي دون تغيير، ووجودي لا يمثل أي تهديدا عليك، كل ما أفعله إنما هو لمصلحة عالمك وتطويره.

اقترب منه نظيره حتى كاد يلامس وجهه، ثم هتف في غلظة :

ارجع لعالمك وطور فيه كما يحلو لك، واترك لنا عالمنا كما هو بحلوه ومره .

وفي محاولة يائسة، انفلت بينچي من بين يدي الإثنين السمينين الذين يطوقانه من الخلف، ثم انقض على نظيره فأطاح بسكينه بعيدا قبل أن يلتحما في قتال عنيف، كاد زملائه يتدخلون لمعاونة زميلهم لكنه رفض مساعدتهم، هاتفا بصوت متقطع جراء القتال العنيف :

إنها معركتي الخاصة ويجب أن أكسبها دون معاونة من أحد .

كان جسديهما متقاربين إلا أن جسد الطاهي بدا أكثر بدانة، راحا يتقاتلان في شراسة دون أن يتغلب أحدهما على الآخر، انبعثت منهما الشتائم وصيحات الغيظ والغضب، جذب الطاهي لحية بينچي فصرخ في ألم، رد عليه بينچي بضربة على أنفه فأدماها، تجاوز الطاهي آلام أنفه ثم ركل بينچي بين ساقيه فسقط أرضا وهو يصرخ ويتلوى من الألم، ثم ضم ساقيه في قوة كي يخفف الألم الحاد الذي يسري في عضوه الذكري كالنار المؤججة. لم يرحمه نظيره فركله في كتفه وظهره مرتين متتاليتين، ثم أمسك يده اليسرى وجذبها خلف ظهره في قسوة، لكن بينچي تجاوز ألمه وحرر قبضته اليمنى من بين فخذيه المضمومين بقوة، ثم لكمه في وجهه مستودعا كل قوته، سقط الطاهي أرضا كجوال مملوء بالطماطم النيئة، فاعتلاه بينچي بالرغم من الآلام التي تسري بين فخذيه، ثم راح يلكمه اللكمة تلو الأخرى، قائلا بصوت خافت يقطر بالظفر :

أخطأت يا نظيري عندما منعتهم من مساعدتك في قتالي، مما منحتني فرصة نادرة للتغلب عليك ثم الإفلات والهرب، يبدو أن عملك في مجال الطهي قد قلل من حدة ذكائك كثيرا، بخلاف عملي في مجال الهندسة الوراثية.

حاول نظيره المقاومة أو طلب النجدة، إلا أن بينچي أدرك خطورة استغاثته فعاجله بلكمة قوية أفقدته وعيه وأنهت خطره، قام بينچي من فوق جسده و هو يلهث في عنف، حدجه الطهاة بنظرات تتقد شررا، ثم صرخ أحدهم :

لا نريد أن نرى وجهك بعد اليوم .

ابتسم بينچي في سخرية ماسحا الدماء عن شفتيه، ثم قال في تهكم :

لا حاجة لي بالعودة إلى هنا مرة أخرى، فطعامكم مذاقه كروث البهائم .

ثم هرع إلى الخارج قبل أن يعود إلى مثيله وعيه ويصبح أمره في خبرٍ كان. استقل سيارته ومضي نحو منزله، وفي ذهنه نبتت فكرة عجيبة، لكنه رآها ضرورية إذا أراد أن يبقى في هذا العالم لفترة أطول .

****

لم يستطع بينچي والتر الذهاب إلى عمله بسبب ذهنه المشغول بخطة إزاحة ماسا عن طريقه، ولكن لأن ماسا عنيدا كالبغال، ولن يستمع إلى صوت العقل، فقد قرر إعادته إلى عالمه مع طريقة تجعله يعود إليه مرة أخرى، وإلا فسيكون مصيره أن يظل محبوس في هذا العالم الموازي حتى يموت. ظل طوال اليوم يفكر في الوسيلة المثلى حتى هداه عقله إلى خطة، كان يعلم أن ماسا سيعود إليه هو وبعض حراس ذلك العالم من أجل إعادته لعالمه بالقوة، ولأن الصدام مع ماسا أمر له خطورته، فقد قرر أن يتفادى ذلك الصدام بوسيلة لم تكن تعجبه قبل ذلك، لكن بعد أن حاول نظيره الإعتداء عليه وطرده من عالمه، تغيرت نظرته للأمور وباتت تلك الوسيلة أفضل حل للخروج من مأزقه، وعندما اطمأن إلى ذلك الحل قرر الإحتفال بشرب كأسين من زجاجة خمر معتق تركها للمناسبات السعيدة. جلس يرتشف من كأسه في بطأ، وعلى وجهه بدت ملامح لوجه ثعلب واثق داهية، لا يقف في طريق مشروعه العلمي أي شيء .

في الناحية الأخرى كان غضب ماسا على أشده عندما خرج من منزل بينچي خالي الوفاض، بعد أن رفض الأخير العودة معه إلى عالمه، وكان هذا يضعه في مأزق خطير كحارس لم يستطع القيام بمهامه كما ينبغي، ولأنه يرفض الفشل، ويرى أن الموت أحب إليه من العودة بدونه، لم يجد بدا من طلب المساعدة من حراس ذلك

العالم، ودون أن يضيع دقيقة إضافية، ركب الطائرة المتجهة إلى باريس حيث يعيش فيها (والوسيمبي) أحد حراس ذلك العالم، وبعد عدة ساعات حطت الطائرة في باريس، ثم استقل ماسا سيارة استأجرها متوجها إلى منزل (والوسيمبي) مباشرة، طرق الباب عدة مرات قبل أن يطالعه والوسيمبي الذي ابتسم هاتفا في ترحاب :

مرحى يا عزيزي ماسا كيف حالك؟

احتضنه ماسا في حرارة، ثم دلف معه إلى الداخل والآخر يقول :

زيارة غير متوقعة يا عزيزي ماسا.

جلس ماسا على أول أريكة صادفته، ثم قال في ضيق:

جئت مضطرا يا صديقي؟

انعقد ما بين حاجبيه وهو يسأله :

ماذا هناك يا رجل؟ يبدو عليك غضب أعرفه جيدا، هل سائت الأمور لهذا الحد؟

قال ماسا من بين أسنانه في غيظ :

سائت لأقصى درجة ممكن أن تتخيلها يا رجل .

بدا الإهتمام البالغ على وجه الوسيمبي فسأله :

أخبرني يا رجل بكل شيء، كلي آذان صاغية.

حكى له ماسا كل ما حدث بالتفصيل منذ قابل العالم الأمريكي، مرورا بقدومهم إلى ذلك العالم، ثم خداع بينچي له وتسببه في سجنه لستة أشهر كاملة، وحتى مقابلته الأخيرة ورفضه العودة معه، ظل الوسيمبي على وضعه الصامت للحظات، ثم قال في صرامة :

لا تقلق يا ماسا، سيعود ذلك الوغد معك شاء أم أبى.

أومأ ماسا برأسه قائلا :

أنا على يقين من ذلك يا صديقي العزيز.

سأله الوسيمبي :

هل هناك خطة أعددتها للحصول على ذلك الأمريكي

دون افتعال مشكلة مع الأجهزة الأمنية؟

قال ماسا :

ليست خطة بالمعنى الحرفي للكلمة، كل ما علينا فعله هو مباغتته بعدما يعود إلى منزله مرهقا من عمله، ثم نحاول إقناعه بالمجيء معنا، فإن وافق فسيسهل علينا مهمتنا كثيرا، وإن قاوم سنقوم بتكبيله، ثم نأخذه في سيارة حتى مطار خاص قريب، ثم تعود أنت إلى فرنسا، ونركب أنا والأمريكي طائرة خاصة قوية لتعود بنا إلى أوغندا مباشرة، وهناك سأفتح الجسر وأعود به إلى عالمنا.

هز الوسيمبي رأسه في رضا ثم قال :

تبدو خطة بسيطة وفعالة، ولكن ماذا لو باغتتنا الشرطة، أو أن هذا اللئيم قد أعد لنا مصيدة للإيقاع بنا؟

قال ماسا في ضيق :

لهذا قلتُ أنه لو وافق على العودة معنا دون مقاومة سيسهل علينا مهمتنا كثيرا.

سأله الوسيمبي في فضول :

هل تعتقد أن تلك الخطة مضمونة، أقصد أن رجل مثل بينچي شديد المكر كالثعلب، وهو لن ينتظر حتى تجبره على العودة إلى عالمه، لاسيما وقد هددته باستخدام القوة عندما ذهبت إلى منزله، أعتقد أن رجل مثله سيتخذ من الحيل والألاعيب ما تجعله في مناعة من بطشك وقوتك، ليتمكن من المكوث في هذا العالم حتى يتم عمله.

هز ماسا رأسه موافقا، ثم قال في غيظ :

وأنا لن أسمح له بإتمام عمله.

تأمله (الوسيمبي) لحظات ثم قال في هدوء :

لا أدري لماذا أشعر أن هناك دافع للإنتقام وراء تعاملك مع هذا الرجل بالذات.

صمت ماسا وهو ينظر نحو اللامكان، ثم قال ساخطا :

كان ينبغي علي ألا أثق في إنسان لمجرد معاشرته شهرا أو يزيد، لكن(كارل) استغل طيبتي وأخبرني كاذبا أن بينچي عالم نباتات يسعى للعثور على أحد النباتات المنقرضة، وخدعني بينچي أيضا حينما أخفى عني هويته الحقيقية، لأسمح له

بالمجيء إلى هذا العالم الموازي ليحقق ما يصبوا إليه، وعندما أردت إعادته كما تفترض التعليمات زج بي في السجن ستة أشهر كاملة، ثم ها أنا الآن وبعد تلك المدة الطويلة أفكر في طريقة لإعادته، غير واثق من نجاحي في القيام بتلك المهمة، لهذا أقولها بكل صراحة، أنا أبغض ذلك الرجل وأتمنى لكمه في أنفه بكل قوتي، بعد أن أنجح في إعادته لأزيل عن ظهري ذلك الحمل الثقيل.

قال الوسيمبي متفهما :

حسنا، سننفذ خطتك بحذافيرها، لكن ينبغي علينا الحذر واليقظة من مفاجئات ذلك الوغد العجوز.

****

ذهب بينچي إلى معمله في نشاط جم بعد أن ظل طوال اليوم السابق يبحث عن خطة محكمة للقضاء على خطر ماسا للأبد، غادر معمله في الخامسة مساءا ثم توجه صوب (بيتر) رئيس أمن الجامعة وانتحى به جانبا، ثم قال بصوت خافت :

أريد منك أن تفعل من أجلي معروفا يا عزيزي بيتر .

قال بيتر في حماس :

أنا رهن إشارتك يا مستر بينچي.

قال بينچي بعد أن تلفت حوله :

استمع إلي جيدا، هناك رجل أفريقي يبتزني، وإذا لم أخنع لابتزازه فإنه يهددني بأنه سيقوم باختطافي.

اربد وجه بيتر في غضب، ثم هتف :

أخبرني أين هذا الرجل وسأقبض عليه ثم ألقنه درسا لن ينساه طوال حياته .

ابتسم بينچي في ارتياح ثم أشار له أن يخفض صوته قائلا :

لا أدري إن كان سيحضر بمفرده أم سيأتي معه عدة رجال؟ لذا أريد منك اختيار خمسة رجال تثق فيهم واستعدوا جيدا، وعندما يحين الوقت سأعلمك عبر الهاتف فتحضر معهم على الفور، مفهوم؟

أومأ بيتر برأسه إيجابا، ثم كرر عبارته في انفعال وحماس :

أنا رهن إشارتك يا مستر بينچي.

ربت بينچي على كتفه في مودة قائلا :

هذا ما أنتظره منك يا بيتر .

ثم هب قائما وهو يقول :

انتظر مكالمة هاتفية الليلة أو غدا مساءا، لا أظن أن ذلك المجرم قد يتأخر أكثر من ذلك في تنفيذ تهديده.

سأله بيتر في حيرة :

ولكن لماذا لم تبلغ الشرطة ما دام هذا الرجل خطير إلى ذلك الحد؟

باغته السؤال، لكن عقله الألمعي استنقذه فقال في سرعة :

لأني لا أدري متى ينفذون فعلتهم، هذا بخلاف أنهم قد يحومون في المنطقة المحيطة بالمنزل قبل أن يشرعوا في تنفيذ مخططهم، حتى يتأكدوا أن المكان آمن وليس هناك خطر عليهم، لذا رأيتُ أن الإستعانة بعدة رجال أثق فيهم هو أفضل حل .

قال بيتر :

لا تقلق يا مستر بينچي، سيكون كل شيء كما خططت له .

أشار له بينچي بإصبعه في حزم قائلا :

لا ينبغي أن يعرف مخلوق عن ذاك الأمر، ماعدا رجالك بالطبع.

بالتأكيد يا مستر بينچي، بالتأكيد.

منحه ابتسامة خفيفة، ثم خرج من الجامعة وركب سيارته ومضى نحو منزله لينفذ خطوته التالية. كان يعلم أن نظيره ينهي عمله عند الخامسة والنصف كالمعتاد، ثم يعود مباشرة إلى منزله ولا يخرج منه إلا فيما ندر، فانتظر بينچي حتى أشارت الساعة إلى السادسة والنصف، ثم اتصل بنظيره عن طريق هاتف منزله، مضت لحظات ثم رد الأخير في نبرة قاسية :

ما الذي تريده مني أيها الحقير، ألم نكن قد أنهينا ما بيننا في آخر لقاء؟

تحول صوت بينچي إلى صوت ضعيف واهن وهو يقول :

اعذرني يا بينچي، فلولا أنني مريض مرض عضال ما تجرأت على الإتصال بك .

أثار صوته الضعيف انتباهه فتسائل في حذر وقلق :

ماذا أصابك؟

قال بينچي متقنا دوره في براعة :

أصابتني نزلة البرد قاتلة، فأخبرني الطبيب أن ألتزم البيت ولا أخرج منه لمدة ثلاثة أيام حتى تتحسن صحتي، ولكن ينقصني بعض الطعام الذي لا أقدر على ابتياعه لظروفي الصحية، فهل تتفضل وتبتاعه لي ولن أنسى جميلك هذا ما حييت .

صمت الطاهي لبرهة ثم حسم أمره وقال :

حسنا، أخبرني ما الذي تريده وأنا أحضره لك على الفور.

أملاه بينچي كل ما يريده ثم أغلق الهاتف، وانمحت من وجهه علامات الإعياء وحل محلها ابتسامة خبيثة ماكرة. مرت ساعة ثم حضر نظيره حاملا معه حقيبة بلاستيكية احتوت على كل ما طلبه، استقبله بينچي منحني الظهر ويسير بصعوبة، ثم تمتم قائلا :

لا أستطيع شكرك كفاية على شهامتك وأخلاقك، أنت أعظم مما تصورتُ بكثير .

قال نظيره في تواضع :

لا داعي للشكر يا رجل، فأنت نظيري في العالم الذي جئت منه، وينبغي على النظائر أن يتعاملوا كالإخوة.

ابتسم بينچي لطرافة التعبير، ثم قال وهو يشير إلى الداخل :

تعال معي لنشرب كأسا أو كأسين ثم أعطيك المال الذي أدين به إليك.

لوح نظيره بيده قائلا :

لا داعي لتدفع تكلفة الأشياء الآن .

قال بينچي في إصرار :

كلا، لقد أقسمتُ على ألا أؤجل دفع ما يتوجب علي ثمنه يوما واحدا، هذه شيمتي منذ صغري .

تبعه نظيره إلى الداخل مستسلما، سار بينچي بخطوات بطيئة نحو زجاجة الخمر، لكن نظيره أسرع وأخذ منه الزجاجة قائلا :

اجلس أنت لتستريح يا رجل، أنا أعرف كيف أخدم نفسي .

صب كأسين أعطى أحدهما لبينچي وتجرع كأسه في سرعة، ثم وضع الكأس مكانه على الطاولة والتفت نحو بينچي قائلا :

حسنا لقد شربت كأسا وهذا يكفي، هل تريد مني أن أساعدك في أمر ما؟

منحه بينچي ابتسامة واسعة لم ترق له، وراح يعبث بأصابعه في جيبه قائلا :

انتظر يا رجل حتى أخرج من جيبي محفظة نقودي.

قال نظيره :

لا أدري لما الإصرار على دفع تكلفة المشتريات الآن، من الممكن أن...

أمسك رأسه بغتة وسكت، سأله بينچي في لهفة :

ماذا هناك يا رجل؟

تمتم في حيرة :

لا أدري شعرتُ بدوار فجأة .

التفت نحو الكأس الذي شرب منه منذ قليل، ثم التفت مرة أخرى نحو بينچي الذي لم يقرب كأسه وقال غاضبا :

أنت وضعت لي شيئا في الكأس أيها الحقير .

تحولت علامات الإنهاك والمرض على وجه بينچي إلى أمارات السخرية والتشفي، ثم قام من مقعده في خفة وهو يقول :

نعم، أنا وضعتُ لك منوما في الكأس الذي شربت منه، لكن صدقني لم يكن بيدي من حيلة أخرى للبقاء في هذا العالم حتى أنهي تجاربي كلها سوى أن أفعل هذا.

حاول مثيله النهوض بدوره وهو يقول متناوما :

لما فعلت هذا ؟

مط بينچي شفتيه في أسى وهو ينظر إلى نظيره الذي يترنح في وقفته، ثم قال :

لم يترك لي ماسا خيارا آخر للبقاء في هذا العالم حتى أتمكن من استنساخ الموتى سوى تلك الطريقة، سأخدعه ليصطحبك بدلا مني إلى عالمي وهو يظن أنك أنا، وعندما ينتبه إلى خدعتي هناك لا يكون بإمكانه العودة قبل سنة على الأقل، وفي تلك المدة أكونُ قد حققتُ ما أصبوا إليه.

سقط الطاهي على مقعده وهو يتمتم كالنائم :

لا ترسلني إلى عالمك أيها البغيض، لدي أسرة في هذا العالم، أولادي يحتاجون إلي.

هز بينچي رأسها متفهما، ثم قال آسفا :

وأولادي كذلك، لكن يبدو أن القدر أراد لمصائرنا أن تتداخل على نحو يستحيل فصلها.

****

لم يكن بينچي يعلم متى يأتي ماسا ليعيده إلى عالمه، لذا أسرع باتخاذ احتياطاته مبكرا حتى يتلافى المفاجئات، وعندما كان يبدل ملابس نظيره فاقد الوعي ويكسيه ملابسه بدلا منها، سمع صوت سيارة تتوقف أمام منزله مطلقة صريرا مزعجا، اختلج صدره وهو يفكر في اللحظات المصيرية القادمة، راقب بينچي من الداخل اقتراب ماسا ورفيقه من باب منزله، ثم اتصل ببيتر وقال :

هناك رجلان أسودان يقفان أمام المنزل الآن وسأسمح لهما بالدخول، أريدك أن تأتي فورا دون أن تدخل، حتى لو رأيتهم يخرجون من منزلي حاملين جسدي فاقد الوعي، كل ما عليك فعله هو مراقبة كل ما يفعلونه ثم إبلاغي بكل ما رأيت، مفهوم؟

على الرغم من دهشته الكبيرة لذلك الطلب الغريب إلا أنه تمتم موافقا. أنهى بينچي الإتصال ثم أمسك بزجاجة الخمر ومضى نحو الباب يتظاهر بأنه يترنح، طالعه الرجلان يحدجانه في صرامة، فهتف بينچي بصوت مخمور و أسلوب رجل سكير :

مرحى يا عزيزي ماسا، هل جئتَ لتعيدني إلى عالمي؟

تطلع ماسا إلى الروب الأسود الذي يرتديه ثم قال :

ارتدي ملابسك حتى نرحل إلى عالمنا الآن .

رفع بينچي زجاجة الخمر قائلا في فرح غامر :

مرحى، أخيرا سأعود إلى منزلي وأحتضن أولادي وأقبل زوجتي قبلة طويلة، مرحى يا عزيزي ماسا .

تبادل ماسا مع زميله النظرات ثم قال :

هذا ما سيحدث بالتأكيد؟

أشار بينچي إلى الرجل الآخر وسأله :

من هذا الرجل يا عزيزي ماسا؟

قال ماسا في نفاذ صبر:

إنه الوسيمبي، أحد حراس هذا العالم.

مد إليهما يده بزجاجة الخمر وهتف :

هل تريدان أن تشربا نخب العودة إلى عالمنا المتداعي؟

قال ماسا بصرامة وهو يدلف مع الوسيمبي إلى الداخل :

لا داعي يابينچي، هيا ارتدي ملابسك لنرحل من هنا بسرعة.

مضى بينچي نحو غرفته وكاد أن يسقط في طريقه مرتين، ثم قال وهو يفتح الباب ويدلف إلى غرفته :

امنحوني خمس دقائق فقط وسأكون مستعدا.

هتف ماسا في ضيق :

هل تريدني أن أساعدك في ارتداء ملابسك؟

صفق بينچي الباب خلفه دون أن يأبه بالرد عليه، ما إن اختلى بنفسه حتى ألقى نظرة سريعة على نظيره الفاقد الوعي، ثم أخرج من جيبه لحية مستعارة شبيهة بلحيته السوداء، ثم بطنها من الداخل بمادة لاصقة قبل أن يلصقها على وجهه في عناية، فصار طبق الأصل من بينچي لا يختلف عنه في شيء، ثم ذهب مسرعا إلى الحمام وسكب نصف الزجاجة في حوض المياه، وهنا كانت خطته الخبيثة قد اكتملت ولا ينقصها إلا أن يضع الزجاجة نصف الممتلئة بجوار نظيره فاقد الوعي، ثم يختفي عن الأنظار حتى يأخذانه ويرحلا .

تأخر خروج بينچي فهرع ماسا نحو غرفته وطرق الباب دون مجيب، حينها فتح الباب في عصبية ظانا أنه قد تم خداعه، لكنه وجد بينچي ساقطا على الأرض فاقدا الوعي، وبجواره زجاجة الخمر المفروغ نصفها، نادى ماسا على الوسيمبي ثم قال له :

ساعدني في حمل هذا الرجل، فيبدو أنه لن يستيقظ قبل الصباح بعد أن شرب نصف الزجاجة بمفرده.

تعاونا على حمل بينچي الفاقد الوعي إلى خارج المنزل ثم أغلقوا بابه خلفهم، ثم ذهبوا به نحو سيارتهم وهم يتلفتون حولهم في حذر، كان بيتر و رفاقه على الجانب الآخر يراقبون ما يحدث عن كثب، ومن مكمنه قال بيتر في انفعال وهو ينظر عبر منظار مقرب :

إنهم يحملون مستر بينچي فاقد الوعي ويريدون وضعه داخل سيارتهم.

جذب منه أحد رفاقه المنظار المقرب ونظر عبره، ثم هتف وهو يستل مسدسه :

إنهم يختطفون مستر بينچي يا رجال، هيا لنمنعهم.

انعقد حاجبا بيتر كأشد ما يكون، واربد وجهه وهو يقول في عصبية :

مستر بينچي حذرني من أن أتدخل مهما حدث، حتى لو حملوه داخل سيارتهم فاقد الوعي وانطلقوا به، وطلب مني مراقبتهم دون أن يشعروا بهذا، ثم أعود إليه وأخبره بما رأيت.

قال فورد في اعتراض وتهكم وهو يستل مسدسه بدوره :

وكيف ستبلغه بعد أن اختطفه هذان الرجال من منزله؟

قال بيتر في غيظ وحنق:

لستُ أدري.

سأله چون :

وما دورنا إذن مادمنا لم نتدخل لإيقاف أولئك المجرمين السود .

هتف بيتر محنقا وهو يدير محرك السيارة استعدادا للإنطلاق بها خلف المختطفين :

المراقبة فقط.

هتف چون معترضا :

فقط.

صمت بيتر للحظات ثم قال :

لقد أكد علي مرارا وحذرني من التدخل مهما رأيت.

ثم تناول منه المنظار وراح يتأمل ذلك الجسد الساكن الذين يحملونه ويهمون بوضعه داخل السيارة، ثم هتف فجأة :

ذلك الجسد هناك يبدو أكثر بدانة من جسد بينچي والتر بعض الشيء.

تسائل چون :

ومالذي يعنيه هذا؟

مط بيتر شفتيه مفكرا لبعض الوقت، ثم تمتم :

لا أدري بالضبط، حقا لستُ أدري، لكني أعتقد أن الأمر معقدا بشدة.

في تلك اللحظة انطلقت سيارة الوسيمبي في الطريق الرئيسي بسرعة كبيرة، وتبعتها سيارة بيتر محافظة على مسافة معقولة بينهما، استمرت السيارتين في الإنطلاق لساعة كاملة، ثم انحرفت إلى طريق جانبي غير ممهد سارت فيه عدة دقائق، قبل أن تتوقف أخيرا في مطار خاص، ثم رأوا الرجلان يحملان بينچي الذي ما يزال فاقدا الوعى ويصعدا به سلم الطائرة الخاصة، ثم يضعوه على أحد المقاعد الستة، رأوا أحد الرجلين يصافح الآخر الذي غادر الطائرة بعد أن انتهت مهمته، انطلقت الطائرة ومحركها يزأر بصوت مرتفع، ثم جرت عجلاتها على أرضية المطار الصغير بسرعة متزايدة، قبل أن ترتفع عجلاتها رويدا عن الأرض حتى ارتفعت بكليتها وطارت في السماء، هتف چون داخل السيارة في غيظ :

لقد أخذوا مستر بينچي أمام أعيننا دون أن نفعل شيء.

صاح بيتر في احتداد :

لقد فعلتُ ما أمرني به مستر بينچي بالحرف الواحد ولا ألام على ذلك.

هتف مايكل :

كيف ستهرب من اللوم وأنت تركت الخاطفين يرحلون بصيدهم دون أن تحرك ساكنا؟

زفر بيتر في انفعال، ثم أشار إلى الوسيمبي الذي انطلق بسيارته في تلك اللحظة قائلا :

هذا هو ما ينبغي فعله الآن يا رجل، تتبع ذلك الرجل حتى نعرف إلى أين يذهب.

تبعوا سيارته التي انطلقت عائدة إلى نيويورك، ألقى الوسيمبي نظر سريعة في المرآة الجانبية، ثم ابتسم قائلا :

اتبعوني حيثما أذهب أيها الأذكياء، فأنا حريص على هذا.

مضت سيارته نحو نصف ساعة أخرى قبل أن تتوقف أمام بناية سكنية كبيرة، ثم هبط من سيارته ودلف إلى داخل البناية وصعد عبر السلم واختفي، عندئذ انطلق بيتر بسيارته عائدا إلى منزله وذهنه يلح عليه بسؤال : ما الذي ستفعله بتلك المعلومات التي حصلت عليها إذا كان بينچي نفسه مخطوفا؟

راقب الوسيمبي السيارة التي ابتعدت في سرعة، ثم هبط سريعا وركب سيارته وانطلق بها نحو مطار نيويورك وحجز أول رحلة ذاهبة إلى فرنسا، شاعرا بالإرتياح بعد أن ساعد صديقه في تأدية مهمته.

****

في صباح اليوم التالي، وعند الساعة الثامنة والربع، وقف بيتر و چون ومايكل عند مدخل بوابة الجامعة يبدو عليهم التوتر والقلق، همس مايكل في عصبية :

هل تظن أيها الغبي أن مستر بينچي سيظهر فجأة بعد أن رأيناه جميعا يخطتف من منزله، ثم يستمع لتقرير مفصل عما حدث بالأمس؟

حدجه بيتر بنظرة غاضبة، ثم قال :

كنت أنفذ أوامره بحذافيرها .

قال چون في سخرية :

وهل كانت تلك الأوامر تشمل ترك العالم بينچي والتر يخطتف أمام أعيننا، دون أن نتحرك من أماكننا قيد أنملة!

لوح بيتر بيده في عصبية، ثم قال بصوت مختنق :

لستُ أدري، ولكنه بدا صارما وهو يردد عدم التدخل مهما رأينا أو سمعنا.

تمتم مايكل في مرارة :

بدلا من أن نتدخل لمنع المجرمين السود من إختطاف العالم بينچي، أو حتى نبلغ الشرطة للقبض عليهما تركنا الأمر برمته، ثم هانحن نقف أمام الجامعة وننتظر أن يظهر بينچي، وكأن السماء ستسمع لتضرعاتنا وتستجيب لدعواتنا.

هم بيتر بالرد عليه بنبرة حادة، لولا أن لاحت أمامهم سيارة بينچي الزرقاء ماركة (ڤولڤو) تقترب من بعيد، اقتربت منهم السيارة تتهادى على عكس عادة قائدها في السير بسرعة وكأنه يتعمد استفزازهم، كانت قلوبهم تختلج بعنف وهم يتسائلون عمن يقود تلك السيارة بتلك السرعة البطيئة، استبعدوا أن يكون بينچي قائدها، بعد أن رأوه بالأمس فاقد الوعي يحمله رجلين أسودين، ثم يضعونه داخل السيارة وينطلقون بها، تبادلوا نظرات تشي بلهفتهم وتوترهم وحدتهم، دون أن ينطق أحدهم بكلمة تعبر عما في داخله، توقفت السيارة ثم فتح بابها ونزل منها بينچي وهو يبتسم ابتسامة ظافرة مشرقة، لم يصدق بيتر عينيه اللتين كادتا تخرجان من مقلتيهما جراء ذهوله، وهتف مايكل :

كيف عاد مستر بينچي وأين ذهب، هل كان يخدعنا؟

لم يجبه أحدهما وهما يتابعان بينچي الذي يقترب منهم وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة، هتف بيتر :

لقد.. لقد رأيتك يا مستر بينچي وأنت فاقد الوعي و..

قاطعه بينچي بإشارة حازمة من يده، ثم قال :

لا بأس يا بيتر، لقد قمتَ أنت وزملائك بواجبكم خير قيام، وأنا أقدر لكم مجهودكم هذا، والآن تعالى معي إلى مكتبي لتحكي لي ما حدث منذ تبعت تلك السيارة وحتى عدت إلى منزلك.

تبعه بيتر مشدوها حتى وصل مكتبه، دلفا معا ثم أشار له بينچي بالجلوس قائلا :

أخبرني ما الذي حدث منذ تبعت السيارة السوداء من أمام منزلي وحتى عدت إلى منزلك؟

التقط بيتر نفسا عميقا مغالبا انفعاله ثم قال :

رأيتك فاقدا الوعي يحملك رجلين أسودين ثم يضعونك داخل السيارة، حينها اجتاحني ذهول عارم و كدتُ أهاجم الرجلين في شراسة، لكني تذكرت تحذيرك لي من عدم التدخل مهما حدث، فلم أجد بدا من الإنصياع بالرغم من اعتراض مايكل وچون وفورد بشدة، تبعنا السيارة التي اتخذت الطريق الرئيسي حتى وصلت إلى

طريق غير ممهد، ثم خاضت السيارة ذلك الطريق غير الممهد لمدة خمس دقائق قبل أن تتوقف في مطار خاص، حيثُ كانت في انتظارهم طائرة خاصة ذات ستة مقاعد التقطت أحد الرجلين الذي حملك على متنها، ثم طارت إلى السماء واختفت في الظلام.

كان بينچي والتر يستمع بحرص شديد، ثم سأله في اهتمام:

والرجل الآخر، هل تبعته حتى تعرف عنوانه؟

أومأ بيتر برأسه في حماس قائلا :

نعم يا مستر بينچي، انطلقنا خلفه حتى توقف أمام بناية سكنية مكونة من خمسة طوابق، ثم صعد إلى أعلى ولم ينزل ثانية فتأكدنا أنه يقطن في نفس البناية.

سأله بينچي:

أليس من الممكن أن يكون انتبه لتتبعكم له فقرر خداعكم؟

قال بيتر بنبرة واثقة :

كلا بالطبع، لقد كنتُ واحدا من ضباط الشرطة الذين يجيدون التتبع و التخفي، قبل أن أترك الشرطة وأعمل في مجال الأمن.

ابتسم بينچي وقال :

لقد نفذتَ دورك باحترافية يا بيتر، أنت وزملائك تستحقون مكافأة مجزية.

أخرج من جيب سترته عشر ورقات من فئة المائة دولار، ثم أعطاها لبيتر مردفا :

أنتم تستحقونها.

تناولهم بيتر في هدوء ورصانة ودسهم في جيب سترته الداخلي، ثم لاح في وجهه التردد قبل أن يحسمه لصالح فضوله قائلا :

أخبرني يا مستر بينچي، من ذاك الرجل الذى كان يحملاه هذان الرجلان والذي كان يشبهك تماما كأنه أنت؟ ماعدا أنه كان أكثر بدانة منك بعض الشيء .

بدت ابتسامة مزهزة على وجه بينچي، ثم تمتم قائلا :

فلنقل هذا نظيري في هذا العالم .

لم يفهم بيتر ماالذي يعنيه بكلمة نظيري، بدت له تلك الكلمة غريبة على مسامعه، وغامضة المعنى بشكل محير، خشي أن يحدثه بينچي بكلام يتضمن معاني لا يفهمها فيظهر بصورة غبي أو جاهل، وبالرغم من أنه كان لديه أطنان من الفضول لمعرفة خبايا ما حدث، إلا أنه فضل الذهاب بكرامة على أن يجلس كالحمار، لذا قام من مجلسه قائلا :

المهم أنك بخير يا مستر بينچي، وداعا.

استوقفه العالم الأمريكي قائلا وهو يعطيه ورقة صغيرة وقلم :

اكتب في هذه الورقة عنوان الرجل الأسود بدقة.

بينما كان بيتر يكتب عنوان الرجل لمح شبح ابتسامة على وجه بينچي، ابتسامة لا تبشر بخير.

****

طارت الطائرة لساعتين ونصف قبل أن تحط بعجلاتها الصغيرة فوق مهبط للطائرات الخاصة في فلوريدا، حاول ماسا إيقاظ بينچي من نومه عدة مرات، لكنه كان يفتح عينيه في كل مرة ثم يغلقهما ويعود لنومه من جديد، اضطر ماسا لحمله حتى السيارة المتوقفة، ثم انطلق بالسيارة مسافة عشرة كيلومترات قبل أن يتوقف، ثم هبط من السيارة وحمل بينچي مرة أخرى نحو بقعة بعينها، وضع ماسا بينچي أرضا في رفق، تطلع إليه وهو راقدا أرضا دون حراك، ثم أغمض عينيه وبدأ يتمتم بكلمات غير مفهومة بتركيز وصبر، لوهلة بدا الأمر كما لو كان سيفشل، لكن انبعث بغتة من أمامه ضباب كثيف، ثم ظهر جسر كبير بين الضباب، عندئذ انحنى ماسا وحمل بينچي ومضى به عبر الجسر إلى الجانب الآخر، ما إن انقشع الضباب حتى أصبحا في عالمهم الحقيقي، وهنا أطلق ماسا تنهيدة ارتياح غامرة، بعد أن نجح أخيرا في مهمته التي استمرت أكثر من ستة أشهر كاملة، ألقى نظرة على وجه بينچي تجمع بين الغيظ والظفر والشماتة، ثم قال:

لقد خدعتني أكثر من مرة أيها الحقير، لكنني انتصرتُ عليك في النهاية، وها أنت ذا بين جدران عالمك الحقيقي، ولن يكون بإمكانك العودة إلى العالم الآخر مطلقا، ولتنسى أمر أبحاثك إلى الأبد .

سار به حتى عبر الطريق الفرعي ووصل إلى الطريق الرئيسي، ثم وضعه على قارعة الطريق ليخفف عنه عناء حمله، انتظر حتى رأى سيارة تقترب من بعيد فأشار لها بيده أن تتوقف، استجاب له قائد السيارة وراح يبطئ من سيارته رويدا،

ولكن عندما رآه ينحني ليحمل رجلا فاقد الوعي انطلق بسيارته لا يلوي على شيء، أطلق ماسا صيحة غضب ثم تمتم وهو يلتفت نحو رفيق رحلته :

عليك اللعنة يا بينچي .

كان الصباح على مشارف الوصول فأنزل ماسا حمله الثقيل، ثم جلس بجواره في وضع القرفصاء ينتظر حتى يطلع النهار ليستكملوا سيرهم من جديد، كان يأمل أن يستفيق بينچي ويريحه من عناء حمله، تأمله ماسا وهو نائم يشخر بصوت مرتفع، لا يدري لم أحس بأنه مختلف على نحو ما، لكنه لا يستطيع تحديد ذلك الإختلاف بدقة، طرد خواطره المزعجة وراح يتأمل تداخل خيوط الليل والنهار في حبكة فنية نادرة، ثم تبدأ خيوط الليل في التمزق وتصير خطوط النهار أشد قوة، لتنسج بخطوطها البيضاء منوالا نوريا ينير الكون كله بنهار مشرق، علت الإبتسامة وجهه في رضا، ثم أدار رأسه ناحية بينچي الذي ظل على حالته الساكنة، ماعدا صوت شخير مزعج يقطع سكونه من آن لآخر، لم يكن معه ماء لينضح به وجه بينچي، فراح يهزه بقوة دون نتيجة، ثم بدأ يلطمه على وجهه لطمات متوسطة الشدة، وعندما لم يستجب بينچي زاد ماسا من شدة لطماته وهو يتمتم :

استيقظ أيها الخنزير، لم أكن أعلم أنك ثقيل الجسد إلى هذا الحد، وأنا غير مستعد لأحملك مرة أخرى.

فتح بينچي عينيه فطالعه وجه ماسا يحدجه بغيظ، بدا على وجهه الحيرة وهو يسأله :

أنت !

علت وجه ماسا ابتسامة ساخرة، ثم قال :

نعم أنا.

سأله بينچي متمتما في حيرة :

أين أنا؟

قال ماسا متهكما :

في عالمك الحقيقي أيها المخادع.

ردد بينچي في حيرة :

عالمي الحقيقي، ماذا تقصد؟

لم يجبه ماسا مباشرة، هب قائما وجذبه من يده ليجبره على النهوض، ردد بينچي تساؤله وهو يمسك برأسه في ألم، تجاهله ماسا تماما وهو يشير إلى سيارة قادمة من بعيد، توقفت السيارة هذه المرة فركباها ثم انطلقت لاستكمال طريقها وماسا يبدي امتنانه للسائق ، هتف بينچي في عصبية :

لماذا لا تجيبني يا رجل، أين أنا ولماذا كنتُ فاقد الوعى هكذا ؟

رمقه ماسا بنظرة جانبية ثم تمتم :

يبدوا أنك لم تستفق من سكرك بعد .

قال بينچي في حدة واعتراض :

سكري، أنا امتنعتُ عن شرب الخمر منذ عدة سنوات.

تسائل ماسا بسخرية واستهزاء بالغين :

حقا! وما الذي كنتَ تفعله مساء أمس ؟

بدا على وجه بينچي الحيرة وهو يعصر مخه ليتذكر ما حدث ليلة أمس دون جدوى، توقفت السيارة قريبا من المطار فنزلا منها وتوجها نحوه سيرا على الأقدام، كان بينچي طوال الطريق يتحرك مدفوعا بيد ماسا القوية، ويتسائل في اعتراض عصبي عن وجهتهما؟ وكيف أتى به إلى هنا؟ وكان ماسا يتجاهل أسئلته الكثيرة ولايلقي لها بالا، وهو يدير النظر في أرجاء المطار خشية أن ينتبه لهما أحد من رجال الأمن، جلسا في صالة الإنتظار ، فالتفت إليه بينچي يسأله :

إلى أين نحن ذاهبون؟

أجابه ماسا في اقتضاب :

إلى نيويورك.

سأله بينچي في حيرة :

وأين كنا؟

في فلوريدا.

ومالذي كنا نفعله في فلوريدا؟

اختنق ماسا من كثرة أسألته، فقال في نفاذ صبر :

حسنا سأخبرك القصة منذ البداية أيها السكير المخادع، أنت كنتَ في نيويورك في عالمك الحقيقي، ثم قررتَ الذهاب إلى العالم الآخر الذي تركناه خلف ظهورنا منذ عدة ساعات، فأتيت إلى أوغندا لمقابلتي وإقناعي بالسماح لك بالعبور إلى العالم الآخر، فوافقتُ بغباء، ثم عبرنا سويا إلى العالم الآخر ومن ثم ذهبنا إلى نيويورك بحجة البحث عن أنواع نادرة من النباتات، لكني كشفت أمرك فسجنتني، ثم خرجت من السجن بعد نصف المدة، واستطعت خداعك مع صديقي الوسيمبي وذهبنا بك إلى فلوريدا، ثم منها إلى فلوريدا في هذا العالم، ثم ها نحن نستعد للعودة إلى نيويورك في عالمك الحقيقي مرة أخرى، هل استوعبت الأمر الآن، أم أنك تحتاج لرصاصة تخترق رأسك السكران هذا لتستفيق من سكرك؟

حدجه بينچي بنظرة مزجت بطريقة مضحكة بين الحيرة والدهشة والذعر والتسائل، تأمل ماسا تلك النظرة التي تظهر في مقلتيه، ثم حرك رأسه في حيرة وتمتم :

يبدو أنك لم تستفق من سكرك بعد أيها العربيد، ولا عجب، فقد تجرعت نصف الزجاجة في شراهة لوحدك!

انطلق النداء لحث الركاب المسافرين إلى نيويورك بالتوجه نحو الطائرة التي على وشك الإقلاع، صعدا سلم الطائرة وماسا يسنده كي لا يسقط، ثم جلسا سويا على مقعدين متجاورين، التفت نحوه بينچي يسأله :

كم ستستغرق مدة العودة إلى نيويورك؟

سأله ماسا في تهكم عصبي :

لماذا، هل نسيت الفرن مشتعلا؟

حرك بينچي رأسه نفيا ثم قال :

أنا لا أنسى الفرن مشتعلا أبدا، لكن اليوم هو الثلاثاء، ويجب أن أكون في المطعم مبكرا حيث يأخذ ثلاثة من زملائي الطهاة إجازة في هذا اليوم.

اتسعت حدقتا ماسا كأنه ملسوع، التفت ببطأ نحو بينچي يرمقه بنظرات ذاهلة مشدوهة صامتة، ظل للحظات لا يستطيع تصديق ما أخبره به عقله، سأله بصوت مبحوح من شدة الإنفعال :

من أنت يا رجل؟

قال بينچي في عصبية :

أنا بينچي والتر.

ماذا تعمل ؟

طاهي!

وعلى الرغم أن ما سمعه كان يتوقعه بنحو أو بآخر، إلا أن الذهول تضاعف في وجهه عشر مرات، شعر برغبة عارمة في البكاء والنحيب، تحركت عجلات الطائرة في نعومة، ثم راحت تجري فوق الأرضية الأسفلتية في تسارع متزايد حتى وصلت إلى السرعة المناسبة للتحليق، فارتفعت الطائرة بمقدمتها في سرعة لتنفصل عن الأرض وتتجه إلى السماء، وجد ماسا نفسه يصرخ في حنق وغيظ :

بينچي الحقير، لقد خدعني للمرة الثانية، عليه اللعنة، سأقتله بيدي.

راح الركاب يتطلعون إليه في دهشة متسائلة، والطائرة تهجر الأرض وتهاجر نحو السماء .

****

تجرع بينچي والتر كأسه دفعة واحدة قبل أن يحتقن وجهه ويتحول من اللون الأبيض إلى الأحمر القاني، كان يحتفل بانتصاره في معركته مع ماسا وخداعه إياه، اقتحمته فكرة مربدة الوجه تذكره بخسته، جراء ما فعله بنظيره الذي أرسله بدلا منه إلى عالمه، لكنه دفعها جانبا بشراسة، رافضا أن تفسد تلك الفكرة احتفاله الذي يقيمه احتفاءا بعالمه الجديد، عالم سيستفيد بأبحاثه في استنساخ البشر، وعندما هاجمته نفس الفكرة مرة أخرى لم يعاملها هذه المرة بشراسة، وإنما قابلها بهدوء ماكر قائلا : ما فعلته بإرسال نظيري إلى عالمي يشبه ما فعلته بنفسي عندما جئتُ إلى هنا، كان الأمر صعب في البداية بعض الشيء، لكن الأمور آلت إلى الخير، وسرعان ما سيعتاد الأمور هناك، وما سيجنيه ذلك العالم من مكاسب علمية يستحق ما فعلته وأكثر، من أجل عالم متطور قادر على تجاوز كل العقبات.

بهذه الكلمات أقنع بينچي نفسه وأراح ضميره، ثم راح في الأيام التالية يتابع عمله في معمله، منتظرا ولادة الجنين المستنسخ منه، على أمل أن تنجح عملية الإستنساخ بنسبة مائة في المائة، ويحقق لنفسه ولعالمه الجديد ما كان يتمناه.

وفي نفس اللحظة في العالم الآخر، وقف نظيره أمام المرآة يتأمل لحيته الكثة في ذهول، في البداية لم يصدق عينيه، ثم تأكد مما يراه فراح يصرخ في غضب وسخط هائلين، ثم مد يده ونزع اللحية المستعارة عن وجهه مطلقا آه ألم عنيفة، التفت إلى ماسا الذي يقف بعيدا في صمت، ثم قال بصوت ينبئ عن الشر :

أريد أن أعود إلى عالمي الآن؟

قال ماسا في نبرة متخاذلة :

لابد أن أعود إلى قريتي أولا.

هتف بينچي :

اللعنة عليك وعلى قريتك، أعدني إلى عالمي الآن ثم عد إلى قريتك، هيا.

قال ماسا بصرامة :

لابد أن أعود إلى كبير السحرة أولا، وهو الذي سيقرر أمر عودتك من عدمه.

هتف بينچي في غيظ هائل :

اللعنة على كبيرة السحرة هذا أيضا، ألا تفهم يا رجل، أريد العودة إلى بيتي وأسرتي وعملي، أنت من أحضرتني إلى هنا وينبغي عليك أن تصحح خطئك.

أشاح ماسا بوجهه، ثم قال :

لم يعد بإمكاني فعل ذلك بنفسي بعد أن عدتُ لعالمي الحقيقي، ينبغي أن أعود إلى كبير السحرة وهو الذي سيقرر مصيري ومصيرك أيضا .

أثار انتباه بينچي تلك الكلمة فتسائل :

مصيرك! كيف؟

التقط ماسا نفسا عصبيا ثم قال :

لم يعد لدي الحق في استخدام ذلك الجسر بين العالمين، لقد حكم علي نظيرك بسبب خداعه لي بالحرمان من تلك الموهبة التي منحت إلي من قبل كبير السحرة إلا أن يعفو عني، ولا أعتقد أنه سيفعل، فلقد أخطأت مرتين، مرة عندما أرسلته إلى هناك، ومرة عندما أحضرتك بدلا منه إلى هنا.

جلس بينچي في انهيار ثم قال :

وهل سأنتظر هنا في هذا العالم حتى تعود من قريتك إذا ما عفى عنك كبيركم؟

أخشى أن هذا صحيحا للأسف.

اقترب منه بينچي ثم سأله :

وإذا لم تعد لسبب ما، هل سأبقى في هذا العالم للأبد؟

صمت ماسا قليلا ثم قال :

لن تشكل عودتي من عدمها فارقا معك، المهم أن يوافق كبيرة السحرة على عودتك، وأيا من حراسه سيقدر على إعادتك.

سأله :

وما الذي ينبغي علي أن أفعله حتى تأتيني موافقة كبير السحرة؟

قال ماسا :

الجلوس في أحد الفنادق وممارسة أية هواية تحبها، وعندما أصل إلي قريتي سأتصل بك.

قال بينچي معترضا :

لكن ليس لدي مال يكفيني لقضاء أسبوع واحد في أحد الفنادق!

قال ماسا :

سنرسل لك مالا كافيا وكل ما تحتاجه خلال يوم واحد، لا تقلق.

استدار ماسا ليغادر المكان فاستوقفه بينچي قائلا :

ماسا أنت رجل طيب، لكن الحظ أوقعك في طريق رجل شرير، لا يتراجع عن طلب ما يريده، حتى لو وطأ على كل الأعراف والمبادئ والقوانين.

ثم اقترب منه وأردف بمنتهى الصرامة والحنق :

أعدك أنني سأنتقم منه عندما أعود إلى عالمي شر انتقام .

أشرق وجه ماسا بابتسامة ممتنة، ثم ربت على كتف بينچي قائلا :

ربما لا نلتقي بعد ذلك اليوم أبدا، ولكني سأظل أتذكرك وأتذكر وعدك بالإنتقام منه لأجلنا، لأجل ما فعله بنا.

تصافحا في قوة، ثم غادر ماسا أمريكا قاصدا قريته الصغيرة، التي يحكم رجالها جسر العبور بين العالمين.

****

وصل ماسا إلى قريته منكس الرأس، لا يستطيع النظر في وجه من يلقاه من رجال قريته، حتى وصل إلى منزل كبير السحرة، ظل واقفا أمام منزله ينتظر طوال الليل حتى أشرق الصباح، وعندها خرج كبير السحرة بقامته الضخمة، ثم تطلع إلى ماسا في صمت غاصب، ووجه مربد، أدرك ماسا حينها أنه لن يشفق عليه، مشى العملاق يتبعه ماسا حتى وصل إلى منتصف الساحة، ثم اتجه إلى مقعده الضخم وجلس عليه، تجمع حوله رجاله بالعشرات ينتظرون ما سيقره كبيرهم في شأن ماسا، قال كبير السحرة :

لقد انتظرناك طويلا يا ماسا لكنك لم ترجع، لا تقل لي أنك قد فشلت في إعادته.

أحنى ماسا رأسه وقال :

لقد ارتكبتُ خطيئة أعظم جرما يا سيدي، فأنا لم أفشل في إعادة بينچي فقط، بل أحضرتُ نظيره بديلا عنه دون أن أعرف .

هب كبير السحرة من مقعده صارخا:

ماذا، أحضرت نظيره إلى عالمنا بدلا منه، ماذا دهاك يا ماسا؟

قال ماسا بنبرة تقطر حزنا وأسى :

لقد خدعني ذلك الرجل واستبدل نفسه بنظيره.

صمت العملاق لبرهة، ثم قال في نبرة صارمة حاسمة:

حكمنا عليك بالحرمان من مواهبك التي منحناها إياك، وعدم الذهاب إلى ذلك العالم مرة أخرى للأبد.

ارتعد جسد ماسا ثم تماسك قائلا :

وذلك الرجل الذي أحضرته معي ما مصيره؟

عاد كبير السحرة يجلس على كرسيه الضخم :

لقد حرمنا عدم الولوج لهذا العالم مدة خمس سنوات، وهذا الأمر يشمله.

ارتعشت شفتا ماسا حزنا لما آل إليه مصيره ومصير ذلك الطاهي المسكين، الذي كان كل ذنبه أنه نظير ذلك الشيطان المخادع، لكنه لم يكن ليتجرأ على مناقشة كبير السحرة.

****

رن الهاتف فالتقطته يد بينچي بلهفة، أتاه صوت ماسا يقول بنبرة انهزامية :

آسف لما سأقوله لك، لكن أريد منك التماسك مهما كان ما ستسمعه قاسيا.

هب بينچي من فراشه وهو يمسك بسماعة التليفون، ثم هتف :

ماذا هناك يا ماسا؟

لثواني ساد الصمت ثم أتاه صوت ماسا :

لقد حكم كبير السحرة بحرماني من الذهاب إلى عالمك للأبد.

هتف بينچي بصوت مبحوح منفعل :

وماذا عن مصيري ؟

شملهم الصمت هذه المرة لوقت أطول، سقط خلالها قلب بينچي سقوطا حرا، ثم أتاه صوت ماسا المذبوح :

كبير السحرة حكم بمنع الولوج إلى هذا العالم لمدة خمس سنوات كاملة.

صرخ بينچي بكل ما يعتمل في نفسه من غضب ويأس :

اللعنة عليك وعلى كبير سحرتكم الملعون الغبي الأهوج، أنت من وضعتني في هذا الموقف اللعين، وعليك أن تخرجني كما أدخلتني.

جاوبه الصمت فصرخ مرة أخرى :

ماسا، أجبني يا رجل .

قال ماسا بصوت خفيض أسيف :

اعذرني يا صديقي ليس بيدي حيلة.

صمت بينچي جراء الصدمة القاسية، راح يفكر في حيرة بائسة فيما سيفعله في الأيام القادمة، ثم نبتت في ذهنه فكرة شيطانية لقت صدى ضخما في نفسه، فقال في لهفة :

أخبرني بعنوان منزل بينچي؟

سأله ماسا في حذر :

ماذا تنوي أن تفعل؟

هتف بينچي بنبرة من فقد كل شيء ولم يعد لديه ما يخسره :

أنوي أن احتل مكانه هنا كما احتل مكاني هناك حتى تنتهي السنوات الخمس، وساعتها سأرد له الصاع صاعين بل عشرة صيعان .

على الرغم من عدم ارتياح ماسا لهذا الأمر إلا أنه أملاه عنوان منزله، ثم أغلق هاتفه وأغمض عينيه ماحيا تلك الذكرى من ذهنه للأبد.

****

عاد كارل من رحلته إلى أوروبا، بعد قضاء شهرين متواصلين في البحث عن نوع نادر من النبات، طرق الباب عدة مرات قبل أن تفتح له زوجته، دلف إلى الداخل وكاد يقبلها قبلة طويلة لولا انها أشارت إلى الداخل هانية :

هناك رجل أفريقي ينتظرك في الداخل .

تمتم في حذر :

رجل أفريقي!

قالت زوجته :

نعم، جاء منذ أسبوع وأخبرني أنه صديقك ويدعى (ماسا) وأنه يود رؤيتك لأمر هام، فأخبرته بموعد قدومك، ثم جاء منذ ساعة وانتظرك في الداخل .

توترت ملامحه بشدة عندما سمع ذلك الإسم، لاحظت زوجته توترت الواضح فسألته :

من هذا الرجل؟

قال في هدوء محاولا أن يبدو طبيعيا :

إنه صديق قديم لم أره منذ فترة طويلة، اطمئني.

تركها ودلف إلى غرفة الضيوف فطالعه وجه ماسا الذي يلوح فيه غضب خفي، صافحه كارل بابتسامة لم يجاوبه ماسا بمثلها، أدرك كارل حينها أنه أتى بخصوص بينچي ولا شك، كان يتسائل طيلة الشهور السابقة عن بينچي ولماذا لم يعد إلى منزله كل هذا الوقت؟ سأله كارل متلهفا :

لقد ذهبت إلى منزل بينچي مرارا أسأل عنه لكنه لم يعد، وكانت زوجته شديدة القلق عليه لانقطاع أخباره، فهل عاد معك؟

أومأ ماسا برأسه ببطأ قائلا :

نعم عاد معي وهو الآن في منزله؟

أخذت الحيرة بملامح وجهه وهو يتسائل في خفوت :

ولماذا لم يعلمني بقدومه إذن؟

قال ماسا في نبرة جمعت بين التهكم والغضب :

ربما نسيك!

تفحص كارل وجهه في صمت حذر، ثم تأكد من أن بينچي قد فعل هناك ما أثار غضبه بالفعل، فقال كارل :

سأمر عليه غدا، ولكن لماذا تأخرتم كل هذا الوقت؟

لبث ماسا على حالته الصامتة قليلا، ثم قال :

هذه قصة طويلة ربما أحكيها لك في وقت لاحق، إلا إذا أصررتَ على معرفتها بالطبع .

تردد كارل قبل أن يقول باسما :

لا بأس، سأجعل بينچي يحكيها لي بكل تفاصيلها.

قال ماسا :

أخشى أنه لن يعرفك.

حملق كارل في وجهه بدهشة ثم سأله :

هل.. هل فقد ذاكرته .

أومأ ماسا برأسه نفيا، ثم قال :

فقد ما هو أعظم من ذلك، فقد أسرته وعالمه .

قال كارل في حيرة :

أنا لا أفهم شيئا، أخبرني ماذا حدث؟

مال ماسا ناحيته وهتف غاضبا :

حدث أنك خدعتني عندما أخبرتني أن صديقك عالم نباتات وليس عالما في الهندسة الوراثية، وأنه يسعى لعرض مشروعه العلمي هناك على إدارة جامعة هارفارد، بعد أن وضعت إدارة جامعته هنا قوانين منعته من ممارسة أبحاثه العلمية، وعندما واجهته بالحقيقة وأردت إعادته إلى عالمه، تسبب في سجني مدة ستة أشهر كاملة، ثم لم يكتف بهذا، بل خدعني وأوهمني أن الرجل الذي اصطحبته معي عائدا إلى عالمنا هو، في حين كان نظيره في العالم الآخر .

هب كارل من مقعده هاتفا في ذهول :

ماذا تقول! هذا الرجل الذي هنا في منزله ليس بينچي، من هو إذن هذا الرجل الآخر؟

قام ماسا واقترب منه حتى كادا يتلاصقان، ثم قال:

بينچي العالم الآخر، رجل طيب يعمل طاهيا، أوقعه حظه السيئ في طريق صديقك الشرير .

قال كارل في عصبية :

كيف سمح بينچي لنفسه أن يفعل هذا؟

دفعه ماسا بيده في عنف فأسقطه على الأريكة التي كان يجلس عليها منذ لحظات، ثم هتف :

فعل ذلك لأنك سمحتَ له بخداعي عندما كذبت علي يا كارل، بعد أن منحتك ثقتي الكاملة أيها المخادع .

دلفت زوجة كارل في تلك اللحظة فرأت ذلك المشهد العنيف فصرخت مذعورة، أصاب ماسا الحرج فاندفع يغادر المنزل على الفور، فهرعت نحو زوجها هاتفة :

ما الذي حدث ؟

أسرع كارل قائلا :

لا شيء يا حبيبتي، يبدو أن صديقي كان غاضبا بعض الشيء، فلم يستطع السيطرة على أعصابه بقدر كاف.

****

عندما عرف بينچي الطاهي عنوان نظيره الذي جلبه لهذا العالم رغما عنه، قرر أنه مادام لن يرجع إلى عالمه قبل خمس سنوات كاملة، أن يحتل مكانه في كل شيء، بل ويستمتع به أيضا، ماعدا عمله الذي لا يعرف عنه شيئا، لذا انتظر حتى تنمو لحيته وتصبح بحجم لحية غريمه، ثم مضى نحو منزله مطمئنا إلى أنه صار نسخة كاملة من نظيره، ولن يستطيع أحد أن يشك فيه حتى زوجته، أو كان هذا ما يتمناه على الأقل. طرق الباب وانتظر حتى فتحته كارول، أحس عندما رآها واقفة خلف الباب أنه مايزال في عالمه ولم يغادره لحظة، بالرغم من اختلاف المنزل عن منزله، وارتداء كارول ثوبا لم ترتديه زوجته من قبل، لكنه شعر أنها زوجته نفسها بشحمها ولحمها، لم تكد كارل تقع نظرها على بينچي حتى اتسعت حدقتاها على اتساعهما، ثم حملقت فيه غير مصدقة وتمتمت باسمه ذاهلة، ثم صرخت صرخة فرح وهي تقفز لتحتضنه بحرارة، ثم بكت بحرقة حتى أنه أحس بحرارة دموعها وهي تسقط على صدره، أحس بالحرج وهو يحضنها وشعر أنها أنحف من زوجته قليلا، قبلته كارول ثم جذبته إلى الداخل هاتفة في لهفة تمتزج بالغضب :

أين كنت طيلة الشهور السابقة يا بينچي؟ لقد بحثنا عنك في كل مكان ولم نجدك؟

تلعثم قائلا وهو يبحث في ذهنه عن إجابة مقنعة :

لقد ذهبتُ إلى أوغندا في قارة أفريقيا، وهناك وقعت لي حادثة سقطت على إثرها في غيبوبة عميقة طوال أسبوع كامل، وعندما أفقت وجدت نفسي أعيش وسط أناس لم يسبق لي رؤيتهم، مكثت معهم عدة أشهر، وبمجرد أن عادت لي ذاكرتي عدت إلى منزلنا على الفور.

قالت في نبرة داهشة مستغربة :

لقد بحثنا عنك بالفعل في دولة أوغندا، لكننا لم نجد لك أثرا على الرغم من كل ما فعلته السفارة الأمريكية هناك.

أصابت بينچي تناحة وحملق في وجهها دون أن يقول شيء، لكنه رفض الظهور بمظهر العاجز، فقال :

ربما يكون قد حدث خطأ ما، لكني بخير وهذا هو المهم.

هرعا إليه الصبيين في تلك اللحظة فاحتضنهما كما يفعل مع ولديه الحقيقين، ثم راح يمازحهما ويلاعبهما طويلا ، لم يعتد الصبيين أن يلاعبهما والدهما بتلك الكيفية، حدقت فيه كارول بمزيج من الحيرة والدهشة، وراحت تحدث نفسها أنه يبدو عليه بعض الغرابة، ويبدو أكثر حميمية واشتياقا للأولاد عما تعودوا عليه، لكنها أعزت الأمر إلى مدة غيابه التي تجاوزت الستة أشهر، قالت كارول :

بينچي، ينبغي أن تذهب في أقرب وقت إلى جامعتك وتخبرهم برجوعك .

وافقها بإيماءة بسيطة من رأسه، دون أن تلحظ هي الرعشة التي اعترت جسده وهو يتخيل ما يمكن أن يحدث حينما يذهب إلى هناك، إنه لا يفقه شيء عن الهندسة الوراثية، سوى أنهم يلعبون في الچينات البشرية ويغيرون من صفاتها، ليس له صلة بأي علم من العلوم، لم يعرف في حياته سوى الطبخ الذى قضى فيه عمره كله تقريبا، ركن أفكاره السوداوية جانبا، رفع الصبيين على كتفيه يلاعبهما، ابتسمت له زوجته وابتسم لها، ثم راحت المطبخ لتعد العشاء، وذهب هو إلى غرفته ليغير ملابسه، ضايقه تلك الملابس التي تضيق على جسده، لكنه ارتدى أنسبها وانتظر حتى أحضرت كارول العشاء، جلس الجميع على مائدة الطعام وراح يأكل في نهم، وأثناء تناوله الطعام انتبه لكارول التي تحملق فيه في دهشة، فسألها :

لماذا لا تتناولين طعامك؟

قالت في حيرة :

تبدو شهيتك مفتوحة أكثر من أي وقت مضى، ثم إنك لم تقرب زجاجة الخمر منذ عدت، وهذا خلاف عاداتك الدائمة، ماذا جرى لك؟

أحس بالغصب من نفسه لسقوطه في تلك الأخطاء الساذجة، بالرغم من معرفته السابقة بعادات بينچي في الطعام والشراب أكثر مما سواها، لكنه أسرع يبتسم قائلا :

تلك الستة أشهر التي قضيتها في مجاهل إفريقيا غيرت الكثير من عاداتي وأخلاقي، وسوف تندهشين من التغيرات المثيرة التي طرأت علي في المستقبل، وأول تلك التغيرات وأهمها وظيفتي.

سألته في حيرة :

ماذا بها؟

قال بعد أن حسم أمره :

سأترك وظيفتي وأفتح مشروعا خاصا .

ارتفع حاجباها في دهشة وهي تسأله :

تريد أن تترك وظيفتك يا بينچي؟ هل جننت! لقد كانت وظيفتك أهم عندك من أسرتك، ولقد قضيت فيها الكثير من الوقت ووضعت عليها الكثير من الأمال، حتى إنك تأذيت نفسيا بشدة عندما منعتك الجامعة من استكمال أبحاث استنساخ البشر .

ابتسم قائلا :

لقد شعرت حينما كنت ضائعا في إفريقيا أن الأسرة هي أهم شيء بالنسبة للرجل، لهذا لا أريد لعملي أن يضيع عمري فيما ليس فيه فائدة، لقد أثرت وظيفتي على اهتمامي بكم كثيرا، وهذا مالا أود حصوله بعد ذلك.

سألته كارول في دهشة :

وماذا تنوي أن تعمل في المستقبل؟

صمت للحظات محاذرا من ردة فعلها، ثم حسم أمره :

لقد تعلمت أثناء جولاتي في إفريقيا الكثير عن طهي الأطعمة الأفريقية اللذيذة، وأود أن أفتتح مطعما كبيرا.

حملقت كارول في وجهه بذهول، ثم تمتمت في حيرة :

لقد جننتَ بالتأكيد يا بينچي.

ثم هبت قائمة ودلفت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها، شعر بينچي أن أمره سينكشف عاجلا أم آجلا، وبدأت صورة فضيحته تتخذ شكلا واضحا، ثم واجه نفسه قائلا: إنني لن أستطيع الإستمرار في تلك التمثيلية الهزلية للأبد، ثم إنني إن

فعلت ذلك سأصبح مثل نظيري الحقير، وهذا مالا أود حدوثه قط، لذا فلأواجه كارول مهما كانت النتائج وخيمة.

هب قائما ثم مضى نحو الغرفة وطرق بابها، دعته كارول للدخول بصوت متغنج، فتح الباب ودخل فطالعته كارول ترتدي قميص نوم فاضح، انعقد ما بين حاجبيه وأشاح بوجهه بعيدا، اقتربت منه كارول ثم همست في أذنه:

أنا أعلم أن أفعالك الغريبة نتجت عن سفرك الأخير إلى أفريقيا، وحرمانك من أولادك و...

بترت عبارتها لكن بينچي فهم المغزى، حاولت كارول تقبيله، لكنه أبعد وجهه عنها كأنها ستلدغه بدلا من أن تقبله، اربد وجهها واغتاظت لردة فعله الغريبة، فسألته مستنكرة:

مابك؟

تردد قليلا ثم حسم أمره وقال :

كارول، دعيني أحكي لكِ عن أشياء تجهلينها عني .

هتفت :

هل تزوجت في إفريقيا، أسمع أنهم هناك يتزوجون العديد من النساء.

مط شفتيه ثم قال :

هذا صحيح أنا متزوج بالفعل.

تطلع إلى وجهها الغاضب المستنكر، فأردف سريعا :

لكن ليس كما تتصورين.

وعندما رآها توشك على الإنفجار لعدم استيعابها ما يقال استجمع شجاعته، ثم شرع يحكي لها كل شيء، منذ البداية.

****

كان بينچي والتر قد استطاع بعد جهد جهيد نسيان أمر أسرته مؤقتا، حتى يكون بإمكانه التركيز في تطوير أبحاثه في استنساخ الموتى، لكن بالرغم من كل مابذله من جهد لم ينجح في قتل اشتياقه لهم تماما، لكنه كان يعزي نفسه بما حققه من إنجاز علمي فريد، ومن جهة أخرى، فقد قرر أن يعيش مع أسرة نظيره متظاهرا

بكونه بينچي الطاهي، وكان هدفه من ذلك أن يخفف من وطأة حنينه لأسرته، وقد شرع في إعداد خطته بمجرد أن نجح في خداع ماسا، وجعله يعود بنظيره إلى عالمه بدلا منه، وبمجرد أن غادر الثلاثة منزله حتى حلق لحيته، ثم ارتدى ملابس تشبه ماكان يرتديها نظيره، ثم ذهب إلى منزله مستغلا معرفته الجيدة بكل شبر فيه، كان يخشى أن تشك فيه كارول لأي خطأ قد يقع منه سهوا أو جهلا، ولسوء حظه بدأت كارول تلحظ عليه بعض الأفعال الغريبة، حيث كان يتهرب من إعداد الطعام، وبدأ يرفض بعد الأطعمة التي كان يفضلها نظيره، واحتسائه للخمر على عكس نظيره، وعندما أبدت كارول اندهاشها قال متظاهرا بالضيق :

لقد مللتُ حياتي كلها وأسعى لتغيير شامل.

شعرت كارول بالذهول مما سمعت، تضافر ذلك مع ما رأته من تغيرات عجيبة في شخصيته فقالت مستنكرة :

أنت تفقد وزنك يا بينچي، هل صرت تعزف عن الطعام، أم تتبع حمية قاسية؟

ابتسم بينچي قائلا وهو يقلد زوجها :

بل أتبع حمية بالطبع لأحظى بجسد رشيق .

وحدث أنها قالت له مستنكرة عندما رأته يشرب الخمر :

متى عدت إلى الخمر يا بينچي، ألم تكن تركتها منذ عدة سنوات .

فقال باسما :

العادات تهزم صاحبها في المعتاد يا حبيبتي.

ولم يجد مانعا من إقامة علاقة جنسية كاملة معها، ثم لم يتبق أمامه إلا عقبة واحدة، وهو الطهي، فقد كان لا يعرف شيئا عن أصول الطهي وفنونه، فضلا عن أنه لن يترك العمل على أبحاثه لأي سبب كان، وليهرب من تلك العقبة الكئود، أخبر كارول أنه سيفتتح مطعما للأكلات الجاهزة، بعد أن مل من هذه المهنة وقاسى أعبائها، حاولت زوجته إقناعه ليعود عن قراره الغريب، إلا أنه تمسك بقراره حتى النهاية، وبالفعل افتتح مطعما للوجبات السريعة وراح يديره بطريقة غير مباشرة، واستتب له الأمر وهدأ الخلاف ولم تعد تثار حوله المشاكل، إلا بعض النظرات المستريبة التي تحدجه بها كارول بين الحين والآخر، كان يعلم أنه إن عاجلا أو آجلا سيكشف أمره، لكنه تجاهل خوفه وراح يباشر عمله الحقيقي بشغف لا ينقطع، وانتقل بينچي من نجاح إلى نجاح في تطوير أبحاثه عن

استنساخ الموتى، لكنه كان يعلم أن الوصول إلى حلمه ما زال بعيدا، لكن صدى عمله كان يصل إلى أجهزة الإعلام أولع فأول، وعندما راحت البرامج التلفزيونية تحاصره لإجراء لقاءات يتحدث فيها عن سعيه الدئوب لاستنساخ الموتى، كان يكتفي بأحاديث صحفية شحيحة دون أن يسمح بالالتقاط صورة لوجهه، رافضا إجراء أي لقاء تليفزيوني بحجة عدم سعيه للشهرة، وأن العلماء الحقيقيون لا يسعون للظهور بوجوههم، بل إن الناس يجب أن ترى أعمالهم دون وجوههم، وإن خلودهم الحقيقي في هذه الحياة يأتي عن طريق أعمالهم النافعة للناس. لكنه بالرغم من كل ما فعله لم يستطع الهروب من كاميرات الصحفيين الفضوليين، لهذا كان يرفض دخول الصحف إلى منزله رفضا باتا وسط دهشة زوجته، التي باتت تراقبه في حيرة وشك، ظل بينچي محافظا على اختبائه عن شاشة التلفاز الذي تدمنه كارول، حتى ظهر للوجود أول جنين مستنسخ في العالم كله، وساعتها لم يستطع الفرار من إقامة مؤتمرات علمية ولقاءات تلفزيونية، مما كان يعني شيئا واحدا، خسارة تلك الأسرة الجديدة التي انضم إليها بدلا من أسرته التي تركها في عالمه الأصلي، بعد أن عرفت كارول حقيقة كونه عالم في الهندسة الوراثية، حينها اشتد غضب كارول وهتفت ذاهلة :

أين أرسلت زوجي أيها القذر، وكيف تسمح لنفسك بلمس جسدي بعد أن تخلصت من زوجي؟

قال بينچي محاولا تبرئة نفسه :

أنا لا أعرف أي شيء عن زوجك منذ عدة أشهر، صدقيني.

هتفت :

كاذب، لو لم تكن تعرف مصيره لما تجرأت واستبحت مكانه.

لم ينبس بكلمة، فصرخت كارول وهي تتشبث بملابسه:

أنت قتلته أليس كذلك، أخبرني ماذا فعلت به؟

صاح بينچي :

أقسم لك أنني لم أمسه بسوء، لكني لا أعرف أين هو.

بكت كارول بحرقة، ثم هتفت :

سأذهب إلى مركز الشرطة واتهمك بقتله أو إخفائه، ولن تفلت بفعلتك أيها اللعين.

لم يستطع بينچي تهدئتها أو السيطرة عليها وهي تحاول ركله في ساقه بجنون، أصابت إحدى ركلاتها ساقه اليمنى فتأوه بألم وهو يسقط أرضا، ثم هب قائما وهو يقول :

استمعي إلي أولا وسأوضح لكِ كل شيء.

صرخت في هستيريا :

أنت قتلت زوجي ثم أتيت تحتل مكانه مستغلا الشبه الحاد بينكما، أنت مجرم .

كلا أنا لست مجرما، لكني لم أستطع أن أخبرك بما حدث خشية أن تصيبك صدمة .

اكتفت بتحديجه بنظرة مليئة بالغضب والجنون، فأردف وهو يدلك ساقه المضروب :

لقد ذهبنا إلى إفريقيا في جولة سياحية، لكننا فقدنا طريقنا داخل إحدى الغابات، ولم نستطع العودة بعد أن بدأ الليل يهبط بسواده، فظللنا في مكاننا المنعزل ننوي المكوث فيه حتى الصباح، لكن زوجك هاجمته إحدى اللبؤات في شراسة، حاولت حمايته لكني لم أستطع إنقاذه من بين أنيابها، فرحتُ أركض مذعورا حتى أنقذني بعض سكان الغابة من هجوم تلك الحيوانات المفترسة، ولما لم أستطع إبلاغك باختفائه رأيت أن أفضل حل هو أن أحل مكانه .

صرخت كارول :

أنت كاذب، لو كان زوجي يريد السفر لأخبرني قبل أن يذهب .

ثم هرعت كارول إلى مركز الشرطة واتهمت بينچي بأنه ليس زوجها الحقيقي، وأنه وراء اختفاء زوجها منذ عام كامل، ثم أظهرت لهم صورة زوجها وهويته التي تحمل اسم بينچي والتر، لكن لم يصدقها أحد لغرابة قصتها، ولتدخل بينچي من جهة أخرى لعرقلة أي تحقيقات تجرى في هذا الشأن مستخدما سلطته ومعارفه، وعندما أصرت على أقوالها وهددت بالحديث عبر الوسائل الإعلامية المختلفة، أودعها إحدى المصحات النفسية للعلاج، ولتقيم حالتها النفسية والعصبية.

ثم مرت الأعوام بعد ذلك، وأصبح اسم بينچي والتر هو الإسم الأكثر شهرة واحتراما في العالم كله، بعد نجاحه في استنساخ خمسة أجنة من خلايا حية من جسده، وكلهم حملوا اسم بينچي والتر أيضا، كأنما يسعى لتكرار نفسه دون انقطاع، اتهمه بعض زملائه بالغرور والخيلاء، لكنه تجاهل كلامهم متهما إياهم

بالغيرة والحسد، وعندما نجح بينچي في استنساخ أجنة مماثلة بنسبة مائة في المائة، أقرت الحكومة الأمريكية قوانين تحمي تكنولوچيا الإستنساخ، ومنحت الحق لأي مواطن باستنساخ جنينا واحدا فقط، تحت شعار (جنين مستنسخ لكل مواطن)، ماعدا بينچي الذي كان له الحق في استنساخ مايشاء من أجنة، كنوع من الإعتراف له بالجميل لما حققه من إنجاز مذهل، ثم سعت كثير من الدول لعقد اتفاقية مع الحكومة الأمريكية، يصبح بموجبها لهذه الدول الحق للإستفادة من تكنولوچيا الإستنساخ، ودخلت في تلك الإتفافية ثلاثون دولة، على أن تتعهد تلك الدول بعدم نقل خبرتها في مجال الإستنساخ لأي دولة خارج الإتفافية، وألا تستخدم تلك الخبرات العلمية في أمور شريرة، وأن تصبح لزاما على تلك الدول الدخول في معاهدات عسكرية مشتركة، وبالفعل بدأت الحكومة الأمريكية بنقل خبراتها العلمية لتلك الدول الصديقة، ولم يبدأ عام ألف وتسعمائة وثمانون، حتى بدأ عهد جديد سيغير وجه العالم للأبد، وراحت كل الدول المشاركة في الإتفافية إلى استنساخ كل المبدعين من مواطنيها في كل المجالات، مثل التمثيل، الغناء، المسرح، الرياضة، العلوم، والسياسة أيضا، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى الحفاظ على بقاء هؤلاء الأفذاذ الموهوبون للأبد، واستمرار عطائهم لأجيال طويلة لا تنقطع، باعتبارهم ثروة قومية يجب الحفاظ عليها وحمايتها. ثم تمت ترقية بينچي والتر ليصبح مديرا لجامعة هارفارد لجهوده المضنية لخدمة البشرية، وافق بينچي على الفور، لكنه لم يستطع أبدا نسيان أسرته التي تركها خلفه هناك، ولم يستبعد أن يكون نظيره قد احتل مكانه بين أسرته كما فعل هو مع أسرة مثيله، لكن ما كان يقلقه ويلح على ذهنه بشدة، هو لماذا لم يعد نظيره مع ماسا للإنتقام منه بعد أن كشفا خدعته؟ ولم يكن بإمكانه الإجابة على ذلك السؤال الخطير، لاح في ذهنه عدة سيناريوهات لما يمكن أن يكون قد حدث عندما عادوا إلى العالم الآخر واكتشفوا خدعته، لكنه لا يستطيع تفضيل سيناريو على حساب آخر، فاكتفى بأخذ الحيطة والحذر، وانتظر في ترقب ما يمكن أن يحدث في الفترة القادمة.

****

عام ١٩٨٥ ميلاديا.

مرت خمسة أعوام منذ عاد ماسا إلى عالمه، ونسي أو تناسى بينچي والتر ما حصل، حتى كان عائدا من عمله ذات يوم، فرأى ذلك الرجل الأسود الذي كان ماسا قد اصطحبه معه حين أتى منزله ليعيده إلى عالمه منذ خمس سنوات، أيقن بينچي ساعتها أن شيئا خطيرا على وشك الحدوث، ثم راح يراقبه من خلف نافذة

المطعم الذي يتناول فيه عشاؤه عادة، كان (الوسيمبي) يقف كأنما ينتظر شخصا ما، لكن مفاجأة قاسية كانت في انتظاره حينما جلس أمامه آخر شخص يتوقع رؤيته في هذا العالم على الإطلاق، بينچي والتر، نظيره الطاهي، أصابت المفاجأة القاسية قلبه فراح ينطلق بسرعة سيارة فيراري مجنونة، كان قد نسي أمره تماما وسط إنجازاته ونجاحاته ومرور خمس سنوات كاملة، حتى رآه يجلس أمامه وهو يحدجه بنظرة امتلأت غضبا وكراهية وبغضا وقسوة، لقد مرت الخمس سنوات كالبرق الخاطف، وهاهو في مواجهة غريمه الأزلي وجها لوجه، ومعه ذلك الحارس الأسود القوي يقف في الخارج، راحا يتأملان بعضهما لدقيقة كاملة ثم قال نظيره :

أراهن أنك قد نسيتني تماما، أليس كذلك؟

قال بينچي في سخرية تخفي قلقا عميقا:

لا أستطيع إنكار هول المفاجأة بالطبع، لكن لماذا لم تعد طوال تلك الفترة؟ وأين ماسا لقد اشتقت إليه كثيرا؟

لم يكد ينطق عبارته حتى فوجيء بماسا يجلس بجواره هو يحدجه بنظرة غاضبة متوعدة، ابتسم بينچي قائلا في نبرة متوترة :

ماسا صديقي العزيز، أين كنت طوال تلك السنوات الخمسة؟

مال نحوه ماسا وهو يقول :

بسبب خدعتك الحقيرة تم حرمان بينچي من العودة لعالمه مدة خمس سنوات، أما أنا فقد سلبت موهبتي للأبد.

تمتم بينچي ساخرا :

لكني أراك تجلس أمامي الآن أم أن هذا نظيرك؟

قال ماسا :

أنا ذاته نفس الرجل، لكني رجوت كبير السحرة السماح لي بعبور هذا العالم لمرة واحدة فقط، من أجل إعادتك إلى عالمك للأبد، وقد سمح لي بذلك بعد أن تضرعت له طويلا وبكيتُ أمامه .

ارتفع حاجبا بينچي قائلا في تهكم :

إذن فأنت تبكي مثلنا يا ماسا، كنتُ أظنك خلقت من الصخر!

هب ماسا قائما، ثم قال بنبرة صارمة :

احتفظ بسخريتك لنفسك يا بينچي، فستحتاجها عند عودتك إلى عالمك .

سأله نظيره الذي ظل صامتا منذ مجيء ماسا :

ألا تريد أن تعرف كيف حال زوجتك وأولادك؟

بالرغم منه اربد وجه بينچي، وتحركتا يديه في انفعال لكنه التزم الصمت، فمال نحوه نظيره قائلا :

أولادك بخير فلا داعي للقلق بشأنهما، أما زوجتك فهي أسعد امرأة في العالم منذ ذهبتُ إليها، حتى إنها أخبرتني ذات يوم أنني صرت أكثر فحولة عن ذي قبل.

حدجه بينچي بنظرة غاضبة، لم يشأ الدخول في معركة جانبية فالتزم الصمت، لكن سرعان ما لان وجهه قائلا :

لماذا لا تدعوا الوسيمبي للدخول في ذلك النقاش المثير يا عزيزي ماسا؟ فأنا لن أذهب معكما حتى أنهي عشائي.

أشار ماسا له أن يأتي، وعندما جلس معهم قال بينچي متهكما :

لا تقلق أيها الزنجي فأنا لا أنوي الفرار، إنني لا أستطيع وصف شعوري الهائل بالسعادة وأنا بين اثنين من الزنوج.

قال عبارته ثم أطلق ضحكة عالية مقتضبة، حدجه الوسيمبي بنظرة ساخطة صامتة، راح بينچي يأكل باستمتاع وتلذذ كأنما ليس هناك خطر يتهدده، وعندما أنهى طعامه أشار بيده كي يدفع الحساب، وعندما أتى النادل منحه بينچي الحساب وبقشيشا مضاعفا، ثم قال:

الطعام اليوم لذيذ للغاية، لكن هناك ثلاث حبات مكرونة لم أستطع هضمها.

أومأ الندل برأسه متفهما وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى قبل أن يعود بالأطباق شبه الفارغة، قام ماسا من مقعده ثم قال في نبرة صارمة للغاية :

هيا قم، فليس لدينا الوقت لنضيعه في هرائك العقيم.

قال بينچي :

انتظر يا رجل فأنا أعد لكم مفاجأة ستحبونها كثيرة.

لحظات وعاد النادل ومعه عشرة رجال من العاملين في المطعم، فأطلق بينچي ضحكة هازئة ثم قال :

قيدوا هؤلاء الرجال الثلاثة، ولا تتركوا لهم فرصة للهرب.

اندفع الرجال العشرة نحو الثلاثة وهو متيقنون من غلبتهم التامة على الرجال الثلاثة، لكن الرجلين الأسودين لم يكونا ليسمحا لبضعة رجال بالتغلب عليهم، لذا، ما إن حاوطوهم من كل جانب، حتى تفجرت أجسادهم بشعلات نارية انفجرت في وجوه الرجال العشرة الذين لم يكونوا يجيدون سوى طهي الطعام وتنظيف الموائد، لكنهم ظنوا أن عددهم الكبير يكفي لحسم الأمر دون مقاومة، انطلقت قبضات الرجلين وأقدامهم في أجساد الرجال العشرة كقنابل فتاكة، وانطلقت الصرخات داخل المطعم الممتلأ بالزبائن، بين صيحات ألم العاملين والطهاة، وصرخات رواد المطعم المذعورين الذين انطلقوا يفرون من المكان دون أن يكملوا طعامهم، واستغل بعضهم حالة الهرج ففر دون أن يدفع الحساب، وعندما رأى بينچي ذلك التحول العجيب للأمور قرر الهرب، لكن نظيره كان له بالمرصاد، فأمسك بملابسه قبل أن ينسل هاربا، ثم راح يلكمه لكمات أودعها كل غضبه وسخطه وكراهيته، قاوم بينچي هجوم غريمه بعنف وصبر، ثم نطحه برأسه على أنفه فاندفع نظيره للوراء رغما عنه وهو يمسك أنفه الذي سال منه خيط من الدم، استغل بينچي الفرصة للفرار بجلده من تلك المعمعة، لاسيما وأن ماسا ورفيقه يبدوان كنمران أسودان يلتهمان فرائس من الظباء السمينة، انطلق يعدو نحو الخارج وصوت نظيره يبلغه متوعدا إياه بالويل والثور وعظائم الأمور، لكنه لم يلتفت إلى الوراء، بل أكمل ركضه حتى وصل إلى سيارته، ثم أدار محركها وانطلق بها دون أن ينظر خلفه لحظة واحدة، كان نظيره قد بلغ منه الغضب مبلغا جعله يتجاوز ألمه الحاد، فركض محاولا اللحاق بغريمه وهو يصرخ متوعدا، ركب السيارة التي جاء بها مع ماسا، ثم انطلق بها خلف سيارة بينچي وهو يفكر في قتله بدم بارد إذا سنحت له الفرصة، فوجيء بينچي بالسيارة التي تطارده في استماتة، زاد بينچي من سرعة سيارته محاولا المراوغة بها في شوارع نيويورك المزدحمة، لكن السيارة التي خلفه كانت تتعقبه كأنها ظل لسيارته، ثم اقتربت من سيارته وراحت تصدمها وتحتك بها في عنف، وبينچي يحاول جاهدا الفرار بها من إصرار غريمه لسحقه، كان يدرك ما يشعر به نظيره بعد أن استلبه بيته، وأسرته، وعالمه، يشعر بتلك النيران الموقدة التي تطلع على قلبه وتصليه من نارها، لهذا لم يكن هناك وقت للسخرية والتهكم، بل للنجاة من الموت الذي يزحف بكل سرعته نحو هلاكه،

انطلقتا السيارتان في سرعة مذهلة، وكأنهما انفردتا بالطريق وحدهما، واحدة تخرب والأخرى تلاحقها غاضبة متهورة، لكنهما انتبها بعد فوات الأوان أن الطريق تسير فيه سيارات أخرى مختلفة الأحجام والأشكال، لذا، كانت نهاية المطاردة أن اصطدمتا سيارتاهما في سيارتين أخرتين، فقفزت سيارة بينچي في الهواء ثم هبطت لتحتك بسيارة مقابلة، قبل أن تغير اتجاهها وتصطدم بسيارة متوقفة، ثم تنقلب على جانبها الأيمن وعجلاتها تدور دون توقف، أما سيارة نظيره فقد صدمتها سيارة دفع رباعي جعلتها تدور حول نفسها كمروحة عملاقة، ثم تصطدم بسيارة أخرى وتتوقف تماما كأن طاقتها قد صعدت لصانعها، غلف الشارع الذي شهد الحادثتين صمتا كصمت القبور، ثم تعالت الأصوات تنادي بإنقاذ من في السيارتين في أسرع وقت.

****

التف الناس حول السيارتين يتطلعون إلى لرجلين الفاقدي الوعي، ثم جائت سيارات الإسعاف وحاولوا إخراج بينچي ونظيره، ثم كانت الدهشة من نصيبهم عندما رأوا كم التشابه بينهم، ولولا اللحية لم يكن ليستطيعوا التفريق بينهم، حملتهم سيارة الإسعاف إلى مستشفى قريب لفحصهم، كان بينچي قد أصيب في صدره وضلوعه بردود عنيفة استلزمت عدة أيام للشفاء، أما نظيره فقد أصيب في وجهه بجرح قطعي فنزف بشدة وكسرت يده اليسرى، وعندما أفاق بينچي اتهم نظيره الطاهي والرجلين الأسودين بمحاولة قتله، استجابت الشرطة لاتهاماته على الفور وقبضت على ماسا والوسيمبي، وانتظرت نظيره حتى تماثل للشفاء ثم أودعته السجن أيضا، وعندما تعافى بينچي ذهب إليهم في سجنهم، توقف أمامهم وتطلع إليهم بنظرة شامتة، ثم قال :

كان من الذكاء أن تستسلموا للأمر الواقع، لا أن تحاولوا لعب دور البطولة هنا.

لم ينبس أحدهم ببنت شفة، فاستطرد ساخرا :

تلك المدة التي مرت منذ آخر مرة تقابلنا فيها حدث فيها الكثير من الأمور التي لا تعلمون عنها شيئا، فقد أصبحتُ الشخصية الأشهر في العالم والأكثر تأثيرا عندما استطعتُ استنساخ بشري كامل، هل تعرفون معنى ذلك الإنجاز؟

التزموا الصمت وهم يشيحون بوجوههم بعيدا عن وجهه، فأردف :

وأنتم بكل بساطة أتيتم لتعيدوني إلى عالمي، وتنزعون مني كل مكاسبي التي جنيتها طوال السنوات الخمس الفائتة!

هتف ماسا في صرامة وهو يجلس القرفصاء:

كل ما قلته لا يعنيني من قريب أو بعيد، كل ما يعنيني أن أعيدك إلى عالمك كما أحضرتك، وإلا فإن قوانين كبير السحرة وأسلافه ستنهار حتما.

أطلق بينچي ضحكة هازئة، ثم قال :

وهل تظنني آبه لقوانينكم التافهة، كل ما يهمني أن أكمل مشروعي العلمي حتى لو حققته في الجحيم نفسه.

قال ماسا في غيظ وغضب :

وكل ما يهمني أنا أن أعيدك إلى عالمك مرة أخرى، ولا تهمني أحلامك العاهرة.

سأله العالم الأمريكي وهو يستند بكتفه على قضبان الباب الحديدي :

وماذا لو عجزت عن إعادتي يا ماسا؟

هتف ماسا في صرامة وغلظة :

حينها سأقتلك، هكذا تقول قوانين أسلافي.

حملق بينچي في وجهه لحظة، ثم انطلق يقهقه في دهشة قبل أن يسأله :

تقتلني، يالك من رجل شاعري.

تدخل الوسيمبي قائلا في هدوء :

أنت تظن أن قوانيننا لا أهمية لها، لكن تلك القوانين هي التي حافظت على الجسر بين العالمين موجودا منذ آلاف السنين حتى هذه اللحظة.

سألهم :

وماذا لو فشلتم في تنفيذ تلك القوانين القديمة؟

قال الوسيمبي في صرامة مخيفة :

حينها سينهار الجسر، ولن يكون هناك وسيلة انتقال بين العالمين.

بدت الصدمة على وجه بينچي لبرهة، ثم تجاوز صدمته قائلا في لهجة لامبالية :

لم يعد يهمني أمر عالمي القديم، ولم أعد آبه بأمر عودتي له، فقد بات هذا العالم يمثل لي كل شيء الآن .

هب نظيره واقفا بغتة، ثم اقترب منه هاتفا :

تظن نفسك أذكي العالمين وأكثرهم دهاءا ومكرا، لكنك دائما تنسى أهم شيء .

تسائل بينچي في قلق :

وماهو هذا الشيء؟

هتف نظيره بنبرة شامتة وهو يقترب منه بوجهه :

أسرتك .

انعقد ما بين حاجبي بينچي في شدة، اكفهر وجهه وبدا أنه يعاني ألما نفسيا عميقا، استغل نظيره ما ألحقه به من أذى فاستطرد :

لا يوجد رجل عاقل يتنازل طواعية عن عائلته من أجل تحقيق أحد أحلامه السخيفة.

صاح بينچي غاضبا :

لم أكن أنوي التخلي عن عائلتي مطلقا، لكن ذلك الحقير ماسا هو من حرمني حق العودة إلى عالمي وأسرتي لمجرد أنني لم التزم بقوانينه التافهة.

هتف نظيره :

وماذا لو سمح لك بالعودة الآن إلى أسرتك؟

قال بينچي في سرعة متلهفا:

أتمنى ذلك من كل قلبي، لكن بشرط أن يسمح لي بالعودة إلى هنا بعد شهر واحد لأستكمل أبحاثي وتجاربي.

أطلق ماسا ضحكة ساخرة مقتضبة، ثم هب قائما وقال :

وماذا لو أخبرتك أنني أحضرتهم معي هنا؟

تمتم بينچي في حذر بالغ وقلبه ينبض نبضا عنيفا :

من هم الذين أحضرتهم معك هنا؟

ابتسم الوسيمبي وهو يقوم بدوره قائلا :

أسرتك يا رجل، نحن أحضرنا أسرتك معنا إلى هنا.

صمت بينچي غير مصدق لما يسمع، ثم سألهم :

وهل وافقوا بسهولة على المجيء معكم، أم أنكم أجبرتموهم على الحضور معكم؟

قال نظيره :

بل وافقوا بمجرد أن أبلغتهم بمكانك.

حدجه بينچي بنظرة كارهة، فأردف :

كاد يصيبهم الجنون بسبب غيابك عنهم.

سأله بينچي في دهشة :

وهل عرفوا حقيقة أنك قادم من عالم آخر.

ابتسم نظيره وقال :

لم تصدق زوجتك بسهولة، لكني استطعت إقناعها على الرغم من عنادها.

غلف الجميع صمت ثقيل، ثم سألهم بينچي :

وأين هم الآن؟

أسرع ماسا قائلا :

عدني أنك ستعود إلى عالمك وسأسمح لك برؤيتهم.

بان على وجهه الإعتراض والرفض، ثم قال في إصرار :

لن أعود حتى أستطيع استنساخ الأموات.

أصابت الدهشة على وجوه الثلاثة، ثم كان ماسا أول من نطق صارخا :

استنساخ الموتي، ماذا تعني؟

قال بينچي متفاخرا :

أنا أجري تجارب لاستنساخ الذين رحلوا عنا كما يحدث مع الأحياء الآن.

صاح الوسيمبي ساخطا :

يالك من شيطان ملعون.

وهتف نظيره في صدمة :

أنت شيطان بالفعل، فالذي يسعى لفعل تلك الجريمة الشنيعة، ويفرط في فرصة العودة لعالمه وأسرته، يكون شيطانا متحجر القلب.

قال بينچي في سخرية قاسية :

وهل هذا يعني أنكم ملائكة!

قال نظيره :

على الأقل لا ندمر عالما كاملا من أجل تحقيق إنجاز فردي، ولا نترك عائلتنا خلفنا دون مُعين .

قال بينچي منافحا عن نفسه :

زوجتي تستطيع الإعتناء بنفسها وأولادها جيدا، ثم إنها حين تعلم ما أفعله ستصفح عني تقصيري في حقهم.

قال نظيره في سخرية آلمته :

لكن رد فعل زوجتك كان مختلفا بعض الشيء، هل تدري بما وصفتك؟

سكت بينچي وهو ينظر نحوه متسائلا في غضب مكبوت، فأردف نظيره :

وصفتك بأبشع الأوصاف وأحقرها، أقلها وصفها إياك بالخنزير الذي لا يأبه لأسرته.

احتقن وجه بينچي وعلا صوته صارخا :

أنت كاذب حقير جبان، أخبرني أين هم الآن.

أشار نظيره إلى ماسا ثم قال هازئا:

في الحقيقة الأمر ليس بيدي، وهذا من حسن حظك بالطبع، لأنني لو كنت أملك حق الموافقة من عدمه، لحرمتك من رؤيتهم للأبد.

تجاهله بينچي تماما وهو يلتفت إلى ماسا في نظرة متسائلة، فهز ماسا كتفيه وقال :

أخبرتك شرطي الوحيد من قبل يا رجل.

مال بينچي نحوه وقال :

انت إما كاذب أو غبي، وفي الحالتين لن تصل إلى مرادك أبدا.

ثم قال في هدوء يحسد عليه :

احتفظ بهم من أجلي يا عزيزي ماسا.

ثم دار على عقبيه واتجه نحو باب الخروج دون تردد.

****

اتجه بينچي نحو الباب متناسيا مادار بينهم من حديث، فاستوقفه ماسا قائلا :

أنت شخص صعب المراس ياهذا، لا أدري كيف تهون عليك أسرتك إلى هذا الحد؟

سأله بينچي في نبرة هادئة :

أين هم؟

قال ماسا وهو يمسك القضبان الحديدية بكلتا يديه :

هل أسرتك لا تعني لك شيء بحق يا بينچي، أم أنك تتظاهر بذلك؟

قال بيچي :

تهمني بالتأكيد، ولكن لا تنسى أنهم هنا في هذا العالم، وهذا معناه أن الأمر لا يحتاج إلى جسر يلفه الضباب لأصل إليهم، وإنما مجرد بذل بعض المجهود، مع نشرة إخبارية بأوصافهم، وبحث من عناصر الشرطة، ثم تصبح مسألة وقت قبل أن أصل إليهم، خاصة وأنهم بالتأكيد في منطقة قريبة منا في نيويورك .

صمت ماسا باديا على وجهه الضيق، فمنحه بينچي ابتسامة ساخرة ثم غادر المكان كله، تاركا الثلاثة خلفه يستشيطون غضبا وسخطا وأسى .

لم يسعى بينچي للبحث عن أسرته كما قال لماسا، كان ذلك سيستغرق منه وقتا طويلا، كل مافعله أنه ظهر في برنامج تلفزيوني متحدثا عن قيمة تجاربه العلمية وفائدته بالنسبة للعالم بأسره، ثم ختم البرنامج التليفزيون عندما أملى عنوان منزله بالتفصيل، كان يهدف من وراء ذلك إلى أن يوفر الوقت والجهد، وأن يجعل زوجته هي من تسعى إليه وليس العكس، مشكلة هذه الخطة أن تفوت زوجته مشاهدة ذلك البرنامج، أو أنها ربما لا تملك تلفاز من الأساس، عاد إلى منزله وانتظر، آملا أن تشاهد زوجته البرنامج فتأتي إليه، لكنه يخشى في الوقت نفسه

ردة فعلها العنيفة القاسية، وهذا طبيعي بالنسبة لزوجة هجرها زوجها وترك عالمه كله خلفه، وذهب لعالم آخر دون أن يفكر في العودة لأسرته مدة خمس سنوات كاملة، وكل ذلك من أجل تحقيق إنجازه العلمي.

طرق أحدهم باب منزله بطريقة لم ينسها أبدا، خفق قلبه بعنف، ثم هرع نحو الباب وهو يخشى من وطأة المواجهة، طالعته زوجته وابنيه ينتظرون في ترقب، ما إن رأوه أمامهم حتى بكوا من الفرحة، تلقف بينچي ولديه بين أحضانه في لهفة، ثم غمر وجوههم وجباههم وخدودهم بقبلات حارة، تأمل وجوههم وملامحهم التي نضجت بفعل خمس سنوات كاملة، ذرفت عيناه الدموع الساخنة وهو يحتضنهم بقوة رابتا على ظهورهم بحنان جارف، ثم قال في سعادة وهو يتطلع إلى وجوههم :

ما إن رأيتكم حتى انجاب عني الكدر والحزن لفراقكم .

ثم هب واقفا وراح يقترب بحذر من زوجته التي وقفت تطلع إليه في صمت، تأمل ملامحها التي علاها الحزن وامتلأت بقسوة الحياة، قرب وجهه من وجهها في اشتياق بالغ، كاد وجهه يلامس وجهها، لولا لطمة عنيفة قاسية مباغتة هبطت على خده الأيسر فرجّت دماغه رجا، تراجع بينچي برأسه في حدة وهو يحملق في وجه زوجته، كان وجهها كتلة من الغضب والكراهية والأسى، اقتربت منه وهي تهتف صارخة :

أنت أقذر رجل عرفه العالم في تاريخه كله، لم أصدق حينما أبلغني بينچي الآخر بأمرك، لكني تذكرت لهفتك لإكمال مشروعك وغيابك الطويل فصدقته دون ريبة.

صدحت كارول بعبارتها ثم راحت دموعها تنهمر في صمت، كان يقطع صمتها إجهاشها المتقطع، هم بينچي بالإقتراب منها لكنها استوقفته بإشارة صارمة من يدها قائلة:

إياك أن تعتقد أن الأمور ستعود كما كانت عليه قبل أن تتركنا وترحل.

أسرع بينچي يقول مدافعا عن نفسه :

لا تظلميني يا حبيبتي، لم يكن هجركم أمر وارد في بالي مطلقا، لكن لم يسمح لي ماسا بالعودة مرة أخرى.

هتفت كارول :

أنت كاذب، لقد حاول ماسا إعادتك إلى عالمك أكثر من مرة لكن دون جدوى، وفي المرة الأخيرة خدعته وأرسلت معه نظيرك بدلا منك.

لم يجد بينچي ما ينطق به فسكت، لكن ذلك لم يعجب زوجته فصرخت فيه غاضبة :

تكلم، لماذا أنت ساكت، ألست أنت الذكي الألمعي الذي لا يداهيك في الذكاء إنسان؟

احتواها بين ذراعيه في لهفة، لكنها راحت تضربه في كل مكان تطاله يدها بعنف شديد، حاول كفها فعجز، فلطمها على وجهها لطمة قاسية جعلتها تترنح من شدة الضربة، تطلعت إلى وجهه ذاهلة، فاحتضنها بقوة ثم همس في أذنيها :

لقد جمع القدر بيننا بمعجزة لم أتخيل حدوثها، وأعلم أنك غاضبة مني وتتهمينني بكل شيء بشع في خيالك، لكن لنرمي كل ما حدث خلف ظهورنا، ولنبدأ صفحة جديدة خالية من المنغصات.

حدجته بنظرة غاضبة ثم قالت :

أريد أن أعود مع أطفالي إلى عالمنا الآن.

قال في اقتضاب :

لم يحن الوقت بعد.

صرخت :

ماذا تقصد؟

قال وهو يبتعد عنها، ثم يأخذ بيدي ولديه ويجلسهما بجواره على الأريكة الواسعة :

أعني أن الوقت لم يحن للعودة إلى عالمنا المألوف بعد.

هتفت في اعتراض :

امكث هنا في هذا العالم كما تشاء، ولكننا سنعود الآن.

سألها في نبرة باردة :

وكيف ستعودين؟

سيعيدني ماسا كما وعدني.

مط شفتيه مفتعلا الأسف قائلا :

ماسا للأسف مسجون الآن بتهمة إتلاف محتويات مطعم وضرب موظفيه.

صدمها ما قاله، فسكتت لوهلة ثم هتفت :

أنت وراء هذه التهمة، أليس كذلك؟

أومأ برأسه نفيا وهو يلاعب ولديه قائلا :

كلا أقسم لك، لقد أراد مع صديقيه إعادتي إلى عالمي بالقوة فتصدى له الرجال هناك، لكنهم تعاملوا مع الرجال في المطعم بعنف بالغ، فقبضت عليهم الشرطة ثم زجوا بهم جميعا في السجن، وهم الآن في انتظار المحاكمة.

شهقت كارول مصدومة، ثم قالت في انهيار :

هل تعني أننا سنظل هنا إلى الأبد؟

هز رأسه نفيا ثم قال :

كلا، بمجرد أن أنتهي من مشروعي العلمي سنعود إلى عالمنا المحبوب مباشرة.

تمتمت في صوت خفيض:

ومتى تنتهي من مشروعك هذا؟

مط شفتيه ولوح بيديه قائلا :

لا أدري، ربما عام أو أكثر، لكني سأنتهي منه يوما ما، أعدك بذلك.

حملقت في وجهه طويلا، ثم سألته :

إذن نحن مسجونون هنا حتى تنتهي من تحقيق أحلامك الزائفة، أليس كذلك؟

هز رأسه نفيا وهو يهب واقفا ثم قال :

كلا يا عزيزتي، لستم مسجونون، وليست أحلامي زائفة.

سألته في قلق بالغ :

وماذا سيحدث لماسا وبينچي وصديقه الثالث؟

قال في لامبالاة :

هذا شيء سيبت فيه القاضي بنفسه وليس أنا.

قالت في نبرة صارمة :

إذا أردتني أن أمكث معك هنا فأخرجهم من السجن، ودع بينچي يعود لأسرته، واترك ماسا وصاحبه يعودان لعالمهما.

أطلق بينچي ضحكة هازئة ثم قال :

قلت لك أن الأمر ليس بيدي، ثم إن هؤلاء الثلاثة لا ينفكون عن محاولة الإنتقام مني وإعادتي إلى عالمي بالقوة.

قالت كارول في إصرار :

هذا هو شرطي الوحيد إذا أردت أن أعيش معك.

التفت بينچي ينظر إلى أطفاله في حب، ثم التفت إليها مرة أخرى وقال باسما :

هل تهددينني بنزع أولادي مني بعد أن عادوا إلى أبيهم.

لم تنبس بكلمة وإن بدا على وجهها الحزم والإصرار، فأردف بينچي قائلا :

يبدو أنك لا تفهمين الوضع على حقيقته، بالنسبة لأولادي فلن يذهبوا إلى مكان آخر غير بيت أبيهم، وأنت لكِ الحق في الذهاب إلى أي مكان تشائين، وبالنسبة لماسا وصديقه الوسيمبي حراس العالم كما يسمون أنفسهم، فسيقضون في السجن فترة عقوبة تصل إلى عشرون عاما، وهذا أفضل حل لنا جميعا، فهم لا ييأسون من محاولة إعادتي طبقا لقوانينهم الغبية، أما بالنسبة لنظيري هذا، فهو قد حاول قتلي قبل أن يسبب لي جروحا وآلاما لاحصر لها، لذا هو يستحق ما سيحكم به القاضي، وسيبقى الوضع على ما هو عليه حتى تنقضي مدتهم، هذا أفضل للجميع.

ألجم الذهول لسانها، في حين عاد بينچي إلى ولديه يلاعبهما ويمازحهما، كأن ليس هناك ما يشغله في هذه الحياة، سوى أسرته.

****

عام ٢٠١٢ ميلادي.

مضى (سامي فريد) حاملا فنجان قهوته إلى نافذة مفتوحة على مصراعيها ثم جلس أمامها، كانت تلك النافذة هي طريقته للهروب دائما حين ينوي الفرار من

مشاعره، حيثُ كان الملل يصيبه بقسوة شديدة في أعماقه الهشة فيطرحه جسدا عليلا لا حياة فيه، لم يشعر بمثل هذا الملل من قبل قط، على الرغم من كل ما يملكه سامي من مال وثراء، يتمثل في بيت كبير فخم تحوطه حديقة كبيرة، وسيارتين حديثتين تقفان في المرآب الكبير، تنتظران أن يستقل أحدهما للسير في شوارع القاهرة، أو للسفر إلى الأسكندرية في أشهر الصيف، كانت تلك المحافظة الساحلية هي المفضلة لديه للهروب من حالة الخمول الذي يجتاحه بين الحين والآخر، والملل الذي يعضه بأنيابه الحادة كل فترة قصيرة، وكان ينجح دائما في التخلص من عضة الملل مع قضائه عدة أيام على شواطئ الإسكندرية في الصيف، أو بالسير عبر طرقات القاهرة وتأمل رذاذ المطر المتساقط من خلف زجاج السيارة في الشتاء، لكن هذه المرة يبدوا الأمر مختلفا للغاية، فجرعة الملل تبدو تلك المرة أكبر من المعتاد، ولم تجنح نفسه للسفر إلى مدينته المفضلة، ولا حتى إلى روما التي يميل إلى السفر إليها مرة كل عدة أعوام، راح يفكر في مكان جديد لم يذهب إليه من قبل، لقد سافر إلى روما وباريس ولندن وبرلين ونيويورك، كما سافر إلى عواصم عربية عديدة، لكنه يريد هذه المرة شيئا يختلف مذاقه كليا عما اعتاده. لم يكن يشعر بأدنى شعور بالملل في العام المنصرم، عندما كان يشارك في أحداث ثورة يناير بروحه وقلبه وكيانه، أحس لأول مرة أن لحياته معنى كبيرا لم يدركه من قبل قط، بل ولم يظن أن حياته ستكون لها هذه الأهمية، حينما راح يسير وسط المتظاهرين شاعرا بسعادة غامرة لم يشعر بمثلها من قبل قط، عرف حينها معنى أن يكون لديه هدف يعيش لأجله، معنى يغلف حياته بغلاف من نور، طريق مضيء يسير فيه بعد الظلام الذي كان يسبح فيه طيلة السنوات الفائتة، ظلام غياب المعنى والإحساس بالملل. كان شعور بعض المتظاهرين هو الخوف، وشعوره هو الشغف، لكن لم يدم هذا الشعور طويلا، فقد انتهت أيام الثورة، وتنحى الرئيس والحكومة، واستقرت الأوضاع جزئيا، وعاد الملل، وعاد يبحث عن وسيلة تعيد له شغفه وتقتل مللة العتيد، فراح يفكر في السفر من جديد، لكن إلى أين؟ هذا ما كان يبحث عنه في حيرة تمتزج بالسخط، مرت الساعات وهو يبحث بفكره عن مكان في هذا العالم، لديه القدرة على هزيمة ذلك الملل الذي يتشبث به كطفيل عنيد، ومحوه من أعماقه، دون جدوى، بدا في عينيه ذلك العالم كمنزل كبير له عدة غرف متشابهة حد الإستنساخ. أشعل سيجارا كوبيا نفثه في عمق وكثافة، وهو يغوص بقامته الطويلة في المقعد الكبير الوثير، تأمل الدخان الذي يتصاعد من بين شفتيه وفتحتي أنفه دون استمتاع، إنه يعلم يقينا سر ذلك الملل الذي يرافقه منذ سنوات ليست بالقليلة، وهذا طبيعي لمن يعيش وحيدا دون زوجة أو ولد، كان يرفض ذلك الأمر بعناد شديد، بالرغم من إلحاح أمه وأختيه عليه ليتزوج وينجب، كان قد أخذ على نفسه عهدا لا يقطعه حتى يموت، بعدم

الزواج من فتاة غير التي أحب، تلك الفتاة التي رفضه أبوها بسبب فقره وبساطة حاله، لم يستمع لوعوده بأنه سيحقق ما يطمح إليه في القريب، سد أذنيه عن سماع توسلاته العديدة بإعطائه فرصة لتحقيق أماله العريضة، طلب منه والدها أن يذهب ولا يعود، وأن ينساها للأبد، حينها غادر سامي منزل حبيبته وقد اسودت الدنيا أمام عينيه المغرورقتان بالدموع الكثيفة، لكنها كانت آخر دموع بكاها في حياته على الإطلاق، حتى عندما علم بزواجها من ذلك الشاب الثري الذي يعمل في قطر، لم يسح من أجلها دمعة واحدة، بل إنه لم يتفاعل كما يجب مع الخبر القاسي، كأنما لم يعد الأمر يعنيه، أو هكذا تظاهر، ثم سعى في تحقيق حلمه في الثراء الواسع دون هوادة، ولم تمض عدة سنوات من العمل المتواصل، حتى كان صاحب تجارة واسعة، وافتتح شركة لتصدير الفواكه والخضروات إلى أوروبا، و بقي على ذلك الحال عدة سنوات، حتى هاجمه ملل قاتل ذو أنياب حادة كاد يقضي عليه، ظن في بداية الأمر أنه بإمكانه التغلب عليه وهزيمته في معركة سريعة خاطفة، لكن شيئا فشيئا تيقن من صعوبة تحقيق ذلك الأمر، خاصة وأنه ما يزال يعيش وحيدا دون رفيق، على الرغم من أنه بإمكانه العيش مع أمه وشقيقتيه في المنزل الكبير، إلا أنه كان لسبب ما يفضل الخلوة والوحدة، منذ كان صغيرا يحب أن يختلي بنفسه ويشعر بخصوصيته، لكن الإحساس بالملل تضاعفت قسوته، وبدأ سامي يرزح تحت وطأة ضرباته التي لا ترحم روحه، فشرع يتعامل معه على أساس ترويضه، لكن حتى ترويضه لم يكن بتلك البساطة التي تصورها، حتى وصل به الأمر إلى محاولة العيش معه في سلام، لكن ذلك الملل اللعين كان يأبى إلا أن يأخذ بخناقه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأخيرا أعلن سامي الإستسلام التام غير المشروط بعد عدة سنوات من القتال والهزيمة، ولم يكن أمامه سوى حل من اثنين، إما أن يتزوج وينجب أطفال تذهب عنه الوحدة وقسوة الملل، وإما أن ينتحر ويتخلص من عذابه وآلامه للأبد، ولما كان الحل الأول حلا مستحيلا في نظره، قرر اللجوأ إلى الحل الثاني الذي كان يراه حلا أسهل، الإنتحار، لكن في اللحظة الأخيرة، وعندما رفع مسدسه نحو رأسه، ثم جذب زناد مسدسه، جذب معه زناد فكره، فقرر أن يمنح نفسه مهلة للتفكير في حل ثالث، حل ربما لم يفكر فيه من قبل، وضع مسدسه أمامه على الطاولة، ثم جلس يفكر في طريقة تنجح في هزيمة غريمه اللعين، وتمحو من عقله فكرة الإنتحار كسبيل للنجاة من شقائه، لمعت في ذهنه فكرة مباغتة فسأل نفسه في حيرة: لماذا لم يفكر في الذهاب إلى إحدى الدول الأفريقية الحارة والعيش هناك لفترة؟ لم يفكر في الذهاب إلى هناك من قبل، انحصر فكره في السفر إلى الدول الأوروبية والإستمتاع بتقدمها وحضارتها، تسائل مرة أخرى في حماس: ربما يكون في تخلف تلك الدول تكنولوچيا وتأخرها عن ركب الحضارة العلاج الناجع لبلائه؟ ربما، ولما لا، اشتعل

الحماس في جسده على نحو لم يعهده في نفسه منذ أحداث ثورة يناير، هب واقفا في نشاط جم ثم التقط هاتفه قائلا :

فاروق، سأسافر إلى إحدى الدول الأفريقية في صباح الغد، الرجاء الإهتمام بالبضاعة التي سنصدرها إلى إيطاليا بعد يومين من الآن، لا تتصل بي إلا للضرورة.

أغلق هاتفه دون أن يهتم بتفسير ذلك القرار المباغت لمساعده، ثم هرع من فوره إلى غرفة نومه ليعد حقيبة سفره التي صاحبته في سفرياته العديدة، أنزل حقيبته من سقف صندوق الملابس ثم وضعها على الفراش، فتحها عن آخرها وبدأ يضع بها ملابس ملائمة للسفر إلى إفريقيا في طقس الصيف شديد الحرارة، كان يعلم كم ستبلغ درجات الحرارة هناك في تلك الفترة، لكن ذلك لم يفت في عضده بل على العكس، نفث في روحه الحماس للتجربة الجديدة، وضع ملابسه حتى امتلأت الحقيبة عن آخرها، أغلق سحابتها بصعوبة ثم تأمل الحقيبة متمتما:

ستصحبينني في رحلة ممتعة ولكن ليس إلى أوروبا والأجواء الباردة هذه المرة، بل إلى أفريقيا وأجوائها الحارة حد الغليان، أرجوا أن تتحملي تلك الأجواء، فأنا لا أريد أن استبدلك بأخرى لم آلفها من قبل.

أنهى عبارته ثم وضع قبلة حانية على جسد الحقيبة الجلدي ذو اللون البني المحروق، ثم أرخى جسده على الفراش بجوار حقيبته وهو يمني النفس برحلة ممتعة مثيرة، تذهب عنه كل ما يجد من سآمة وملل. لم يكن سامي يأمل أن تجتاز تلك الرحلة رحلاته السابقة المعتادة، ماعدا الجو الحار، وأحراش السافانا، وحيوانات إفريقيا المذهلة التي ليس لها مثيل في العالم بأكمله، لم يتخيل للحظة، أنها ستجتاز كل ما تمناه طيلة حياته، وأنها ستذبح إحساسه بالملل ثم تفصد دمه، فلا يقوم له قائمة بعدها.

****

استيقظ سامي في الصباح الباكر شاعرا بنشاط جم، على الرغم من أنه لم ينم سوى ثلاث ساعات فقط، بسبب ذهنه المشغول بالسفر حتى النخاع، لم يكن في ذهنه دولة بعينها للسفر إليها، فقد كانت الدول الأفريقية بالنسبة إليه متشابهة في كل شيء، لون البشرة والطقس الحار والأسماء الغريبة، لاسيما أنه لم يكن لديه من المعلومات عن قارة أفريقيا إلا ما رسب في ذهنه منذ المرحلة الثانوية، لذا لم تكن الدولة الذي يود السفر إليها تصنع فارقا حقيقيا، أو تشكل عقبة في اختياراته. تصفح هاتفه باحثا عن الرحلات الذاهبة إلى إفريقيا، عازما على أخذ أول رحلة

ذاهبة إلى القارة السوداء، طالعه اسم أوغندا يبرق من بين الدول الإفريقية، مط شفتيه قائلا في لامبالة : وما الفارق بين أوغندا أو كينيا أو حتى زائير؟

جهز أوراق سفره آملا أن يجد مقعدا فارغا على متن الرحلة الذاهبة إلى أوغندا، ما إن فحص جميع أوراقه وتأكد من عدم نسيان شيء، حتى انطلق إلى المطار كي يلحق بالطائرة التي ستطير بعد ساعة واحدة، دلف بحقيبته الثقيلة ثم توقف أمام ضابط الجوازات قائلا:

أريد حجز مقعد على الطائرة الذاهبة إلى أوغندا بعد ساعتين من الآن .

تطلع الرجل إلى القائمة الموجودة أمامه للحظات، ثم هز رأسه نفيا وقال :

معذرة، لا يوجد مقاعد فارغة في الطائرة الذاهبة إلى أوغندا .

اكفهر وجه سامي وهو يستمع لتلك العبارة مقيتة الصدى في أذنيه، ثم سأله متلهفا :

هل يوجد طائرات ذاهبة لأي دولة أفريقية اليوم؟

أشار الضابط إلى لوحة الإستعلامات وهو يقول:

ليس اليوم للأسف.

تطلع سامي إلى اللوحة المضيئة ثم لاح في وجهه الغضب، حينما لم يجد رحلات إلى أفريقيا قبل الغد، كاد يغادر آسفا لولا أن استوقفه الضابط قائلا بابتسامة واسعة :

يبدو أنك محظوظ بالفعل، لقد اعتذر توا أحد الركاب عن السفر وأصبح هناك مقعدا فارغا.

لاحت في وجه سامي دهشة فرحة، ثم عبثت يده في جيوبه وهو يحاول إخراج جواز سفره من جيب سترته الداخلي، ثم أعطاه إلى ضابط الجوازات الذي ألقى نظرة سريعة عليه قبل أن يضع عليه ختم السفر، أطلق سامي تنهيدة حارة، شاعرا بارتياح غامر وهو يجلس على أحد المقاعد البلاستيكية، منتظرا السماح له بركوب الطائرة التي ستقلع خلال ساعة ونصف، وهو يمني النفس رحلة سعيدة تحتوي على إثارة بالغة. بدأ النداء لتنبيه الركاب بأخذ أماكنهم على متن الطائرة المتجهة إلى دولة أوغندا، وهنا التقط سامي حقيبته ثم هرع إلى الطائرة في سرعة، فبدا كمسافر متلهف لتجربة ركوب الطائرة لأول مرة، أقلعت الطائرة وزاد

معه إحساس الإثارة والشغف، راح يتسائل وهو ينظر عبر النافذة : هل ستنجح تلك الرحلة في هزيمة إحساسه بالملل الرهيب؟ هل ستجلب له متعة حقيقية تمنحه حب الحياة من جديد؟ أم أن تلك الرحلة الأولى له صوب قارة إفريقيا، لن تكون مختلفة أيما اختلاف عن رحلاته السابقة؟ قرأ عن مغامرات الأدغال في أوغندا والمتعة الحقيقية التي يلقاها السائح هناك، لكنه لم يتيقن بعد من قدرة تلك الأدغال على دحض مشاعره التي تتخم بالملل والمشاعر السلبية الكئيبة، استمرت رحلته نحو خمس ساعات كاملة، قبل أن تحط الطائرة عجلاتها في مطار عنتيبي، الذي يبعد حوالي ستة كيلومترات فقط عن وسط المدينة. بعد أن أنهى سامي إجراءات الوصول فضل استئجار سيارة خاصة من مكتب شركة (يوربكار) الموجود في المطار نفسه، استقل سيارته نحو وسط المدينة، دون أن يدرك مدى الإزدحام المروري الخانق الذي تعج به المدينة نتيجة عدم وجود كباري أو أنفاق، قضى أكثر من ثلاث ساعات لقطع مسافة قدرها اثني عشر كيلو مترا فقط، لكن لم يكن أمامه سوى الصبر، أو ترك سيارته وأخذ (موتوسيكل تاكسي) الذي يستطيع التعامل مع الحركة المرورية الخانقة على نحو أفضل، لم يأخذ سامي وقتا طويلا للتفكير في الأمر، ترك سيارته جانبا بعد أن أبلغ الشركة لإرسال أحد موظفيها لاستلامها، ثم ركب خلف السائق وأدلى إليه بالعنوان، لم تمض نصف ساعة ومع مهارة السائق وخبرته استطاع الوصول إلى العنوان المطلوب، نقده أجره ثم اتجه إلى إحدى شركات السياحة للإتفاق على برنامج سياحي مثير، وبعد عدة دقائق أخرى رحل مع أحد المرشدين السياحيين لبدأ رحلة سياحية من المفترض أن تكون ممتعة وفريدة. أشار عليه المرشد السياحي (اناكندا) أن يبدأ برنامجه بالذهاب إلى بحيرة فكتوريا والتمتع بالمناطر الخلابة هناك، انطلقا بسيارة جيب رباعي قديمة الطراز عبر شوارع العاصمة كمبالا، والتي تضج بالإزدحام بشكل أضاع عليهما الكثير من الوقت، لكن لفت نظره المناظر الخلابة العديدة، والبيوت المنتشرة على تلاله المكسوة بالخضرة، استمتع بالمناطر الطبيعية كثيرا خاصة تلك التي تنتشر حول بحيرة فكتوريا الجميلة، لكنه لم يستطع إمتاع عينيه بتلك المناظر نفسها مع حلول الليل، بسبب عدم تزويد الطرق بإضاءة ليلية، ومع حلول الظلام تبددت طاقتيهما وجنحا للراحة، فأشار اناكندا بأن يبيتا ليلتهما في أحد الفنادق البسيطة، ثم يكملون برنامجهم السياحي في الصباح الباكر. أذعن سامي على الفور لتلك النصيحة، فقد كان يحتاج بالفعل إلى راحة عميقة بعد قضاء يوم شاق وطويل، إما في محاولة اختراق الزحام الهائل، أو السير على الأقدام حول بحيرة فكتوريا وتأمل المناظر الخلابة حولها.

****

استيقظ سامي في السابعة والنصف من صباح اليوم التالي، كان صوت شخير (انكاندا)_ الذي ينام في فراش مجاور لفراشه_ يثير عاصفة من الضوضاء، حتى أنه تسائل في دهشة: كيف نام لست ساعات متواصلة بجانب تلك السرينة المزعجة! لكنه لم يشأ إيقاظه في الحال، بالرغم من إحساسه بالغيظ نتيجة شخيره الذي يهدر كمحرك تالف لسيارة نقل قديمة الطراز، أخذ منشفة و ذهب ليأخذ حماما باردا ليطرد من جسده بقايا تعب اليوم السابق، والحرارة التي تسللت إلى داخل خلاياه دون أن تغادره، مكث تحت شلال الماء البارد نصف ساعة كاملة حتى شعر أن جسده استعاد طاقته كلها، ثم جفف جسده وارتدى ملابسه عازما على ألا يضيع وقتا إضافيا، أيقظ انكاندا من سباته العميق، ما إن فتح اناكندا عينيه حتى توقف صوت الهدير المزعج على الفور، كانت الساعة قد تخطت الثامنة بقليل، فذهب اناكاندا ليأخذ حماما باردا بدوره، ثم تناولوا إفطارا مكونا من بيض وجبن وقطعة زبدة، أنهى سامي إفطاره بعد عشر دقائق من بدء تناوله، ثم راح يحتسي قهوة الصباح في استمتاع، في حين استمر اناكندا في تناول الطعام لبعض الوقت، قبل أن يصبح جاهزا ليصطحب السائح المصري عبر شوارع جديدة لم يجربها بالأمس، وعلى مدى أسبوعا كاملا زار سامي الأدغال عبر سيارة معدة خصيصا للسير خلالها، واستمتع بالتطلع إلى حيوانات الأدغال المتنوعة والفريدة وجها لوجه، ونظر عن قرب إلى الحياة البرية الرائعة، زار كثيرا من المقاهي الأوروبية والأمريكية التي تنتشر عبر العاصمة الأفريقية، وزار الشلالات والمعالم السياحية والحدائق الوطنية، وتمتع كثيرا بأخلاق الشعب الأوغندي ووصفهم بأصحاب القلوب البيضاء، انتهى الأسبوع في سرعة، ولكن اناكندا لاحظ أن وجه سامي بدأ يخفت منه الحماس الذي كان يبدو عليه عندما رآه أول مرة، سأله وهو يبتسم ابتسامة واسعة ودودة، وبلغة إنجليزية بسيطة:

هل تسمح لي يا سيد (سامي) أن أسألك سؤالا يلح على ذهني بقوة؟

أذن له سامي بإيماءة قصيرة من رأسه، فاستطرد الرجل :

مالي أرى على وجهك علامات الحزن بادية بعد أن كان يمتلأ حماسا وشغفا، هل لهذا علاقة بفشل برنامجك السياحي هنا؟

هز سمير رأسه نفيا، ثم قال :

كلا، لقد قضيتُ أجمل سبعة أيام في حياتي كلها، ولكن هكذا الأيام الجميلة تنتهي سريعا.

سأله انكاندا في حماس :

هل تحب قضاء وقت أطول إن لم يكن لديك أعمال متوقفة هناك في مصر؟

سأله سامي في شغف :

هل ما زال هناك أماكن لم نزرها في الأيام السابقة؟

قال انكاندا :

كلا للأسف، لقد زرنا كل الأماكن الهامة في طول البلاد وعرضها، ولا تنسى أن أوغاندا بلدة صغيرة بالمقارنة بمصر، وكثير من البلدان الأخرى الكبيرة.

التزم سامي الصمت، تأمله انكاندا لوهلة ثم قال :

لكني أود معرفة سر ذلك التغير الذي طرأ عليك بمجرد انتهاء برنامجك السياحي، لقد كنت مفعم بالحماس والحيوية بطريقة لم أجربها مع سائح آخر، ترى ماهو سبب ذلك؟ فأنا أخشى صراحة أن أكون أنا السبب.

ابتسم سامي وهو يربت على كتف اناكاندا قائلا في ود:

كلا بالتأكيد، أنت مرشد سياحي بارع، تحب مهنتك وتتقنها بطريقة أثارت إعجابي للغاية.

ظهر على وجه اناكندا عدم الإرتياح للإجابة، وبدا له سامي كمجامل ومتصنع للإبتسامة التي تزين وجهه على استحياء، سأله اناكندا في ود:

هل تعاني من الملل والرتابة في حياتك فجئت إلى هنا لتبددها؟

بالرغم من دهشة سامي إلا أنه أحس بالسعادة عندما أدرك اناكندا ما يعانيه بدقة، لم يجد بدا من بث شكواه لذلك الأفريقي، خاصة وأنه قد أحس نحوه بمشاعر من المودة والإطمئنان، فقال في ارتياح :

هو كما تقول يا صديقي، أنا أشعر منذ زمن بعيد بملل قاتل يراودني عن نفسي أحيانا، وأحيانا يريد قتلي وجز عنقي بلا رحمة، أحاول ممالئته وملاطفته بالسفر عبر بلاد مختلفة لكن دون جدوى، وعندما خطر لي أنني لم آتي إلى تلك القارة الرائعة من قبل قط، خيل لي أنني ربما أجد مبتغايا في تلك البلاد الرائعة.

تأمله اناكندا بعينيه التي تشتعل ببريق أخاذ، ثم سأله في نبرة جادة مباغتة :

أخبرني يا أستاذ سامي، ماهو أكثر شيء جذبك للمجيء إلى هنا؟ أخبرني دون التفاف أو مجاملة.

بدا على وجه سامي التردد لبرهة، ثم قال في صوت خافت بعد أن التقط نفسا عميقا :

السحر هو ما جذبني للمجيء إلى تلك القارة السمراء، وإلى هذه البلدة بالذات.

لاح في وجه المرشد الأوغندي الإرتياح والسعادة التي أنارت وجهه الغامق، ثم أطلق ضحكة طويلة أثارت خجل سامي وحيرته، لكن اناكندا بدد تلك المشاعر التي ظهرت على وجه سامي حين ربت على كتفه بقوة، ثم قال بعد ابتسامة متلئلئة :

يسعدني أن أخدمك في الوصول إلى مرادك أيها المصري.

تسائل سامي بعد تردد :

هل تعني أنك تستطيع مساعدتي في...

بتر عبارته بعد أن شعر بالخجل، هز اناكندا رأسه إيجابا في قوة، ثم قال:

بالتأكيد أيها المصري، أنا قادر على إيصالك برجل قادر على أن يريك مالم تره عينك أو يتخيله عقلك.

عبارته الأخيرة جعلت جسد سامي يشتعل حماسا وإثارة، حدث نفسه أنه أخيرا وجد مبتغاه الذي ظنه مستحيل الوصول إليه، كان دائما يخشى من الإقتراب من تلك الدائرة الغامضة المثيرة، دائرة السحر، يعتقد اعتقادا جازما أن الإقتراب من تلك الدائرة أمر محظور حدوثه، بل ربما تكون نهايته حين يقترب منها، لهذا لم يجرب التعامل مع السحرة والمشعوذين أبدا، وإن كان في داخله يتمنى حدوث ذلك، التفت إلى الأفريقي يسأله في لهفة:

هل تعني ما تقول حقا يا اناكندا؟

قال الأفريقي :

ما سأطلعك عليه لم يره إلا عدد محدود من الناس.

هتف سامي متلهفا مشتاقا:

لهذه الدرجة!

قال اناكندا في بساطة عجيبة:

ذلك السر لا يطلع عليه سوى أشخاصا محدودين للغاية، شريطة أن يتوفر فيهم التكتم، الطاعة، عدم إثارة المشاكل، والشغف للسفر، والترحال إلى أي مكان بغية الإكتشاف والسعي للإثارة، وهذه كلها أمور تتوفر فيك.

قال سامي وعلى ملامحه تبدو الدهشة كبيرة وواضحة :

لقد أثرت مخيلتي إلى درجة لم يسبق لها مثيل يا اناكندا، وأرجوا ألا تخيب ظني عندما أقابل ذلك الرجل فأصاب بسكتة قلبية.

قال اناكندا بثقة :

لا لن يخيب ظنك أبدا، سأفي بوعدي لك مهما كلفني ذلك غاليا.

قال المصري في حماس :

لا تحمل هم المال، لدي ما يكفي لتلك الرحلة وزيادة.

قال انكاندا :

المشكلة ليست في المال، فتلك الرحلة لا تحتاج للمال بقدر ما تحتاج للثقة.

أسرع سامي يجيب حائرا :

ألم تقل أنك تثق في؟

هز اناكندا رأسه نفيا مرة أخرى وقال :

لستُ أنا من أحتاج لأثق بك، بل الرجل الآخر هو من يجب أن يثق بك ويطمئن لك، وهو من النادر أن يمنح ثقته لأحد .

بدا على وجه سامي الحيرة والقلق، لكن أناكندا قال :

لا داعي للقلق يا رجل، سأزكيك عنده وسيوافق على منحك السر على الفور .

****

على مدى ثلاث ساعات متواصلة، سار سامي وصديقه عبر شوارع العاصمة (عنتيبي) من شرقها حتى وصلا إلى جنوبها، وهناك توقفا بالسيارة أمام منزل كبير مطلي باللون الأبيض، يقف منفردا في الساحة الكبيرة بحجمه الكبير وطلته المتفردة، حيثُ يطل شامخا على البيوت الصغيرة المبعثرة من حوله كأنهم جنوده الأوفياء، كان منظره يثير في نفس سامي مع ما حكاه له اناكندا الخوف والرهبة،

حيثُ راح يحكى له طوال الطريق من الفندق إلى هنا، أن الكاهن (ماسا)_ ذلك الرجل العجوز الذي يبلغ من العمر ثمانون عاما ونيف_ يتمتع بصحة جيدة تجعل من العسير على أي شخص تصديق أنه تجاوز الثمانين من عمره، ربما شعره الذي اشتعل شيبا، ووجهه المتغضن هو ما يجعل المرأ يدرك أنه قد بلغ من الكبر عتيا. حكى له أنه رجل يبدو مستريبا شكاكا غريب الأطوار، لكنه طيب القلب، يتعامل بالود مع الجميع، لكن دون أن يمنح ثقته لأحد إلا نادرا، وعندما سأله سامي عن سبب ريبته في الناس، أخبره اناكندا أن الأمر يتعلق بتجربة مريرة له مع رجل أمريكي، أخبره أيضا أن الكاهن ماسا يبغض الكذب، بل إنه يفقد الثقة على الفور إذا ما تفوه أحدهم بكذبة واحدة، حذره أيضا من الخداع وإلا سيكون جزاؤه أن يطرده، وبالتالي يفقد فرصته في خوض تلك الرحلة العجيبة الفريدة، التي لم يخبره اناكندا بتفاصيلها بعد، أخبره أيضا أن الكاهن ماسا سيسأله أسألة شخصية وعليه أن يجيب بصدق، فاعترض سامي قائلا :

أنا لا أقبل أن يتعرف أحد على أسراري الشخصية، مهما كانت قيمة ما سأجنيه من جراء ذلك.

قال اناكندا ينصحه :

ما ستجنيه ليس مال يا رجل، بل عالم آخر، عالم مليء بالإثارة والغرابة بشكل قادر على أن يمحو ذلك الملل الذي تشعر به للأبد.

كان ذلك الإغراء أكثر من قدرته على التحمل، حتى لو كان على حساب التدخل ببجاحة في حياته الشخصية، لهذا أومأ برأسه في إذعان وخضوع يخالف طبيعته الثائرة العنيدة، لا سيما أن ما سيحصل عليه هو ما كان يبحث عنه منذ سنوات طويلة.

ظل سامي صامتا خلف عجلة القيادة كتمثال من المرمر، أخرجه من سباته صوت اناكندا الذي سأله :

هل أنت مستعد لخوض أعظم تجربة خاضها انسان في التاريخ كله؟

التفت إليه سامي سابرا أغواره في صمت، لسبب ما ظن أنه يخدعه أو يلعب به، لكنه عندما تأمل ملامح وجهه تيقن من صدق كلامه، فتلك الملامح وذلك الوجه أبعد ما يكون عن الخداع والكذب، أومأ برأسه إيجابا مرة أخرى في توتر، وهو يحاول تخيل ذلك العالم الذي يتحدث عنه اناكندا في شغف.

قال (اناكندا) وهو يترجل من السيارة :

نسيتُ أن أخبرك شيئا بالغ الأهمية، لا تنعته بالساحر أبدا، فهو لا يحب ذلك اللقب أبدا على الرغم من أنه كبير السحرة، ادعوه بالكاهن ماسا.

قال (سامي) وهو يترجل من السيارة في استنكر :

لا يحب لقب ساحر وهو. نفسه كبير السحرة، كيف ذلك !

لم يجب اناكندا تساؤله المستنكر وهو يصعد درجات السلم نحو الباب الكبير، تبعه(سامي) في خوف وترقب، صاعدا الدرجات السبعة التي تفصل بينه وبين ذلك الساحر العجوز، (ماسا.)

****

سبع طرقات قوية سقطت على باب الكاهن ماسا، ثم رفع اناكندا يده و انتظر في سكون، ضرب الصمت بأطنابه المكان دون أن يجرأ سامي أن يسئله عن سر تأخر ذلك الكاهن كل ذلك الوقت، لكن بعد برهة من الصمت الأزلي فقد صبره، فتسائل في عصبية :

لماذا تأخر هذا الساحر كل هذا الوقت، هل ينام وقت القيلولة، أم لا يملك خدم ليساعدوه في أموره البسيطة؟

ظل اناكندا صامتا حتى ظن سامي أنه لا ينوي إجابته، ثم قال :

نعم هو ينام وقت القيلولة ويحافظ عليها لأنها تمده بالنشاط لباقي اليوم، أما بالنسبة للسؤال الثاني، فهو لا يملك أي خدم على الإطلاق لأنه يكره أن يستخدم الناس، وبالنسبة للقب ساحر، فأنا نصحتك من قبل ألا تخاطبه بهذا اللقب إطلاقا؟

هتف سامي متهكما :

لماذا! هل يخجل من حقيقة عمله، أم يخفي وظيفته خوفا من ملاحقة الضرائب؟

قال اناكندا في هدوء وصبر :

لا هذا ولا ذاك، كل ما هنالك أنه لا يرى نفسه ساحر، بل مجرد مطلع على الأسرار، وحارس للجسر بين العالمين.

ردد سامي العبارة الأخيرة في ذهنه وهو يفكر في معناها، قد يكون الأمر صحيحا بالفعل، وقد تكون كذبة يستعملها ذلك العجوز ليخدع الناس، كما يستعمل السحرة خدعا كثيرة ليلبسوا أنفسهم رداء الصالحين، لا يخلوا الأمر من التجربة مع

الحذر، وعدم تصديق كل ما يسمعه حتى يجربه بنفسه، فهو لا يريد إلقاء نفسه في موارد التهلكة، سيرى بعينيه ويسمع بأذنيه ويفكر بعقله، لم تخدعه جوارحه أبدا من قبل، لذا يثق فيها دائما.

سمع سامي صوت قدمين تمشيان في بطأ راسخ تقتربان من الباب، ثم تتوقف خلف الباب ويعود الصمت الثقيل المستفز من جديد، أدرك سامي أن ذلك الكاهن العجوز ينظر من خلال خصاص الباب لمعرفة القادم، لحظات ثم رفع المزلاج الثقيل وانفتح الباب، وبدا من ورائه وجه رجل عجوز أسود، تتوسط وجهه فتحتين ضيقتين تختفيان خلف جفنين متهدلين، راحت تلك العينين تبثان شعاعا تخلل عقله بسهولة أذهلته، وجعلته يوقن بخطورة ذلك العجوز ذا المظهر الواهن، أذن لهما ماسا بالدخول أخيرا وهو يحدج اناكندا بنظرة خاصة، توقف بهم المقام في غرفة صغيرة ذات نافذة دائرية، لا تحتوي إلا على منضدة متوسطة الحجم، وعدة كراسي خشبية صغيرة، وثلاثة كئوس فارغة، جلس ماسا أولا، تبعه اناكندا، ثم سامي الذي تأمله ماسا بنظرة جابت من أعلاه إلى أسفله في سرعة، ثم التفت إلى اناكندا يسأله في صوت قوي بلغتهم المحلية :

من هذا الرجل يا اناكندا؟

قال اناكندا في احترام وتبجيل واضحين :

ذلك الرجل مصري الجنسية، يدعى سامي فريد، يبلغ من العمر خمسة وأربعون عاما، جاء إلى أوغندا سائحا بسبب شعوره بالملل الشديد، وهي أول زيارة له لقارة إفريقيا.

حدج (ماسا) المصري هذه المرة بنظرة فاحصة طويلة صامتة، جاهد سامي ليسيطر على أعصابه المتوترة، مرت لحظات بطيئة بدت له كساعات، ثم أبعد ماسا عينيه الضيقتين عن وجه سامي وجسده ونقلهما إلى وجه اناكندا يسأله بنبرة حازمة :

وما مقدار ثقتك فيه؟

قال اناكندا في هدوء وثقة :

أنا أثق في ذلك الرجل للغاية، فهو يتمتع بقلب طيب، صادق، صريح، لا يحمل ضغينة، ضف على ذلك شعوره الرهيب بالملل، الذي دفعه ليأتي إلى إفريقيا باحثا عما يذهب عنه مللـه الدائم الشرس .

تركهم سامي يتحدثون بلغتهم الإفريقية التي يجهلها، دون أن يقطع كلامهم بسؤال فضولي، كان في السابق يبتسم عندما يسمع لغة الأفارقة بموسيقيتها الفريدة وطنطنتها الغريبة، إلا أنه هذه المرة أصابه القلق لما يمكن أن يقال عنه في تلك اللحظة، كان يخشى أن يصفه اناكندا بكلام لا يمثل حقيقته، واستنبط سامي أن الساحر العجوز يبدو مرتابا بطريقة مبالغة كما وصفه اناكندا من قبل، بل ربما أكثر مما وصفه به، التزم الصمت حتى فوجيء بالساحر العجوز يقول بلهجة مصرية ركيكة :

كيف حالك يا أستاذ سامي؟

كانت المفاجأة قاسية فألجمت لسانه للحظات، ثم أطلقته بصعوبة فقال متلعثما :

بخير حال أيها الساحر.

انعقد حاجبا ماسا في غضب، لكنه قال في لهجة هادئة:

ألم يحذرك اناكندا من مخاطبتي بذلك اللقب إطلاقا؟

تلعثم سامي قائلا في حرج بالغ :

تقبل أسفي أيها الرجل المحترم، فقد أفقدتني المفاجأة تركيزي لكونك تعرف العربية، فنسيت نصيحة اناكندا بذلك.

ثم غلبه فضوله كما يحدث دائما، فحوله إلى سؤال دون أن يفكر في عواقبه، فسأله :

اسمح لي يا سيدي أن أسألك، لماذا ترفض لقب ساحر، على الرغم من كونك تحتل منصب كبير السحرة؟

قال ماسا بهدوء:

هذه التسمية تعود إلى الآف السنين، منذ بدأ أجدادي القدماء يقومون بحراسة الجسر المؤدي إلى العالم الآخر عن طريق السحر، لكني لم أحب يوما الإشتغال بالسحر، إلا أنني أجبرت على اتخاذ ذلك المنصب عندما مات كبير السحرة لأنني الإبن الأكبر له، كما تقتدي التعليمات أن يرث الإبن الأكبر مسئولية الجسر والمرور عبره بمجرد أن يموت الوالد، هذا بخلاف أنني أرى ما أفعله بحراستي للجسر تعبدا وكهانة .

ابتسم سامي لسعة صدر ماسا، ثم قال:

سأدعوك من الآن فصاعدا بالكاهن ماسا ؟

تدخل اناكندا قائلا:

لا تحاول إغضاب الكاهن ماسا، وإلا فلن ترى العالم الآخر بعينيك قط؟

التفت إليه ماسا قائلا :

دعه يسأل ما يشاء من أسأله، فالفضول في حد ذاته لا يجلب الشقاء، إلا عندما يتحول إلى فضول قطٍ لا يقدر عاقبة الأمور .

ابتسم سامي في امتنان، ثم التفت إلى اناكندا يسأله :

أنت ابن الكاهن ماسا، أليس كذلك؟

ابتسم اناكندا قائلا :

لقد توسمت فيك منذ رأيتك الذكاء وطيبة القلب ةالصدق.

قال ماسا في سرعة :

هذا أول الأخطاء التي يقع فيها السذج، لا تمنح ثقتك لأحد حتى يخوض اختبار حقيقي .

تسائل سامي في حيرة :

ولكن عقلي يرفض تصديق وجود عالما آخر غير عالمنا.

قال ماسا وابتسامة خفيفة تزين وجهه المتغضن :

أدرك ذلك جيدا أيها المصري، فأنا أيضا رفضت تصديق وجود ذلك العالم في بادئ الأمر، حينما أخبرني أبي بذلك عندما بلغت الثامنة عشر، لكنه راح يشرح لي بهدوء كل شيء عن العوالم الأخرى والأكوان المتعددة، حتى تيقنت من وجودها من قبل حتى أن أذهب إليها.

سأل سامي في حيرة :

ولكن إذا كان الأمر في غاية السرية إلى هذا الحد، فلما ائتمنتموني على ذلك السر؟ وكيف أذهب إلى ذلك العالم العجيب؟

قال اناكندا وهو يضحك :

على رسلك يا رجل، أنت تسأل الكثير من الأسئلة في الوقت الذي ينبغي عليك فيه إجابة أسئلة الكاهن و ليس العكس.

استلم ماسا دفة الحوار فقال :

لا بأس يا اناكندا، ولا تنسى كيف كنتَ تسأل في أول الأمر كطفل صغير تائه يسأل عن منزله.

لاذ اناكندا بالصمت وهو يشير بيده علامة الإعتذار، فالتفت الكاهن ماسا إلى المصري وقال :

سأسلك أولا بضع أسألة تخص حياتك الشخصية، فإن أجبتني بصدق دون أن تخفي شيء، أجبتك عن كل الأسئلة التي تسبح في عقلك كأسماك البيرانا القاتلة، اتفقنا؟

أومأ سامي برأسه في استسلام، وعندها، بدأت الأسئلة ترخ عليه من فم الكاهن، كزخات المطر في ليلة شتاء مطيرة شاتية.

****

راح ماسا يسأله عن عمله، هواياته، أكلاته المفضلة، الأماكن التي يحب زيارتها، والبلاد التي يفضل السفر إليها دائما، وسامي يجيبه مراعيا الصدق والصراحة، دون أن يفهم الهدف من وراء كل تلك الأسألة العبثية من وجهة نظره، ثم رمقه الكاهن بعينيه الضيقتين الحادتين وقال :

هل تحب والديك؟

أجابه سامي وهو يشعر بالحيرة إزاء السؤال العجيب :

نعم أحبهما بالطبع .

إلى أي مدة تحبهما؟

قال سامي في حيرة :

حبا يصعب وصفه .

هل كانوا يبادلونك حبا بحب؟

أجاب سامي في اقتضاب :

نعم وأكثر .

قال الكاهن في نبرة بطيئة :

هل أحببتَ امرأة من قبل؟

أجابه سامي في توتر ملحوظ :

نعم، ولكن لا أعرف ما علاقة كل هذه الأسئلة بالعوالم الموازية والأكوان المتعددة.

تجاهل الكاهن سؤاله عمدا ثم سأله :

لماذا لم تتزوجها ما دمتُ قد أحببتها؟

قال سامي في عصبية لم يستطع كبحها :

كل شيء مقدر من قبل الله سبحانه وتعالى .

قال ماسا في نبرة هادئة :

أعلم ذلك جيدا، ولكني أريدك أن تخبرني بالأسباب التي منعت زواجكما .

كان الغضب يرسم ملامحه على وجهه بفرشاة خشنة قاسية، لكنه آثر الصبر حتى تنجلي تلك الغمة التي لا يعلم سببها ولا متى ستحل، قال بعد برهة من الصمت :

لقد أحبت الفتاة شابا آخر وفضلته علي، هل استرحتُ الآن؟

بدا على وجه ماسا عدم الإنتباه وهو يسأله :

هل تزوج والداك عن حب، أم كان زواجا ناتجا عن مصلحة وعدم رغبة؟ أو كما تقولون في بلدكم زواج صالونات.

بدأ الغضب يرسم لنفسه أنيابا ومخالبا على وجه سامي، لكنه كظم غيظه مجيبا :

عن حب، فلقد كانا جيرانا ثم تواعدا وتزوجا رغما عن رفض أسرتيهما وتعنتهما تعنتا شديدا .

بدا الكاهن وكأنه يعرف مسبقا تلك الأمور عن حياته، ثم سأله :

هل تشعر بالنقص عندما تقارن نفسك بأبيك الذي نجح في الزواج من الفتاة التي أحب؟

هنا أظهر الغضب مخالبه وكشر عن أنيابه حين هب سامي صارخا في غضب واحتداد :

أي كاهن أنت يا رجل بل أي ساحر؟ كيف تسمح لنفسك أن تصل بأسألتك عن حياتي الشخصية إلى هذا الحد؟ هل تظن نفسك طبيب نفسي تعالجني من أمراضي النفسية المعقدة؟ أنت مجرد عجوز مخرف تظن نفسك قد ملكت الدنيا لمجرد أنك تعرف أسرارا عن عالم خفي، وربما لا وجود لهذا العالم على الإطلاق إلا في مخيلتك.

تيقن سامي حين كان يصرخ في وجه الكاهن العجوز أنه قد أفسد كل شيء، وسيعود على متن أول طائرة إلى القاهرة مهزوما مدحورا، وشعر بالخوف من أن يغضب الكاهن فيسخطه قردا أو كلبا أو حتى خنفساء، لكن ما حدث كاد يصيبه بصدمة حادة حين ابتسم الكاهن العجوز في حزن، ثم سأله في هدوء عجيب :

و ما دمتَ لا تريد إجابة أسألة تخص حياتك الخاصة، لما طاوعتني منذ البداية؟

بهت سامي لسؤاله فهتف :

لأنك أخبرتني أنني يجب أن أجيب على كل أسألتك دون نقاش، حتى يتسنى لي الذهاب إلى ذلك العالم الآخر .

أومأ الكاهن برأسه نفيا، ثم قال في أسى :

ما كان ينبغي عليك طاعتي ما دمتَ غير مقتنع بما تفعله .

سأله سامي في ارتباك :

وما الذي يعنيه هذا؟

مط الكاهن شفتيه الغليظتين، ثم قال في أسى حقيقي:

إجابتك عن أسألة تخص حياتك إلى هذه الدرجة من السرية، يعني أنك لا تتمكن من حفظ الأسرار التي دونها في الخصوصية، تنفلت منك الأسرار عندما تضغط عليك الظروف، للأسف أنت فشلتَ في الإختبار ولن يكون باستطاعتك الذهاب إلى العالم الآخر .

اهتزت به الأرض ومادت، لكنه تماسك على قدر طاقته، حدج الكاهن في نظرة تشع كراهية وبغضا وعدوانية، حتى كاد يسبه سبا قاذعا لكنه خشي أن يغضبه، وهو لا يأمن إن أغضبه أن ينال عقابا لا يتخيله في أبشع كوابيسه، استدار مغادرا

منزل الكاهن الكبير، ثم ركب السيارة وانطلق عائدا إلى الفندق لتجهيز حقيبته، و ليغادر الدولة كلها بلا عودة.

****

شرع سامي يجهز حقيبته الجلدية، ويضع فيها كل حاجياته التي ابتاعها خلال رحلته في أوغندا، محاولا تجنب الإحساس الخانق بالمرارة الذي شعر به عندما أخبره الكاهن أنه لا يصلح لتلك الرحلة الفريدة، لم يستطع محو المرارة من قلبه ففضل تجاهلها وكأنها ليست موجودة، لكنه لم يقدر أن يمنع غضبه من نفسه بسبب سذاجته المفرطة، لم يتخيل قط أن يخدعه ذلك العجوز ويحط من شأنه. (لكنني أنا المخطيء لا هو، ولا بد أن أتحمل نتيجة أخطائي كرجل)

هتف لنفسه بتلك العبارة في غضب، ثم حمل حقيبته واتجه نحو باب غرفته، أوشك أن يدير مقبضه لولا أن هبطت طرقات قوية مباغتة، فتح الباب فطالعه وجه اناكندا الباسم، لوهلة كاد يرفض دعوته للدخول لولا أن غلبته شهامته فسمح له على مضض، قال اناكندا دون أن يجلس :

هل عزمت على الرجوع إلى بلدك، أم ستسافر إلى بلدة إفريقية أخرى؟

كانت الفكرة قد داعبت رأسه من قبل، لكن حزنه جراء فشله جعله يفقد الرغبة في اكتشاف دولة جديدة، فقال في نبرة جافة :

لا، سأعود إلى بلدي على الفور، فلا حاجة لي للسفر إلى دولة إفريقية أخرى .

تأمله اناكندا لبرهة، ثم اتخذا مقعدا خشبيا بسيطا وقال :

يؤسفني ما حدث بشدة، وأرجوا ألا تظن بي سوءا لأني أخفيتُ عنك طبيعة أسألته، لكني واعدته بالسمع والطاعة ولا أستطيع مخالفته أو كشف ما ينتوي فعله .

قال سامي متجاهلا مشاعر السخط والحنق التي تعصف بداخله عصفا :

لا عليك يا اناكندا، كلام الكاهن صحيح بالفعل، فأنا إذا لم أتمكن من إخفاء أسراري الشخصية، فكيف أستطيع إخفاء سر عالمكم الخفي؟

بدا على وجه اناكندا التردد قليلا، ثم اتخذ قراره قائلا :

ليس هذا هو السبب الحقيقي لرفض الكاهن السماح لك بخوض تلك الرحلة؟

ماذا تعني !

قال اناكندا بعد أن تحرر من ربقة عهوده للكاهن ماسا :

ما وقعتَ فيه أيها المصري وقع فيه كل من سبقك في هذا الإختبار، أنا أيضا فشلتُ في هذا الإختبار فشلا ذريعا، لكن لم يمنع ذلك الكاهن من السماح لنا من الإنتقال إلى ذلك العالم الموازي؟

بان على وجه سامي الإستغراب والتسائل والحيرة والغضب، كل تلك المشاعر التقطها الإفريقي في فطنة، ثم قال مبددا تلك الغمامة الكثيفة :

لم تكن مشكلتك الحقيقية سوى أنك استسلمت سريعا، وهو لا يبغض في حياته أكثر من اليأس والإستسلام وإسقاط الراية بسهولة، كل من سمح لهم من قبلك بالمرور عبر ذلك العالم كشفوا له كل أسرارهم رغبة في العبور إلى العالم الآخر، لكننا اشتركنا جميعا في الإلحاح عليه إلحاحا عظيما دون يأس من موافقته، حتى سمح لنا بالعبور في النهاية، لكنك على عكسنا، غضبت واستسلمت وغادرتَ بيت الكاهن في عجالة، بل أنت الآن على وشك مغادرة البلاد كلها في أول طائرة.

كانت تلك الحقائق تنزل على عقل المصري وقلبه كأنها زخات مطر ملتهبة، كم كان غبيا إلى أبعد حد عندما سمح لنفسه بالإستسلام بسهولة، والسعي في الهروب من منزل الكاهن ومن الدولة كلها، حينما أدرك أنه كان ضحية سذاجته، كان ينبغي عليه الثبات حتى النهاية لا أن يفر بعد أول مواجهة، لكن البكاء على اللبن المسكوب لم يعد ناجعا، في كلا الحالتين قد خسر، ولن يشكل فارقا إذا كان سبب رفض الكاهن له كشفه عن أسراره الشخصية، أو استسلامه السريع .

ألقى على الإفريقي الوداع دون أن يلتفت له، ثم حمل حقيبته واتجه ناحية الباب وأمسك مقبضه وشرع يديره، لولا أن سمع اناكندا يقول :

ما تزال هناك فرصة لك .

دفعته لهفته ليلتفت إلى الخلف بكل سرعته نحو اناكندا الذي ابتسم في خجل، ثم قال :

فرصة أخيرة .

ترك سامي الحقيبة تسقط من يده، ثم تقدم ناحية اناكندا في لهفة وأمسك كتفيه بقوة، ثم هتف في انفعال:

هل تعني ما تقول حقا؟ كيف ذلك، كيف؟ أخبرني بالله عليك .

قال اناكندا بنبرة تجمع بين السعادة والحماس :

ستعود إلى الكاهن دون أن تخبره أنني طلبتُ منك هذا، سيبدو الأمر كما لو كانت تلك الرغبة نابعة من نفسك، هل فهمت، لو علم أنني أخبرتك ستفشل المحاولة.

ردد سامي في قلق :

المحاولة.

أدرك اناكندا قلقه فقال مستدركا في حماس صادق :

هي مجرد محاولة لكن نسبة نجاحها تتعدى السبعين في المائة، اطمئن .

لم يبدو على سامي الفرح والإبتهاج كما توقع اناكندا، فأردف الأخير :

لا تيأس يا رجل، هذا ما كنا نتكلم بشأنه منذ قليل، هل نسيت؟

أشعل كلام اناكندا الحماس في قلبه بعد أن انطفأ، فصاح سامي في حزم وصلابة :

سأعود إلى الكاهن وأخبره أني سأعبر إلى ذلك العالم الموازي، حتى لو كلفني هذا كل ما لدي .

وهنا ابتسم اناكندا وبدا على صفحة وجهه الإرتياح الشديد، بعد أن استطاع إقناع سامي بالمحاولة دون خوف من الفشل ويأس من النجاح .

****

طرق (سامي فريد) باب منزل الكاهن الأفريقي وانتظر في صبر حتى يفتح، وكما حدث في المرة السابقة، مرت دقائق كالساعات، ثم فتح ماسا الباب ولاحت في وجهه دهشة قصيرة، لم يدعوه الكاهن للدخول وإنما انتظر أن يتحدث سامي، أشعره ذلك بالإحراج لكنه تجاوز شعوره قائلا :

اسمح لي أن أدخل أيها الكاهن الطيب، فأنا لدي كلام أريد أن أفصح به لك.

قال ماسا بلهجة حاسمة:

لقد أخبرتك من قبل أنك لا تصلح لهذه الرحلة فلما المكابرة؟

مرة أخرى تجاوز سامي أسلوبه القاسي وقال في إصرار :

آسف لما صدر مني تجاهك أيها الكاهن العظيم، ولكن أرجوك أن تمنحني فرصة الدفاع عن نفسي وشرح موقفي .

بدا لوهلة أن ماسا سيرفض طلبه ويطرده شر طردة، لكنه تراجع فجأة ولانت ملامحه، ثم سمح له بالدخول عندما تنحى عن مكانه من أمام الباب دون أن ينبس بكلمة، دلف سامي وهو يراجع في عقله ما دار بينه وبين اناكندا حتى لا ينساها عندما يبدأ حديثه، جلسا متقابلين في صمت أزعجه، لم يجد مفرا من بدأ الحديث فقال دون تردد :

أعتذر عما بدر مني من سوء أدب مع جنابكم العظيم، ولكني لم أعتد تلقي أسألة تمس حياتي الشخصية، وزاد من عصبيتي أنني كنتُ حريصا على العبور إلى ذلك العالم الآخر أيما حرص، فوجدت نفسي أقع بين المطرقة والسندان، إما إجابة أسألة تسبب لي ضغطا عصبيا، أو الرفض، وبالتالي أخسر الفرصة النادرة.

قال ماسا بنبرة حاسمة فاصلة :

وقد خسرتَ فرصتك أيها المصري من قبل، فلم التعنت؟

قال سامي بنبرة جمعت بين الإصرار و اليأس في مزيج نادر :

خسرتها من قبل ولكني لن أخسرها هذه المرة .

أومأ الكاهن برأسه نفيا، ثم قال :

أنا لا أمنح الفرصة إلا مرة واحدة ولا أكررها.

أحس سامي بالثورة تحاول اجتياحه يدعمها اليأس ويساندها الغضب، لكنه كان يملك حاجزا عتيدا من اليقين والثقة في أحقيته بتلك الفرصة، أعاد حديثه السابق في رجاء وكرر الكاهن قوله عن استنفاذ فرصه في عناد، استمر الجدال بينهم كتراشق السهام المسننة دون أن يتخلى أحدهم عن موطأ قدمه، بدأ اليأس يحتل مكانا مميزا داخل حصون نفسه، فبدأ يتراخى وتفلت يده ويترك قلاعه تتداعى، لكنه أدرك بفطنته وحسن تفكيره أن الأمر لا يعدو بالرغم من غرابته لطول مدة الجدال، أنه محاولة من الكاهن لاختبار صبره وطول باله، لذا، استمر في نقاشه اللحوح حتى يصل إلى مراده، وبغتة، قام ماسا ومضى إلى الداخل دون أن ينطق بكلمة، لم يفهم سامي سبب مغادرته له دون أن يبدي سببا، لكنه قرر المكوث في منزله حتى يعود أو ينتظره للأبد، كان قد بدأ ينمو داخله إحساسا قويا بعظمة ذلك العالم الذي جادل وناقش وقاتل حتى يفوز بالذهاب إليه، ورأي أن ذلك العالم يستحق ما بذله وما سيبذله في سبيله، اتكأ على أريكة صغيرة ينتظر الكاهن حتى يعود، مرت الساعات بطيئة، وغير من هيئة اضطجاعه مرارا على أمل أن يظهر قريبا، لكن الليل قد أسدل أستاره دون أن يظهر ذلك الكاهن العتيد في عناده، فبدأ

الغضب يغزوه بنفسه وجنوده وعتاده، فيصده بدرع الأمل وسيف الشغف قدر الإمكان، لكن شغفه بدأ يضمحل وأمله أخذ يتلاشى كضوء القمر عند حلول النهار، ولما هزمه يأسه، واستمكن منه غضبه، وأحس بالهزيمة تترائى له من خلف تل قريب، هبطت طرقات على الباب يعلم صاحبها جيدا، فهب قائما وهرع لفتح الباب فطالعه وجه اناكندا يبتسم في ود، دعاه للدخول بلهفة، ثم قص عليه ما دار بينهما منذ الصباح وحتى هذه اللحظة، حينها طمأنه اناكندا من اقتراب حصوله على مراده، كان حديث اناكندا بالنسبة له كالبلسم الموضوع على جرح تقيح من طول مباشرته للماء والحرارة، أشار عليه بالمكوث حتى الصباح، ووعده أن الكاهن سيقبله حين يعود إليه باكرا، ثم غادره اناكندا، وافترش سامي الأرض ذات الفراش الخشن، ووضع تحت رأسه وسادة من ليف صلب، ثم نام.

****

استيقظ سامي مع أول أضواء الصباح دون أن يضبط منبه، كان منبه هذه المرة هو آلام ظهره العنيفة جراء نومه على الأرضية القاسية، توضأ وأدى صلاة الصبح، ثم بحث في حقيبته عن أي شيء يصلح للأكل، وجد قطعتي (باتيه) ما يزالا صالحين للأكل، أنهى الأول ثم شرع في التهام الثاني، لكنه توقف عندما وجد ماسا يقف أمامه وعلى وجهه نظرة متسائلة، هب واقفا في احترام قائلا :

صباح الخير أيها الكاهن ماسا، هل تناولت طعامك أم تشاركني طعامي البسيط؟

سأله ماسا :

ماالذي تأكله أيها المصري؟

وصف له سامي مايأكله، فمط الكاهن شفتيه ثم قال:

غذاؤك دواؤك يا رجل، لا تدخل معدتك طعاما سيئا ثم تشتكي المرض.

وافقه سامي بإيماءة من رأسه، سأله ماسا في فضول :

لما لم تذهب حينما تركتك؟

قال سامي :

أخبرتك أيها الكاهن الحكيم أنني متمسك بتلك الرحلة.

قال ماسا بإصرار :

هل تريدني أن أرجع في كلمتي؟

رد سامي في سرعة :

كلا، لكني أريدك أن تمنحني الفرصة لأظهر لك معدني الحقيقي.

تفرس ماسا في ملامحه مليا في صمت، ثم قال :

حسنا سأمنحك الفرصة لتظهر معدنك الحقيقي ولكن بشروط .

قال سامي بحماس حقيقي:

أنا رهن إشارتك؟

سأله ماسا :

هل أنت مستعد للقيام بمهمة قد تكلفك الكثير؟

بالرغم من دهشته إلا أن سامي قال :

بالتأكيد، أنا مستعد للقيام بأية مهمة مهما كانت صعبة، لكني أريد أن أعرف طبيعتها أولا قبل إبداء قراري النهائي .

هز الكاهن رأسه نفيا، ثم قال:

لا، ينبغي عليك أن تعلن رأيك النهائي قبل معرفة أي شيء عن طبيعة المهمة.

ضربته الحيرة بمطارق من حديد، لا يدري ما الذي ينبغي عليه فعله؟ هل يوافق دون أن يعرف ما الذي سيشرع في فعله بالتحديد؟ أم يرفض ويترك أمر تلك المهمة لأحد غيره؟ منذ أن قابل ذلك الكاهن وهو يضعه تحت اختبارات قاسية بطريقة لم يعتدها من قبل، لكن هكذا الحياة تباغت الناس بأمور لم ترد على أذهانهم، ولو رفض الآن فربما لا تسنح له فرصة مثلها في حياته كلها، اتخذ سامي قراره النهائي دون تردد :

حسنا أيها الكاهن، أنا أقبل القيام بالمهمة مهما كانت خطيرة.

سأله ماسا في نبرة حاسمة :

حتى لو كانت التكلفة حريتك أو حتى حياتك؟

اتسعت عينا سامي عن آخرهما، لم يتخيل أن يصل الأمر إلى هذا الحد، لكنه فضل أن يحسم الأمر من جهته ويتحمل ما سيواجهه بشجاعة، فقال بنبرة مليئة بالتحدي :

نعم، حتى لو كانت حياتي أو حريتي هي الثمن .

وهنا ظهر اناكندا من غرفة جانبية قائلا في إعجاب :

كنتُ قد راهنتُ على شجاعتك وإصرارك، وها أنا قد فزتُ بالرهان .

تفجرت الدهشة في نفس سامي كأنهار تفجرت من بين الصخور القاسية، قال ماسا مستسلما :

لقد فعلتُ ما بوسعي لأجعله ييأس، لكنه تماسك بصلابة وبأس .

وهنا ابتسم سامي وقد علم كم ساعده اناكندا ليعبر إلى ذلك العالم الآخر، ثم عاوده الفلق فسأله :

أخبرني أيها الكاهن عن ماهية ذلك العالم وطبيعة مهمتي؟

جلس الكاهن قائلا :

سأخبرك كل شيء بالتفصيل .

****

جلس سامي في الحال متلهفا لسماع قصة ذلك العالم الخفي، صمت الكاهن لحظة يجمع أفكاره ثم قال :

استمع لما سأقوله جيدا فلن أعيده على مسامعك مرة أخرى، ذلك العالم هو عالم مواز لعالمنا، ومشابه له في شكله والكثير من أحداثه، حتى ليبدو وكأنه استنساخ لعالمنا بالكامل .

كان يبدو على وجه سامي دهشة بالغة، لكن ماسا لم ينتبه لذلك وهو يحكي له بدقة كل ما دار بينه وبين بينچي والتر منذ سنوات عديدة، حتى كأن سامي يرى ما حدث رأي العين. توقف (ماسا) عن الكلام وبدا كأنه يعاني ألما دفينا، ولاح في وجهه الغضب والحنق والسخط، كان لدى سامي أسئلة عديدة تتظاهر للخروج من ذلك الحصار الذي فرضه عليهم، بسبب خشيته من إغضاب الكاهن في حالة قرر أن يقاطعه في ذلك التوقيت بالذات، وكان سامي يشعر بالدهشة حد الذهول لهول

القصة التي يسمع تفاصيلها دون أن يتمكن من استيعاب معظمها، لذا حمل نفسه على الصبر حتى ينتهي الكاهن من سرد حكايته المذهلة، لكنه هتف بغتة :

عشرون عاما قضيتَها في السجن، يا إلهي، ثم ماذا ؟

اعتدل ماسا يستطرد من جديد بعد أن تحرر من ربقة ذكرياته المؤلمة :

خرجنا من السجن وعدتُ إلى عالمي مهزوما مدحورا لأجد كبير السحرة يلفظ أنفاسه الأخيرة، مما اضطرني لأحل مكانه رغما عني لعدم استطاعتي مخالفة قوانين عائلتي المقدسة، وعاد بينچي إلى أسرته بعد غياب عشرون عاما كاملا، وعاد الوسيمبي أيضا إلى منزله في فرنسا، لكنه رفض أن يعود لوظيفته كأحد حراس الجسر وفضل العزلة .

سأله سامي في لهفة :

وهل كانت هناك تغيرات حدثت في العالم الآخر عندما خرجت من سجنك؟

ابتسم ماسا في أسى، ثم قال :

لقد تغير العالم تغيرا كبيرا حتى صار يسمى بعالم بينچي والتر .

هاتف سامي في دهشة :

لهذا الحد !

قال ماسا :

سترى كل شيء بنفسك عندما تذهب؟

سأله سامي :

ولكن هل أحضرتني ووضعتني تحت كل هذه الإختبارات من أجل أن تنتقم لما فعله بك فقط !

صمت ماسا وبدا على وجهه المتغضن أسى واضح، ثم قال :

أبلغني حراسي أن هناك حربا عالمية ثالثة على وشك الحدوث بين المعسكرين الشرقي والغربي، بسبب ذلك الكاذب بينچي والتر وتجاربه على استنساخ الموتى، ابذل جهدك لتمنع تلك الحرب من الشوب .

ارتفع حاجبا سامي وهو يردد :

حربا عالمية ثالثة، هل تظن أنني باستطاعتي منع حربا عالمية ثالثة.

قال ماسا في نبرة تفيض بالثقة :

نعم وأنا على يقين من ذلك .

ظل سامي صامتا يحاول استيعاب ما سمعه، ثم سأله :

ولكن طوال السنوات الفائتة، لماذا لم ترسل أحد حراسك للتخلص منه؟

قال ماسا مداريا غضبه :

أرسلت العديد من الحراس المهرة، لكن ذلك الرجل ثعلب ماكر، أحاط نفسه بحراس يقظين فلم يستطيع أحدهم الإقتراب منه، بل واستطاع القبض على بعضهم وإيداعهم السجن مدى الحياة .

سأل سامي في حيرة :

ومالفارق هذه المرة عن المرات السابقة؟

أجابه ماسا :

في المرات السابقة، كان جميع من أرسلتهم من الرجال سود البشرة، لأني لم أكن أرسل إلا من أثق في ولائهم من بين أبناء قومي، وكان هو من الذكاء بحيث لم يسمح لأي رجل أسود أو حتى امرأة سوداء بالإقتراب منه، على الرغم من معرفته السابقة بأنني لا أعتمد على النساء، وفي النهاية أدركت خطئي وقررتُ تغير خطتي برمتها .

سأله سامي في فضول بالغ :

وهل أملك من الخصال ما يمكنني من النجاح في تلك الخطة التي أعددتها؟

أومأ ماسا في رصانة، ثم قال :

نعم وزيادة، ولكن ينبغي أن تثق في نفسك حتى تستطيع الإستفادة من مواهبك .

صمت سامي للحظات ثم سأله في نبرة حازمة :

ما هي مهمتي هناك بالتحديد؟

تطلع إليه الكاهن بضع لحظات، ثم راح يخبره بكل بكل التفاصيل التي تتعلق بمهمته القادمة .

****

لم يتخيل سامي في حياته كلها، أن يأتي اليوم الذي سيعرض عليه فيه القيام بتلك المهمة، وعلى الرغم من أن ماسا حكى له كل شيء بالتفصيل، إلا أن ذهوله وحيرته بقيا كما هما دون أن يتغيرا، فقد وضع له خطة معقدة غاية في الخطورة والتهور، ثم أمره أن يتبعها بحذافيرها، حتى إنه ظن أن ماسا يلقيه في التهلكة من أجل أن يأخذ بثأره البائت، دون أن يأبه بما يمكن أن يحدث له حتى لو راح ضحية تخليص حسابات عالقة. ضربته الحيرة بمخالب حادة دون هوادة، فما طلبه منه ليس أمرا هينا سهل التنفيذ، لكنه لا يريد أن يفقد فرصته في العبور إلى عالم كفيل بأن يعيد له شغفه لسنوات عديدة قادمة، انبعث من أعماقه صوت ينذره من خطورة بينچي والتر، ويحذره من مدى سلطته وسيطرته في العالم الآخر الذي تسمى باسمه، ولأنه يبغض الحيرة بغضه للملل، التفت إلى ماسا قائلا :

أنا على استعداد للعبور إلى عالم بنچي والتر هذا، ولكن لدي استفسار أخير : هل تعتقد بحق أن لدي إمكانية النجاح في تلك المهمة المستحيلة، على الرغم من فشلك في...

بتر سامي عبارته قبل أن يكملها، فتغير وجه ماسا واربد، لكن تلك الإنفعالات المرسومة انمحت من على صفحة وجهه بممحاة عريضة، وعاد وجهه لصفائه من جديد، قال ماسا دون أن يبدو على صوته أي أثر للإنفعالات :

صدقت، لقد فشلت مرتين بالفعل، لكن حدث ذلك لأن انفعالاتنا كانت تقودنا في السابق، وكنا نسير بغير خطة متكاملة، أما هذه المرة فالوضع مختلف اختلافا جذريا، فهناك خطة مرسومة بدقة، وستسير أنت على نهجها دون أن تخرج عن حدودها قيد أنملة، وساعتها فقط ستنجح فيما فشلتُ فيه أنا من قبل.

أومأ سامي برأسه إيجابا في توتر، على عكس اعتقاده لم تريحه كلمات ماسا وتزيده اطمئنانا، بل زادت من قلقه وتوتره الكثير، فنجاح الخطة يعتمد في المقام الأول على التزامه وطاعته، وهو لم يعرف عن نفسه الإلتزام والطاعة أبدا، لهذا من الطبيعي أن يفشل هو الآخر في تنفيذ خطة موضوعة للعمل في عالم لم يعهده من قبل. شعر ماسا بحيرته فأردف :

هل تظن أنني لو لم أثق في إمكانيتك على تنفيذ تلك المهمة كنتُ أرسلت إلى ذاك العالم ؟ إياك أن تعتقد أنني ألقي بك في أتون الجحيم من أجل أن أحرز مكسب شخصي، هذا ليس من شيمتي، بخلاف أنك إذا خسرت هذه المعركة ستزداد ثقة

بينچي بنفسه، وتجعله يأخذ حذره أكثر من ذي قبل، هذا بخلاف الحرب العالمية الثالثة التي ستهلك العالم وتفنيه عن آخره .

قال سامي في نبرة اعتراض واضحة :

لكني غير قادر على تحدي مثل هذا الحرباء؟

سأله ماسا :

هل ترى نفسك في مناماتك وأنت تنقذ العالم من خطر ماحق؟

قال سامي في حيرة :

نعم، ولكن ماعلاقة هذا بذاك؟

قال ماسا في هدوء واثق :

ماتراه في أحلامك ماهي إلا أفعال تقوم بها في كون آخر .

ثم ابتسم ماسا قائلا بحنو :

لن تكون بمفردك لحظة واحدة، سيكون رجالي حولك، يشدون من أزرك، ويتدخلون إذا صادفتك مشاكل .

قال سامي في عناد :

لكني لا أعتقد أن تلك الترتيبات قادرة على هزيمة رجل داهية، يتمتع بذكاء جهاز مخابرات بأكمله .

قال ماسا :

ذلك الرجل لديه نقطة ضعف خطيرة للغاية، لكن للأسف لم أنتبه لها إلا بعد فوات الأوان، ومادمت ستلتزم بالخطة الموضوعه فستهزمه لا محالة، وسيدلك عليها اناكندا في الوقت المحدد .

صمت سامي دون أن ينبس ببنت شفة، فوضع ماسا يديه المعروقتين على كتف سامي، ثم قال :

أنت شاب مليء بالحيوية والحركة، أرى الحياة تجري في عروقك دون توقف، تعشق الإثارة وتبغض الملل، تسعى لاكتشاف أماكن جديدة حتى لو تعرضت

للمصاعب، وتملك ذكاء فطري جيد، كل هذه الصفات رآها اناكندا فيك فاقتنع بك واختارك لتلك المهمة، وأنا أيضا رأيتها فيك ومقتنع تماما بأنك كفؤ لها .

انسابت كلمات الكاهن بين مسامات روحه رقيقة ناعمة، ثم صعدت إلى رأسه وتخللت عقله فاقتنع بها، ثم هبطت إلى قلبه فاطمأن لها، ثم تسللت إلى شفتيه فانفرجتا مبدية ابتسامة واسعة وصاحبها يقول :

حسنا، أنا أشعر الآن أنني خلقت لتلك المهمة العظيمة أيها الكاهن العظيم ماسا.

وهنا فقط تحركت شفتي الكاهن مبتعدين عن بعضهما، كاشفة عن أسنان بيضاء ناصعة كأنهما لم يباشرا طعاما من قبل، لتولد من بين تلك الأسنان ابتسامة ناصعة تغلفها ارتياح عميق، وكان هذا بمثابة إطلاق رصاصة البدأ للقيام بالمهمة الكفيلة بقلب موازين القوة في العالم الآخر رأسا على عقب .

هتف اناكندا الذي كان صامتا منذ البداية :

مرحى يا سامي لقد بدأت المهمة.

****

مد ماسا يديه هاتفا بصوت كالرعد، ناطقا بكلمات مبهمة، كأنها ممزوجة من لغات عدة جمعت بين الإفريقية والهندية والعربية دون أن يستطيع التفريق بينهما، ضاغطا على نهاية الكلمات وجعلها ممطوطة. ظل على هتافه القوي للحظات، ثم ظهر أمامهم جسر يكتنفه ضباب كثيف، حتى إن الجسر يظهر من بينه بصعوبة، أشار اناكندا لسامي بأن يتبعه عبر الجسر حتى العالم الآخر، اختلج صدر سامي في عنف وهو يلتفت إلى الكاهن ماسا، لم يستطع أن يدلف إلى داخل عينيه الضيقتين الغامضتين، كأنهما بابين أغلقا دلفتيهما بمزلاج غليظ، لما يأس من استبطان دخيلته استدار وتبع رفيقه عبر الجسر، لم يشعر بشيء مختلف عندما وطئته قدماه، حاول اختراق الضباب من حوله بعينيه دون جدوى، فاستمر في سيره قبل أن يلتفت إلى رفيقه يسأله بفضول :

هل زرت ذلك العالم من قبل يا أناكندا؟

نعم، زرته مرة واحدة فقط.

سأله بفضول أكبر :

هل هو مختلف عن عالمنا اختلافا كبيرا.

قال اناكندا بمرارة :

لقد أصبح كذلك للأسف بعد ذهاب بينچي والتر إليه .

هتف سامي بدهشة بالغة :

لهذه الدرجة وصل تأثير بينچي هذا !

قال اناكندا وهما على وشك الوصول إلى العالم الآخر :

بالتأكيد، لقد فاق تأثير بينچي والتر على ذلك العالم، تأثير كل من سبقه من الزعماء والملوك والرؤساء، حتى لقد فاق تأثيره تأثير الحرب العالمية الثانية نفسها.

توقفت قدما سامي وهو على بعد أمتار قليلة من الولوج إلى العالم الآخر، حتى أنه كان يرى من بين الضباب بعض تفاصيل ذلك العالم الموازي.

توقف اناكندا بدوره والتفت إليه يسأله في حيرة :

لماذا توقفت يا رجل؟

قال سامي من بين ذهوله :

وهل تظنني قادر على السير نحو ذلك العالم بعدما سمعته منك الآن، يبدو أن الكاهن ماسا قد أخفى عني الكثير.

صمت اناكندا تماما، فسأله سامي :

أخبرني، ما الذي أخفاه عني أيضا قبل أن أتفاجأ به هناك .

اقترب منه اناكندا قائلا بنبرة حاسمة :

لم يخبرك الكاهن ماسا أن بينچي والتر الآن هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

لم تستطع قدما سامي أن تحمل جسده بعد إحساس الصدمة الهائل، أحس كأنه يحمل فوق كتفيه طنا من الحديد، جلس فوق أرضية الجسر حتى اختفى من أمام عيني اناكندا بين الضباب، فمد الأخير يده وجذب سامي ليعيده إلى وضع الوقوف مرة أخرى، ثم سأله :

هل تظن أن كونه رئيسا لأمريكا سيمثل عقبة إضافية لخطتنا هناك؟

هتف سامي في غضب :

وما الذي تعتقده أنت أيها الذكي؟

نظر اناكندا إلى ساعته الجلدية، ثم قال في نبرة حاسمة :

ما أعتقده أننا لو لم نعبر إلى ذلك العالم الآن سيختفي الجسر، وسنخسر فرصتنا في العبور حتى العام المقبل.

أنهى اناكندا عبارته ثم انطلق يعبر الجسر قاطعا الخطوات المتبقية في سرعة، لم يجد سامي بد من اللحاق به بخطوات مهتزة، وقلبه يخبره أنه يستحق لقب الأغبى في التاريخ لموافقته على القيام بتلك المهمة المجنونة.

اتجها معا نحو نهاية الجسر الذي يلوح أمامهم على بعض عدة أمتار، كان سامي يبذل جهدا مضاعفا للإستمرار في سيره، وذهنه يخيل له عالما من الوحوش والضواري يفترسون البشر دون رحمة، لكنه ما إن خطت قدماه فوق أرض العالم الآخر، حتى رأى للوهلة الأولى عالما لا يختلف عن عالمه إلا في بعض الأشياء التي لم يجد لها تفسيرا منطقيا، راح يتلفت حوله بعينين متفحصتين، أثار انتباهه بعض ماركات السيارات المختلفة عما عليه في عالمه، طلب منه اناكندا أن يذهبا على الفور إلى مطار عنتيبي لأخذ طائرة مباشرة إلى أمريكا، لكن سامي رفض أن يذهب مباشرة إلى أمريكا، قبل أن يلقي نظرة على مدينة القاهرة أولا، حيث كان الشغف يحرقه بلهيبه لرؤية مصر في ذلك العالم، وفي صعوبة رضخ اناكندا لطلب سامي الذي لم يكن له ما يبرره في اعتقاده، وبالفعل حطت الطائرة عجلاتها في مطار القاهرة، وما إن سارا في شوارع القاهرة حتى كاد سامي يسقط من فرط الصدمة، فما رآه أمامه كان مختلفا عما كان يدور بخياله مهما جمح وشطح، لم تكن تلك القاهرة التي تركها ورائه وإن كانت تشبهها إلى حد بعيد، أول ما لفت نظره أن بعض ماركات السيارات التي اعتاد رؤيتها كانت تختلف عما هي عليه حيث لم تكن في نفس تطور السيارات في عالمه، وكأن الزمن يتحرك إلى الأمام بسرعة أقل مما هي عليه في الواقع، فالسيارات لم تكن حديثة كما تركها خلفه هناك، وليست أيضا ذات طراز قديم كما يتذكرها منذ كان طفلا، بل كانت مزيجا من الأصالة والحداثة، لم يكن يعرف السبب، لكنه كتم فضوله في صدره وسار بصحبة اناكندا في شوارع القاهرة وهو يلتفت يمينا ويسارا في تعجب، فحتى ملابس الناس كانت مختلفة اختلافا بينا، فتبدو أقل حداثة وكأنها مزجت بين الماضي والحاضر، كان كل شيء يراه يبدو وكأنه يسير بسرعة أقل مما تعود عليه، عجز عن حبس الأسئلة في صدره فسأل اناكندا في حيرة وتعجب :

لماذا تبدو ماركات السيارات والملابس أقل حداثة مما هي عليه في عالمي؟

هز اناكندا رأسه مستغربا وقال :

لقد جئت إلى هذا العالم منذ خمس سنوات، ولقد استغربتُ لما رأيتُ حينها لكني أعتقد أن الإستنساخ له علاقة بما نراه!

سأله سامي مستغربا :

وما العلاقة بين الإستنساخ وبين ماركات السيارات وطرازات الملابس؟

قال اناكندا :

لا أدري حقا يا سامي، لقد سألت الكاهن ماسا عن ذلك، فقال لي أنه يشك بقوة من أن الإستنساخ الذي أدخله بينچي والتر على ذلك العالم، له علاقة مباشرة بكل التغيرات التي طرأت على ذلك العالم منذ ذلك الحين.

لم يستطع عقل سامي الربط بين استنساخ البشر، وبين ذلك التأخر الذي يراه من وجهة نظرة في مظاهر الحياة، لكن فجأة طرأ في ذهنه فكرة طريفة، فمال أثناء سيره إلى رجل يسير أمامه وسأله :

في أي عام نحن أيها السيد؟

حدجه الرجل بنظره كأن ينظر إلى معتوه، ثم قال :

في عام ألفين واثني عشر .

انطلقت ضحكة من حنجرة اناكندا لغرابة السؤال ثم قال متهكما :

يالك من ذكي، فيما كنت تفكر يا رجل؟

قال سامي في حرج :

كانت محاولة بسيطة للتأكد من أن الزمن هنا يسير متوازيا مع الزمن في عالمنا.

لاحت على وجه اناكندا ابتسامة هادئة، لكن تلك الإبتسامة انطفأت بغتة، عندما هتف سامي وهو يشير نحو بوستر دعائي معلق فوق بوابة دار لعرض الأفلام، التفت اناكندا نحو اللافتة المضيئة في استغراب، ثم تسائل :

إنه بوستر دعائي لفيلم عربي جديد يعرض في السينما، فماالمشكلة في هذا؟

تمتم سامي في ذهول :

المشكلة ليست في الفيلم، ولكن في الممثلين الذين يبدون في أفيش الفيلم!

ولم يفهم اناكندا سر دهشة رفيقه.

****

لبرهة راح سامي يحدق في البوستر الدعائي في ذهول عارم، كان يشعر أنه قد عبر إلى عالم من المجانين، بل إن ما يراه لا يصدقه مجنون فضلا عن عاقل، كان يرى في تلك اللحظة أفيش (فيلم المصلحة) الذى كان قد رآه في السينما منذ أسبوع مضى، والذي كان أبطاله أحمد السقا وأحمد عز مع فنانين آخرين، لكن الممثلين الظاهرين على الأفيش لا يمتون إلى هذا الزمن بصلة، حيث كان يبدو على أفيش الفيلم شكري سرحان يقف مواجها لرشدي أباظة في تحدٍ صارم، لم يفهم سامي ماالذي يحدث، هل هي خدعة ما؟ أم أن السينما قررت أن تصنع نوعا ما من الطرائف؟ سأله اناكندا :

ماذا هناك جعلك تدهش إلى هذا الحد؟

أشار سامي للبوستر الدعائي قائلا والذهول لم يفارقه بعد :

هذان الممثلان اللذين يظهران على أفيش الفيلم، المفترض أنهما ماتا منذ سنوات طويلة .

انعقد ما بين حاجبا اناكندا في صمت ، فأردف سامي :

ليس هذا فقط، بل الأدهى أنهما يظهران في شبابها .

تمتم اناكندا :

لقد نجح ذلك الأمريكي في استنساخ البشر ببراعة .

هتف سامي :

هل تعني أن هذان الممثلان ليس هما من نعرفهما؟

أومأ اناكندا برأسه موافقا في صمت، فقال سامي :

لابد أن أدخل لأشاهد الفيلم .

أبدى اناكندا اعتراضه لكن سامي أصر على الدخول فاستجاب له على مضض، قطع سامي تذكرتين ثم دلفا إلى صالة العرض وقلبه ينبض نبضا عنيفا، وعندما راح يشاهد الفيلم الذي يعرف أحداثه مسبقا، كان يشاهد شكري سرحان يلعب دور

أحمد السقا في براعة، ورشدي أباظة يلعب دور أحمد عز في إبداع، وعلى الرغم مما يشاهده بعينه إلا أنه سأل من بجانبه :

كيف يمثل شكري سرحان ورشدي أباطة حتى يومنا هذا، على الرغم من أنهما ماتا منذ سنوات؟

رمقه الرجل بنظرة مستغربة، ثم قال :

من أي البلاد أنت يارجل! هذان هما الجيل الأول من المستنسخين، تم استنساخهما في حياة شكري سرحان ورشدي أباظة قبل موت الأخير بعدة أشهر فقط .

تطلع سامي ببصره إلى اناكندا كأنه يؤكد على كلامه، ثم أشار إليه ليخرجا من المكان، تمتم سامي :

كنت على حق يا رجل، يبدو ذلك العالم مذهل بالفعل، حتى إنني لا أصدق ما رأيته بعيني حتى الآن .

قال اناكندا في هدوء :

ستأخذ وقتا لتعتاد ذلك العالم الذي أفسده بينچي والتر بطمعه وجشعه .

سأله المصري :

لا أصدق أن يبلغ تأثيره حد أن يسموا عالما كاملا باسمه !

قال اناكندا :

يبدو أن له تأثير مذهل على ذلك العالم بالفعل، فقد غير الكثير من معالمه وشكله، بل غير مستقبله.

راحا يسيران في شوارع القاهرة عندما طالعتهم مسيرة كبيرة تضم المئات، ويرفعون رايات مكتوب عليها عبارات مثل (نهاية العالم قادمة) (لابد أن يستعد العالم ليوم القيامة) (الإستنساخ فسق، واستنساخ الميتين كفرا بواحا)

سأل سامي امرأة واقفة تشاهد المسيرة من مسافة قريبة :

ما الذي يقصده هؤلاء الناس بتلك الهتافات المخيفة؟

لوحت المرأة بيدها في استنكار، ثم صاحت بصوت مرتفع ليطغى صوتها على صوت الهتافات :

إنهم ما يزالون يرفضون عمليات الإستنساخ التي تقوم بها الحكومة المصرية، بعد معاهدة الإستنساخ التي دخلتها مع أمريكا ضمن عدة دول أخرى، على الرغم من أنها مر عليها أكثر من ثلاثون سنة.

وماذا يقصدون باستنساخ الميتين؟

هتفت المرأة مستغربة كأنها تنظر إلى مجنون :

إن العلماء الأمريكان قد أعلنوا أنهم نجحوا في استنساخ الأموات بالفعل .

انعقد لسانه فلم يستطع النطق لدقيقة كاملة، ثم سألها :

وكيف فعلوا ذلك، أعني كيف يتعاملون مع جسد مات وتحلل؟

مطت شفتيها وقالت :

أنا لست عالمة حتى أفهم تلك التفاصيل العلمية المعقدة، لكن مادام قالوا أنهم نجحوا في استنساخ الأموات فهم بالتأكيد فعلوا، فماالذي يدفعهم للكذب في أمر كهذا !

هل هناك من أعلنت عنهم الحكومة المصرية والأمريكية أنهم سيستنسخونهم من الأموات ؟

هتفت المرأة في حماس :

بالتأكيد، لقد استطاع العلماء المصريون بدأ عمليات الإستنساخ للمواهب التي رحلت قبل عام ألف وتسعمائة وثمانون، ففي مجال الفن أعلنوا أنهم شرعوا في استنساخ إسماعيل ياسين، وزكي رستم، ونجيب الريحاني وأسمهان وغيرهم من الفنانين، وفي أمريكا بدأو بالفعل استنساخ فنانين أمثال مارلين مونرو، وچيمس دين، ومن العلماء، اينشتاين، ونيوتن، وجاليليو .

سألها سامي والدهشة تنهشه دون رحمة :

هل تعني أن تجربة استنساخهم نجحت وبإمكانهم العيش معنا من جديد؟

أومأت المرأة برأسها في حماس وسعادة، ثم هتفت :

بالتأكيد، وهذا أعظم إنجاز حققته البشرية في تاريخها الطويل، لكن هؤلاء الناس، وأشارت إلى المسيرة التي تمشي أمامها في بطأ، ثم قالت في احتقار :

لا يدركون حجم هذا الإنجاز العظيم، ولا يفهمون إلا أن ذلك سيتسبب بنهاية العالم في هذا العام .

ثم أطلقت ضحكة هازئة عالية وأردفت :

كاد نصف هذا العام أن ينقضي وهؤلاء المجانين متمسكين بفكرة أن نهاية العالم ستحدث هذا العام .

تدخل رجل هاتفا في غضب :

لكني سمعت أن هناك حرب على وشك القيام بين كتلة الشرقية الصين وروسيا وكوريا الشمالية من جهة، والكتلة الغربية أمريكا وبريطانيا وحلفائهما من جهة أخرى، وأن سبب هذه الحرب هي أن زعيم كوريا الشمالية أراد الحصول على تقنية استنساخ الأموات لاستنساخ والده الميت، وتبعتها الصين وروسيا في المطالبة بالحصول على تلك التقنية أيضا، لرغبة الصين في استنساخ زعيمها ماو تسي تونج ليحكم الصين من جديد، ورغبة روسيا في استنساخ فلاديمير لينين ليحكم روسيا مجددا ويعيد لها امبراطوريتها العظيمة مرة أخرى، وعندما رفضت أمريكا دخولهم في قائمة الدول المشتركة في معاهدة الإستنساخ قرروا دخول الحرب، ألا يعني لكِ هذا أن نهاية العالم قد اقتربت !

انعقد ما بين حاجبيها في غضب ثم صاحت معترضة:

قيام حرب عالمية لا يعني نهاية العالم، وإلا ماكان للعالم أثر بعد حربين عالميين كبيرين .

قال الرجل وهو يضغط على أسنانه ساخطا :

الحربين الماضيين لم يستخدموا فيهما قنابل نووية، ماعدا قنبلتي هيروشيما ونجازاكي محدودتي التأثير، والتي خضعت اليابان بسببهما وأعلنت استسلامها غير المشروط وانتهت الحرب ، أما هذه الحرب التي ستقوم بسبب رغبة عدة بلاد لامتلاك تقنية الإستنساخ، ستنسف الأرض ومن عليها نسفا، هل بعد كل هذا تنكرين أن الإستنساخ سيكون سبب فناء البشرية؟!

انتحت المرأة بعيدا وهي ترفع رأسها علامة الإباء والرفض، في حين تطلع سامي نحو المسيرة التي تبتعد في بطأ، ثم لفت نظره الإقبال الهائل على أكشاك الجرائد والمجلات الورقية، فدفعه شغفه لأن يهرع نحو أحد تلك الأكشاك لشراء جريدة

الأهرام التي يحبها منذ صغره، فكان أن طالعه في الصفحات الأولى تلك العنواين المثيرة :

(الصين وروسيا وكوريا الشمالية تستعدان لمواجهة أمريكا وأوروبا في مواجهة ستسفر عن قيام الحرب العالمية الثالثة لا محالة.)

(الآلاف من الناس في أنحاء العالم تركوا منازلهم وهربوا نحو الجبال والكهوف تخوفا من نهاية العالم، والذي أكد الكثير من الناس أنها واقعة لا محالة في العام الحالي الذي انقضى نصفه، وراح الناس يترقبون النصف الباقي في ذعر وهلع.)

(سعد الملايين من أنحاء العالم بخبر نجاح استنساخ المشاهير والعظماء من الذين فارقونا الحياة منذ عشرات ومئات السنين، والذي كان في السابق محض خيال، وعلى رأس المستنسخين الأموات، ألبرت اينشتاين، زاك نيوتن، جاليليو جاليلي، ومن الفنانين الأمريكان، مارلين مونرو، وچينس دين، هذا بخلاف عشرات المشاهير من الفنانين والعلماء والرياضيين في أنحاء العالم المختلفة.)

تلك العنوان وغيرها أصابته بدهشة لم يستطع الفكاك منها، قال اناكندا باسما :

يبدو عليك الصدمة جراء الأخبار التي تملأ الصحيفة؟

تمتم سامي :

كنت أظن أن ذلك العالم لن يختلف عن عالمنا كثيرا، لكن الآن أدركت أنه يكاد لا يتفق معه في أي شيء .

شرعا في السير مرة أخرى واناكندا يقول :

حدث هذا عندما أتى بينچي والتر إلى هذا العالم بأفكاره الثورية، أما قبل ذلك فقد كانا متشابهان إلى حد كبير .

بتر عبارته بغتة عندما توقف سامي بغتة، التفت إليه فوجده ينظر نحو شاشة كبيرة كتب عليها : (هل يهدد اسماعيل ياسين الجديد عرش هنيدي وأحمد حلمي، أم أنه لن يمتلك قدرات إسماعيل ياسين الكوميدية المعروفة؟)

هز سامي رأسه في حيرة بالغة، سأله رفيقه عن سبب توقفه المباغت وحيرته الواضحة، لكنه لم يجد سببا ليخبره بأمر يعرفه مسبقا، لذا شرعا في السير من جديد وهو يحاول التخلص من ذلك الذهول الذي عطل عقله وشل لسانه، قال اناكندا :

الآن ينبغي أن نأخذ أول طائرة ذاهبة إلى نيويورك للبدأ في تنفيذ المهمة؟

قال سامي في أسى :

الأمر ليس بهذه السهولة التي تتصورها، أنت قلت أنه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، فهل تظن أن الأقتراب منه سيكون سهلا؟

قال اناكندا في حزم :

سيكون كذلك إذا التزمت بالخطة كما شرحها لك ماسا تماما.

قال سامي في استسلام :

حسنا، لكن هناك شيء أخير يجب أن أفعله قبل السفر إلى أمريكا.

سأله اناكندا في نفاذ صبر :

وماهي أيها العبقري ؟

صمت سامي قليلا وقد علا وجهه التردد، ثم تمتم في خفوت :

أريد الذهاب إلى منزلي في هذا العالم ؟

ظن اناكندا أنه لم يسمع ما قاله جيدا، فتسائل في حيرة :

ماذا تقول؟

أعاد سامي على مسامعه العبارة نفسها، فانعقد ما بين حاجبيه وهتف معترضا :

هل تدرك ما تقول! كيف ستظهر أمامهم بوجهك؟ هل ستخبرهم أنك مستنسخ من سامي الحقيقي؟

أجابه سامي في تلعثم :

لم أفكر في تلك الإجابة بالفعل، لكن لا داعي للقلق، سأغير ملامحي ولن يتعرفني أحدهم .

قال اناكندا غاضبا :

أنت تضيع الوقت في أمور المراهقين .

قال سامي في إلحاح :

لن أطلب منك شيئا آخر، أعدك بذلك؟

قال اناكندا في استسلام :

حسنا، لك هذا، ولكن افعل ذلك بسرعة حتى يتسنى لنا الذهاب لمواجهة ذلك السفاح، بينچي والتر .

اختلج صدر سامي وهو يسمع اسم ذلك الرجل الذي أذل ناصية ماسا مرتين، ثم تسائل في قلق بالغ : هل ستكون فرصته أفضل من فرصة الكاهن ماسا، أم سيفشل وينتهي أمره للأبد؟

****

غير سامي من شكله قدر المستطاع، ألصق فوق شفتيه شاربا مستعارا، ووضع على رأسه شعرا اصطناعيا ينساح منه شعرا ناعما على جانب رأسه الأيمن، وارتدى نظارة طبية كبيرة الحجم، وخشن من صوته الناعم وغلظه، تطلع إلى نفسه في المرآة في شك ودون اقتناع، لكنه ظن أن ذلك الإنطباع بسبب ريبته الدائمة، وأن خدعته ستنطلي على أسرة نظيره في هذا العالم دون شك، لم يشعر بالإطمئنان لسبب ما، لكنه تجاهل شعوره واصفا إياه بالمبالغة، تأمله اناكندا وهو يخرج من غرفته بذلك التنكر من غير أن يبدي اعتراضا أو تأييدا، جعله موقف اناكندا السلبي يعقد ما بين حاجبيه متسائلا في صمت، مما اضطرا اناكندا أن يهز رأسه ويشير بإصبعه علامة الموافقة، قال سامي وهو يفرك يديه متوترا :

لا أدري لماذا أشعر أن قلبي منقبض بعض الشيء؟

تسائل اناكندا في دهشة :

إذا كنت تخشى القيام بتلك المهمة الصغيرة، فكيف ستقوم بمهمتك الأساسية وتخلصنا من خطر بينچي والتر للأبد!

ارتبك سامي وتلعثم قائلا :

لست أدري حقا، أنا حتى أهرب من التفكير في ذلك الأمر .

تفحصه اناكندا بعينيه في صمت، شعر سامي أن ذلك الصمت أكثر قسوة من ضجيج مزعج، إنه لا يحب الصمت الذي يرافقه تفحصا وتوجسا ومراقبة، التقط نفسا عميقا ثم هتف منفعلا وهو يسير باتجاه الباب :

هيا يا رجل ولا داعي لتلك النظرات المزعجة .

تبعه اناكندا حتى السيارة المركونة في الأسفل، احتل سامي مقعد القيادة ثم أدار المحرك وانطلق بها، قال سامي في توتر :

أنا حتى لا أدري إن كان نظيري يسكن في نفس البناية السكنية التي أسكن فيها في عالمي أم أنه يسكن في مدينة أخرى .

شعر اناكندا بتوتر صديقه لكنه التزم الصمت حتى توقفت السيارة أمام المنزل، حاول (سامي) تهدئة أعصابه المتوترة عبثا، فانتظر قليلا متحاشيا النظر إلى وجه رفيقه، ثم هبط من السيارة وصعد السلالم نحو الطابق الثالث، مد يده لكي يضغط على زر الجرس، لكن يده توقفت في الهواء لا تجرأ على لمسه، فشعر سامي بالغضب جراء توتره وتردده، لكنه كان يرى سبب خوفه هي أنها تجربة فريدة من نوعها، ولا يدرك خطورتها اناكندا نفسه، ولو كان في نفس مكانه لم يكن بحال أفضل، فكر في العودة إلى السيارة والإنطلاق بها بعيدا، محدثا نفسه : أن تلك التجربة ليست ضرورية، ولا ينبني عليها فائدة لمهمته، لكن فضوله وحرصه دفعاه دفعا للثبات وعدم الفرار، التقط نفسا عميقا آخر ثم ضرب جرس الباب خائفا يترقب، كان يتمنى أن يكون العنوان خاطئا ليهرب من تلك المواجهة، سمع صوت أقدام تقترب من الداخل فتضرع ألا يواجه نفسه أو أمه، ويبدو أن القدر استجاب له، فقد طالعته شقيقته ذات الخمسة عشر ربيعا وهي تتأمله في دهشة، ثم هتفت :

سامي! متى عدت من أوروبا، وأين زوجتك بثينة ألم تأتي معك، ولماذا أطلقت لحيتك؟

ثم أطلقت ضحكة مرحة وأردفت :

هل استخدمت كريم لتنعيم شعرك؟ وما تلك النظارة التي ترتديها؟ هل أصابتك بثينة بضعف النظر؟

لم يستطع سامي الصمود أمام تلك الأسئلة الكثيرة التي تهبط على رأسه كالحجارة المتناثرة، قالت أخته في استغراب :

ألن تدخل يا سامي؟ أمك وأختك چيهان بالداخل، وسيفرحون كثيرا عندما يروك الآن .

لم يجرأ سامي على التحدث بعد أن انفضح أمره، ورأى أن محاولة تغيير صوته محاولة ساذجة، انعقد ما بين حاجبيها في حيرة ثم قالت :

أنت تشعر بالحرج لأنك لم تدخل إلى شقتنا منذ ذلك العراك الأخير؟ حسنا سأبلغ أمي أنك تقف بالخارج ولا تريد الدخول .

استغل سامي دخولها ثم انطلق يقفز عبر درجات السلم هابطا إلى أسفل دون أن يخشى السقوط والتدحرج على درجاته بعنف، كان كل ما يشغله أن يفر بعيدا، وصل إلى السيارة التي تنتظره في الخارج، ألقى نفسه على مقعد السائق ثم انطلق بها ورفيقه يسأله في حيرة :

ماذا حدث هناك يا رجل؟

كان سامي يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة وكأنه أنهى سباقا مراثونيا في التوّ، انتظر حتى هدأت أنفاسه ثم تسائل في حيرة عصبية :

لا أدري كيف عرفتني أختي بالرغم من تنكري المعقد؟

ابتسم اناكندا قائلا في تهكم :

الأخت لا تتوه عن أخيها حتى لو غير جلده كاملا .

هتف سامي في صدمة :

لقد كشفت أمري من اللحظة الأولى، يالها من فتاة!

صمت لحظة ثم هتف عندما تذكر شيء :

لقد أخبرتني بأنني متزوج وأقضي شهر العسل في أوروبا مع فتاة تدعى بثينة، ما معنى هذا؟

قال اناكندا في هدوء :

أخبرتك من قبل أن ذلك العالم لم يعد يشبه عالمنا الذي جئنا منه .

ثم أردف :

أما آن الأوان للذهاب إلى أمريكا يا رجل؟

هز سامي رأسه نفيا وقال في عناد مجبول عليه :

كلا، لا يمكنني أن آتي إلى هذا العالم العجيب دون أن اعرف ما الذي حدث في بلدي من تغيرات .

تسائل اناكندا في غيظ خفي :

وكم ستمكث في مصر حتى تعرف ما الذي تغير في بلدك ؟

عدة أيام، أسبوع على الأكثر .

قال اناكندا في صرامة :

سأدعك تبقى ليوم واحد فقط ثم نسافر على متن الطائرة المتجهة إلى نيويورك .

وصلوا الفندق ثم صعدوا نحو غرفتيهم واناكندا يقول :

سأعد حقيبتي من الآن وأنتظرك حتى الغد .

لم تكن المدة تكفيه، لكن سامي قال :

حسنا، لن أطلب يوما إضافيا آخر .

دلف سامي إلى غرفته تاركا اناكندا في غرفته يلملم حاجياته ويجهز حقيبته، وجلس هو على أريكة وثيرة وأشعل التلفاز ليتابع الأخبار في شغف، كان هناك مباراة كرة قدم تدور بين الأهلي والزمالك، لم يكن من متابعين مباريات كرة القدم، لكنه أراد أن يتابع المباراة لدقائق، لعل هناك تغيرات حدثت في عالم الرياضة أيضا، لكنه لم يكد يشاهد المباراة حتى هب من فوق مقعده مطلقا صيحة دهشة كبيرة، فما سمعه من معلق المباراة كان شيئا أغرب من الخيال، سمع المعلق محمد لطيف يصف مهارة زيزو في المرور بين كتلة من المدافعين، ثم يمررها للخطيب الذي استلمها بمهارة فائقة قبل أن يسددها في مقص المرمى، اقترب من التلفاز ليتأكد أن تلك المباراة تلعب الآن وليس في السبعينات، سمع أيضا أسماء في نادي الزمالك كحسن شحاتة، حمادة إمام، وفاروق جعفر، جنبا إلى جنب مع بعض الأسماء الجديدة، أدرك أن وراء ذلك هو الإستنساخ، لكن إدراكه لم ينجح في تخفيف ذهوله، بدل القنوات حتى استوقفته قناة تعرض برنامجا يستضيف الفنان محمد هنيدي، والمذيعة تسأله :

ما هو شعورك عندما علمت أن العلماء استطاعوا استنساخ اسماعيل ياسين جديد؟

قال هنيدي في ثقة :

اسماعيل ياسين فنان عظيم، وأنا واحد من عشاق ذلك النجم، وأتمنى أن يكون إسماعيل ياسين القادم على نفس مستوى اسماعيل ياسين الأصلي .

سألته المذيعة :

ألا تشعر بالقلق عندما يزاحمك إسماعيل ياسين القادم على عرش الكوميديا؟

ضحك هنيدي ضحكته الشهيرة، ثم قال في ثقة :

كلا بالطبع، وأتمنى أن ينال إسماعيل ياسين الجديد ما ناله إسماعيل ياسين الأب من شهرة في عالم الكوميديا.

ثم ضغط أزرار الريموت ليغير القناة، لفت انتباهه احمد السقا على أحد القنوات وهو يقول في عصبية :

كان من المفترض أن نلعب أنا وأحمد عز دور البطولة في فيلم المصلحة، لكن شكري سرحان ورشدي أباظة خطفا منا الفيلم بعد أن قرأنا السيناريو وأوشكنا على إمضاء العقد .

سأله المذيع في اهتمام :

هل تعني أن الفنانين المستنسخين يمثلون خطرا على الجيل الحالي من الفنانين؟

لوح بيده في حدة ووجهه ينطق بسخط لم يستطع إخفائه، ثم قال :

بالتأكيد، لا يوجد عدالة في توزيع السيناريوهات، بل إن المنتجين يسرعون بعرض الأدوار عليهم لمجرد أنهما مستنسخين من فنانين عظماء .

قال المذيع باسما :

لكنهما أديا دورهما في براعة ؟

هتف أحمد السقا في ثقة :

كنا أيضا سنؤدي أدوارنا ببراعة.

هل هذا معناه أن زمنكما قد ولى وانتهى؟

هتف السقا في عصبية :

لو أصر المنتجون على تجاهلنا، فسيعني هذا أن يخسر الجمهور جيل يمتلك موهبة لا تقل عظمة عن جيل الخمسينات والستينات .

شكره المذيع باسما، ثم واجه الكاميرا قائلا :

يبدو أن السنوات القليلة القادمة ستشهد صراعا حاميا، بين الجيل الحالي وجيل الزمن الجميل، ولنتفادى ذلك الصراع المرتقب، ينبغي على المخرجين والمنتجين

أن يوفقوا بين الأجيال المختلفة، وأن يستفيدوا من مواهب الجميع حتى يرقى الفن ويستمتع الجمهور.

أغلق سامي شاشة التلفاز وهو يدرك أن هذا العالم لا ينتمي له على الإطلاق، وأنه ما إن ينهي من مهمته حتى يعود إلى عالمه الذي يعرفه، تلك المهمة التي لا يعرف كيف سينفذها، ولا كيف سيخرج من ذلك العالم حيا ؟

****

قضى سامي ليلته يفكر في ما حدث معه عند منزل نظيره، سائه أن يتسبب في أذى لنظيره الذي سيعود من رحلته فيتفاجأ بشقيقته الصغرى تحكي له ما حدث، كان يشعر باستغراب حقيقي تجاه هذا العالم الموازي، لقد نظر إلى تلك الفتاة ورآها تشبه شقيقته كأنها نسخة مماثلة، لكن لسبب ما لم يشعر بما يشعر به تجاه شقيقته الحقيقية، كان يتمنى رؤية أمها وأختها ويتطلع إلى ردود أفعالهم، لكن خوفه من التجربة المخيفة دفعته للهرب من المواجهة، كان يشعر أيضا بلهفة حقيقية تدفعه لمعرفة تاريخ هذا العالم، خاصة منذ جاء بينچي والتر إليه، لم تدعه لهفته للإنتظار حتى الصباح،لذا نزل من فوره إلى بهو الفندق، واختار رجلا كهلا يبدو عليه الوقار جالس يتصفح جريدة، تقدم نحوه ثم استأذنه أن يجلس معه ليستفسر عن عدة أشياء فأذن له، سأله في حرج :

اسمح لي أن أسألك بعض الأسألة التي قد تبدو غريبة على مسامعك بعض الشيء.

أومأ الرجل برأسه موافقا في بساطة، فقال سامي :

منذ متى تمت عمليات الإستنساخ للبشر ؟

قال الرجل :

جرت أول عملية استنساخ للبشر في أمريكا على يد العالم الأمريكي (بينچي والتر) في عام ألف وتسعمائة وثمانون، والذي يشغل منصب الرئيس الأمريكي الحالي منذ عدة أعوام، ثم تمت معاهدة مع عدة دول لاستخدام تقنية استنساخ البشر، وكانت من بينهم مصر، التي سارعت باستنساخ كل من يمثل لها أهمية قومية، ككبار الفنانين ولاعبين الكرة و الأدباء و...

سأله سامي في لهفة :

هل تعني أن نجيب محفوظ له نسخة؟

أومأ الرجل برأسه وقال :

نعم، وليس نجيب محفوظ فقط بل يوسف إدريس وخيري شلبي ويحي حقي وغيرهم، بل إن الحكومة المصرية استطاعت منذ عدة أشهر قليلة مع توصل الأمريكان لاستنساخ الأموات، إلى استنساخ بعض من ماتوا من العظماء قبل عام ألف وتسعمائة وثمانون، كأمثال يوسف السباعي وتوفيق الحكيم وطه حسين، ومن الفنانين إسماعيل ياسين ونجيب الريحاني وذكي رستم، ومن العلماء سميرة موسى ويحي المشد وعلى مصطفى مشرفة وغيرهم .

وهل يصبح هؤلاء المستنسخين مثل آبائهم ؟

أجابه الكهل قائلا :

هم يلقون رعاية خاصة ويتعلمون فنون وعلوم آبائهم حتى يكونوا مثلهم وامتدادا لهم .

هز سامي رأسه غير مصدق لما يسمع، ثم تذكر شيئا بغتة فقال :

بالمناسبة من يحكم مصر الآن بعد ثورة يناير؟

تسائل الرجل في دهشة :

ثورة يناير! وماهي ثورة يناير تلك؟

تلعثم سامي وهو يقول :

ألم تقم في مصر ثورة منذ عام تقريبا ؟

قال الكهل وملامح الدهشة لم تفارقه :

كلا، لم تقم في مصر ثورة منذ ثورة يوليو المجيدة، عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين .

بح صوت سامي وهو يسأله :

ومن يحكم مصر الآن؟

حملق الرجل في وجهه وهو يسأله :

أخبرني، أين كنت طوال السنوات الفائتة حتى تجهل كل تلك الأمور؟ يبدو أنك كنت مسجونا في سجن لا تطلع عليه شمس ولا قمر .

وجدها سامي عذرا مناسبا فأومأ برأسه إيجابا متظاهرا بالخجل، فأردف الرجل في بساطة :

نسخة السادات هو الذي يحكمنا الآن منذ عام تقريبا، بعد أن تنازل له مبارك عن السلطة خشية أن تقوم ثورة عليه، وقد بلغ عمر السادات الجديد واحد وعشرون عاما، وللذكر، فالسادات هو أول مصري يستنسخه العلماء المصريون بعد معاهدة الإستنساخ مع الولايات المتحدة الأمريكية، وقد حدث ذلك قبل اغتياله بعام واحد .

كان لا يزال يبدو على وجه سامي الدهشة حاضرة بقوة، فأبدى الرجل الأسى وتمتم متحسرا :

يبدو أن ذلك السجن الذي كنت تقبع فيه شديد القسوة بالفعل .

قال سامي متلهفا :

هل هناك شيء آخر تود إخباري به قبل أن استأذن للإنصراف؟

قال الرجل في جدية :

هناك أشياء كثيرة تحتاج للإطلاع عليها، أهمها أن الناس تتوقع نهاية العالم في هذه السنة، وزاد من يقينهم بذلك استنساخ الأموات منذ عدة أشهر، وما أكسبهم يقينا قويا ذلك الصراع الدائر بين المعسكرين الشرقي والعربي، حتى بات الناس يتوقعون أن تبدأ الحرب العالمية الثالثة في أي وقت من العام الحالي .

قال سامي في ثقة :

لا أعتقد أن ذلك سيحدث، تبدو بعض المناوشات السياسية التي لن تثمر عن حرب .

ثم هم أن يغادر فأسرع الكهل قائلا وهو يشير إلى الجريدة :

بما أنك لاتدري ماالذي يحدث في الدنيا، فلابد أن تحضر تلك المؤتمرات الثلاثة التي ستقام خلال هذا الأسبوع .

أية مؤتمرات ؟

قال الرجل في حماس :

سيكون هناك مؤتمر يوم الأحد القادم بين نسخة محمد عبدالوهاب وعمرو دياب للنقاش حول نقاط الإختلاف بين الفن القديم والحديث، ومؤتمر يوم الثلاثاء بين

نسخة شكري سرحان وأحمد السقا لمناقشة الصراع الدائر بين الجيل القديم والحديث من الفنانين، ومؤتمر يوم الأربعاء، بين نسخة نجيب محفوظ ويوسف زيدان لمناقشة أوجه الإختلاف بين الأصالة والحداثة، ثم أردف الكهل ساخرا :

يبدو أن نهاية العالم ستكون في هذا العام بالفعل .

قال سامي في أسى :

أتمنى أن أبقى في مصر حتى نهاية الأسبوع القادم لكن ليس ذلك في استطاعتي للأسف .

قال الكهل :

إذن لا تنسى المباراة التي ستقوم الليلة بين منتخبي البرازيل والأرچنتين، هل تدري من سيكونا كابتنا الفريقين؟

أومأ سامي برأسه نفيا في ترقب، فأردف الرجل في إغراء :

نسختي بيليه ومارادونا .

ابتسم سامي في حيرة ثم قال :

يبدو أنني وقعتُ في حب ذلك العالم رغما عني .

شكره سامي وأبدى نحوه امتنانا كبيرا، ثم مضى عائدا إلى غرفته، كان يفكر كيف أن ذلك العالم بفعل قدرة علمائه على الإستنساخ أضحى عالما عجيبا وفريدا للغاية، إنه يشعر أنه يعيش عالمه في فترة الثمانينات، مع الحاضر بصخبه و رتمه السريع، كأن أحدهم صنع خليطا عجيبا مزج فيه بين الماضي مع الحاضر بطريقة لم يصل إليها السحر من قبل، كان قد سمع في صغره تلك المقولة دون أن يصدقها : (العلم يصنع ما يعجز عنه السحر.)
إلا أنه أصبح يصدقها الآن بيقين تام. دلف إلى حجرته وألقى جسده المنهك بفضل عقله الذي لا يستطيع استيعاب ما حوله من هول ما يراه ويسمعه، أغمض عينيه ثم وضع وسادة على رأسه لعله يتمكن منه النوم بعد كل تلك الأحداث المثيرة، لكن عقله الذي انفتح عن آخره بفعل الإثارة والحماس، عجز أن ينغلق ويستسلم للنوم في سهولة.

****

ارتفعت الطائرة تحلق في سماء القاهرة متجهة إلى سماء نيويورك، وعلى متنها جلسا سامي واناكندا على مقعدين متجاورين، كان قلب سامي ينبض بخوف يبلغ حد الذعر، لكنه أخفى مايدور في أعماقه مبديا وجها هادئا يحمل ابتسامة واسعة، لكن تلك الإبتسامة لم تكن متوهجة، بل كانت باهتة منطفئة، وكان اناكندا يعلم أن سامي يبذل جهده ليخفي مشاعره المضطربة، لكنه تظاهر بالعبث بهاتفه المحمول يقلب محتوياته وملقيا نظرة سريعة على صندوق الرسائل، ثم داعب النوم عينيه فأغلق هاتفه، ثم أغمض عينيه واستسلم لسلطان النوم في خضوع، تاركا سامي يحاول عبثا التغلب على قلقه الذي لا ينفك يقض اطمئنانه ويهز ثقته، التفت سامي ملقيا عليه نظرة مستغربة، ثم غمغم قائلا :

لا أدري كيف يقنعك النوم بهذه السرعة !

وبعد عدة ساعات من الطيران المتواصل، حطت الطائرة بعجلاتها الكبيرة على أرضية مطار نيويورك في نعومة، تخللتها هزة بسيطة لم ينتبه لها سامي وعقله مشغول في أمور شتى، أيقظ سامي رفيقه وأنهوا إجراءات السفر في سرعة، ثم انطلقوا نحو الفندق في سيارة أجرة، انتبهوا أثناء طريقهم إلى تلك المظاهرات الحاشدة، التي تطالب بوقف عمليات استنساخ الأموات قبل أن تتسبب في نهاية العالم من جراء غضب الإله، كانت تلك المظاهرات مشابهة لمظاهرات القاهرة بيد أنها أكبر حجما، تبادلت بينهم نظرات قلقة ومتوجسة، أيقنوا من داخلهم أن مهمتهم ضرورية لبقاء العالم. نزلوا في فندق خمس نجوم واستأجروا غرفتين متجاورتين، لكن اناكندا لم يدلف إلى حجرته على الفور، بل ذهب لغرفة سامي ثم قال له :

نم بضعة ساعات لتسرتيح، ولتطرد عنك القلق والمشاعر السلبية، فيبدو أنك لم تنم في الطائرة .

لوح سامي بيديه في توتر قائلا :

لا تشغل بالك بي، أنا بخير حال .

تأمله اناكندا للحظات ثم ابتسم وقال :

لا داعي للقلق من الآن يا رجل، مازال أمامنا شهرا كاملا حتى تحين ساعة الحسم .

حاول سامي الإبتسام لكن توتره منعه فأشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى، ربت اناكندا على كتفه عدة مرات ثم تركه ومضى نحو غرفته، خلع ملابسه ثم دلف إلى

الحمام وفتح الدش ونزل أسفله، ثم مضى نحو الفراش وحاول إكمال نومه الذي قطعه وصول الطائرة .

أما سامي فقد جافاه النوم تماما، كأن خصام عنيف وقع بينهما، منعه عينيه المنتفختين واحمرارهما من النزول للتمشية والإختلاط بالناس بوجهه المتناوم، فظل راقدا على فراشه صامتا دون عمل شيء، راح بفكره إلى اللحظة التي قابل فيها الكاهن ماسا، وخطته المجنونة لخطف رئيس الولايات المتحدة وإعادته إلى عالمه، بحجة حماية العالم من قيام حرب عالمية ثالثة، كان يدرك مقدار البغض والكراهية الذي يكنهما ماسا في صدره تجاه بينچي والتر، بعد أن ذاق مرارة الهزيمة على يديه مرات متتالية، همس في أذنه صوت خافت له صليل كصليل أفعى مجلجلة : إن الكاهن ماسا يستغلك كما استغل العديدين من قبلك لتخليص حساب قديم بائت بينهما، وأنك لا تمثل له فارق في حال موتك أو حياتك، المهم أن يعيد الأمريكي إلى عالمه حتى يحفظ ماء وجهه، وأما تلك الحكاية التي قصها على مسامعك عن خطورة تواجد بينچي على العالم بأسره، وإمكانية إبادته بسبب سعيه المتواصل في مشروع استنساخ الأموات، إنما هي محض افتراءات كاذبة.

وراحت صورة بينچي تتخذ شكلا مغايرا لما كانت عليه في ذهنه، راحت تلك الصورة تبدي وجها يحمل ملامح الطيبة، وتظهر خطوطا عريضة أسفل العينين تبرز رحلة العناء، تلك الرحلة التي أنفق فيها عمره، وبذل فيها جهده من أجل تحقيق حلمه بقدرة العالم على استنساخ من مات من العظماء، ذلك المشروع الذي يعتقده هو أمرا مشروعا لا يمثل خطورة على العالم من قريب أو بعيد.

لم ينكر سامي أيا من تلك الأفكار الدخيلة، التي تسبح بحرية داخل محيط نفسه المليء بأمواج حيرته العاتية، وكأن مياهه الهائجة مألوفة لها منذ ولادتها. حاول إخماد تلك المظاهرة التي ينظمها ذلك الهاجس ذا الصليل المزعج دون فائدة، تقلب على فراشه ذات اليمين وذات الشمال، ثم هب قائما ودلف إلى الحمام وفتح ماء الدش البارد، فانهمرت المياه الباردة على جسده كرصاصات صغيرة باردة، لم تفلح المياه ببرودتها في قمع حرارة أفكاره الملتهبة، لكنها أفلحت في تسكينها قليلا فاقتنع بما حازه، ثم ارتدى منامته ودخل في فراشه في محاولة منه لإغراء النوم للدخول عبر عينيه، ولدهشته، بدأ النوم يستجيب لتضرعاته في بطأ، ماشيا في تؤدة وثقة نحو النافذتين المفتوحتين على مصراعيهما، ينتظرانه أن يدلف من أحدهما ثم يحكمان إغلاقهما خلفه .

****

عندما أشارت عقارب الساعة إلى السابعة والربع مساءا، هبطت طرقات هادئة حاسمة على باب حجرته ففتح عينيه في دهشة، لا يذكر كيف نام، يبدو أن تجاهل الأفكار المقلقة يؤتي ثماره بالفعل، ذهب يفتح الباب وتطلع إلى اناكندا المتأنق في حلة سوداء، ثم قال معتذرا :

آسف على التأخير، سأكون جاهزا خلال عشرة دقائق على الأكثر .

لم تمض عشر دقائق بالفعل حتى لحق باناكندا الجالس في انتظاره في بهو الفندق، ثم سارا معا عدة أمتار حتى مطعم قريب، تأمل اناكندا حلة سامي البنية ثم قال :

تعجبني حلتك البنية كثيرا .

شكره سامي وأثنى على حلته السوداء الأنيقة، وضع النادل أمامهما وجبة العشاء فبدآ في تناول الطعام على الفور، قال اناكندا :

يسعدني أنك نمت بالفعل، فهذا معناه أنك تغلبت على مشاعر الخوف لديك؟

ابتسم سامي قائلا :

قلت لنفسي لاشك أن اناكندا يغط في نوم عميق، على الرغم من أن دوره في المهمة لا يقل خطورة عن دوري،فلماذا يكون الخوف من نصيبي أنا وحدي؟

قال أناكندا باسما وهو يلتقط عن طريق الشوكة قطعة من اللحم ثم يلقمها فمه :

لقد كان الخوف من نصيبي أنا إذن .

هتف سامي في استغراب :

هل تقصد أنك لم تنم لأنك تشعر بالخوف؟

أومأ الأفريقي برأسه إيجابا وقال :

هذا ما حدث بالفعل .

منعته الدهشة من الرد فأمسك عن الكلام، قال اناكندا :

الخوف ليس شر كله، فالخوف يمنحنا القدرة على الإستمرار في تحقيق أهدافنا مخافة أن نفشل، يدفعنا للنظر حولنا مخافة أن نؤخذ على غرة، يدعمنا للحفاظ على ما حققناه من نجاح مخافة أن نخسر ما جنيناه .

وافقه (سامي) بإيماءة من رأسه وهو يمضغ قطعة لحم صغيرة، ثم قال بعد برهة :

لكن الخوف يمثل مشكلة لي منذ الصغر عجزت عن حلها دائما، فهو يدفعني دائما للهرب من المواجهة، مواجهة مشاكلي، مواجهة أعدائي، مواجهة مخاوفي والتي كانت تتمثل في أشياء كثيرة، كلب الجيران، زميلي الضخم في المدرسة الذي كان يسرق مني أقلامي باستمرار، ومدرسي صاحب الصوت الجهوري والعصا الغليظة، والفتاة التي كنت أشعر أن الأرض تميد بي وتضطرب حين أراها، أخشى أن تكون تلك الصفة مازالت متأصلة في نفسي حتى الآن .

قال اناكندا :

الهروب من مكامن الخطر أمر مفطور عليه الإنسان، لكن مواجهته أمر حتمي لا مناص عنه .

قال سامي في استسلام :

أعلم ذلك بلا شك، لكني أخشى أن أهرب عندما تحتم علي الظروف الثبات .

قال اناكندا في ثقة :

كلا، بل ما أثق به أنك ستنفذ مهمتك بنجاح على الرغم من خطورتها، وستعيد إلى ماسا حقه المسلوب، وستنقذ العالم من خطورة سيطرة بينچي على الحكم في أمريكا، وسعيه الدئوب لاستنساخ الأموات .

التزم سامي الصمت وهو يفكر في مهمته التي من المفترض أن ينفذها في عالم ليس عالمه، لكنه مع كل ما يشعر به من خوف قال في حزم :

سننجح في تلك المهمة مهما كانت الصعوبات .

وابتسم اناكندا في ثقة .

****

على مدار شهرا كاملا وبينما كانا ينتظران نقطة الصفر، قضى سامي واناكندا رحلات كثيرة، ذرعا فيها ولايتي نيويورك وواشنطن طولا وعرضا، فوجئت أعينهما بالعجيب، وصدمت أذانهما الأغرب، وباتا كأنهما يعيشان وهما خبيثا، أو كابوسا لعينا يتمنون الإستيقاظ منه، ولو بمطرقة حديدية ثقيلة، فقد انقسم الناس إلى نصفين، قسم يؤيد استنساخ الموتى ويشجعه بحماس جارف، وقسم يحذر من

غضب الإله وعقابه، وأن الحرب آتية لتبيد الأخضر واليابس وتفني البشر عن بكرة أبيهم، وراح الرئيس الأمريكي بينچي والتر يطمئن الناس ويدعوهم إلى التوحد صفا واحدا لمواجهة حلف الإرهاب، الذي يتألف من الصين وروسيا وكوريا الشمالية وحلفائهم، واعدا إياهم بالإنتصار في هذه الحرب، كما انتصروا من قبل في الحرب العالمية الثانية، كل ما يحدث كان يتابعه سامي واناكندا بأعين غاضبة وقلوب متقدة، منتظرين اللحظة المناسبة لبدأ الخطة. في تلك الليلة كان سامي واناكندا يشاهدون عبر التلفاز برنامجا كان فيه الرئيس الأمريكي بينچي والتر _ بعد أن حلق لحيته مذ أصبح رئيسا _ ضيفا على برنامج شهير والمذيع يسأله :

سيدي الرئيس، كثير من الناس مذعورين من الحرب القادمة، ويسمونها حربا كارثية آتية لتفنى البشرية كلها، كوريا الشمالية والصين وروسيا مصرون على دخول حربا مع أمريكا من أجل الحصول على تقنية استنساخ الأموات، فهل تلك التقنية تستحق أن تقوم من أجلها حرب نووية كبيرة؟

ابتسم بينچي والتر ثم قال في هدوء وثقة :

أنا أستغرب سؤالك لكني سأجيبك، تقنية الإستنساخ لديها القدرة للحفاظ على مواهبنا الفذة وعقولنا النادرة دون أن تضيع، وهذا معناه أن نظل الأمة الاقوى إلى الأبد، لأننا نملك بين يدينا عقار الخلود، الذي سيمكننا من إستمرار إعادة إنتاج عباقرتنا وأفذاذنا دون انقطاع، في حين أن أعدائنا سيحرمون من مواهبهم وعقول أفذاذهم بمجرد موت أصحابها.

سأله المذيع :

لكن الدول الثلاث يقولون أن تلك التقنية لن تساهم في تقدم البشرية للأمام، بل على العكس من ذلك، ستجعلنا نعتمد على العقول القديمة فقط، دون السماح للعقول الجديدة بأخذ مكانها المناسب لها، لعدم توفر فرص عادلة لهم.

سأله الرئيس ساخرا :

ولماذا إذن يستعدون إلى الدخول في حرب، مادامت تلك التقنية لا تساهم في التقدم على حد قولهم؟

قال المذيع :

يقولون أنهم يريدون الحصول على التقنية من أجل استنساخ زعمائهم الراحلين فقط .

أطلق بينچي والتر ضحكة هازئة، ثم قال :

إنهم يريدون استنساخ الزعماء لإعادة امبراطورياتهم الهالكة، ويريدون استنساخ علمائهم وفنانيهم وعباقرتهم لكنهم لا يفصحون عن نواياهم، ولا تنس غضب الشعب الصيني عندما رفضنا استنساخ فنانين صينين مثل بروس لي وچاكي شان .

ابتسم المذيع مجاملا، ثم قال:

لكن هناك من يؤيد هذا القول من العلماء أنفسهم، فهم يرون أن انتشار عمليات الإستنساخ جعلت الصناعات في تراجع وليس العكس، ولن يمر وقت طويل حتى تتقدمنا الصين وروسيا ويسبقوننا أيضا.

اربد وجه الرئيس الأمريكي، ثم أجاب :

هذه نظريات ليس لها أساس من الصحة، وإنما مجرد تخوفات وتكهنات يرددها أناس لا علم لهم .

قال المذيع :

يرى الخبراء أن تلك الحرب ستقضي على العالم كله، وما يؤيد تلك الفكرة، هي النبوءة التي تخبر أن نهاية العالم ستكون في عام ألفين واثني عشر، فهل لسيادتكم رأي مخالف ؟

لوح الرئيس بيده في عظمة قائلا :

لا يعني تملك الصين وروسيا لأسلحة نووية أنهم يكافئوننا قوة وتكنولوچيا، هناك أمور أخرى تحسم نتيجة الحرب .

أومأ المذيع الشهير برأسه متفهما ثم قال :

هناك الكثير يتسائلون في فضول: ماالذي سنخسره إذا منحناهم تقنية استنساخ الموتى، وأغلقنا باب الحرب القادمة المرعبة؟ خاصة وأن هناك عشرات الدول التي منحتهم الحكومة الأمريكية حق امتلاك تلك التقنية بالفعل، فماالذي يضيرنا إذا منحنا تلك الدول حق امتلاك تلك التقنية أيضا؟

عاد بينچي بظهره إلى الوراء قائلا بصرامة :

نحن لا نعطي تقنياتنا وعلومنا المتطورة إلا إلى أصدقائنا المقربين، أما من لا تجمعنا بهم مصالح مشتركة، فمن المستحيل أن نطلعهم على تكنولوچياتنا المتطورة، هكذا يسير العالم.

شكر المذيع الرئيس ثم أنهى برنامجه بعبارات معتادة .

التفت سامي إلى اناكندا قائلا بنبرة يأس :

مجرد التفكير في أن من نسعى لعزله هو رئيس أمريكا نفسه أمر يبعث على اليأس والإحباط، بل إن مجرد السعي للإقتراب منه أمر محفوف بالخاطر .

سأله اناكندا :

هل تشك في تلك الخطة التي أملاها عليك الكاهن ماسا بنفسه ؟

أسرع سامي يقول :

كلا، إنها خطة بسيطة وفعالة للغاية، لكن ما يقض مضجعي هي تلك التي تتعلق بهروبنا بعد أن ننفذ الجريمة .

تمتم اناكندا في دهشة :

جريمة !

قال سامي في عصبية :

نعم جريمة، إننا نسعى لاختطاف رئيس منتخب، ثم إعادته إلى عالمه بالقوة دون رغبة منه، وإذا لم نستطع اختطافه وإعادته فإننا يجب علينا أن نقتله، لكن حتى لو كان ذلك سينقذ العالم كما تقولون، فهي جريمة كاملة مع سبق الإصرار والترصد .

تمتم اناكندا قائلا :

لقد رأيت بنفسك كيف يشتعل العالم بسبب ذلك الحقير، وكيف يستعد للقيام بحرب نووية تنهي ذلك العالم في طرفة عين .

هتف سامي بعناد :

لن يغير هذا من كونها جريمة مكتملة الأركان .

صاح اناكندا في غيظ :

أفق يا رجل ولا تجعل نفسك تخدعك، إن ما ننوي فعله يقع تحت بند الضرورات تبيح المحظورات، ليس إلا.

هز سامي رأسه في عصبية ثم هتف :

حسنا حسنا، فهمت، ينبغي أن أغوص بيدي في الدماء، حتى أمنع العالم من الغوص في مستنقع كامل من الدماء والأشياء .

أشار اناكندا بيده قائلا :

بالضبط.

قال سامي في استسلام :

ومتى سنبدأ؟

قال اناكندا في حزم :

غدا نكون قد أتممنا شهرا كاملا، ثم نبدأ تنفيذ خطتنا.

لم يعارض سامي كلامه ولم يؤكده، وإنما راح بذهنه بعيدا، بعيدا جدا، في عالمه الحقيقي، فكر في أمه وإخوته، ثم تسائل: هل سينجح في تنفيذ الخطة الشيطانية والعودة إلى عالمه، أم سيفنى مع العالم عندما تقوم الحرب النووية؟

أعادته تلك النقطة إلى ذلك العالم مرة أخرى، على الرغم من كونهما عالمين منفصلين، لا يجمعهما سوى جسر غير مرئي يغلفه ضباب كثيف، إلا أنه صار يشعر أن مصير العالمان مرتبطان ببعضهما برباط وثيق لا ينفصل، وأنه إذا نجا ذلك العالم فسينجو عالمه.

****

دلفا إلى مطعم شهير يقبع في أحد أحياء واشنطن الراقية، طلبا قائمة الطعام ثم اختارا منه ما يلبي رغباتهما، وأثناء تناولهما الطعام راحا يتجادلان في حدة، ثم أخذت حدة أصواتهما تعلو حتى لفتا انتباه الجميع، هتف سامي :

لا أريد العودة معك.

صاح اناكندا غاضبا :

لقد انتهى شهرا كاملا وحان زمن العودة كما اتفقنا.

صاح سامي :

ما زلت أحتاج إلى شهر آخر حتى يتسنى لي رؤية الكثير من المدن في أمريكا.

هب اناكندا واقفا،ثم صاح :

كلا، ليس لك الحق في طلب المزيد .

هب سامي واقفا بدوره قائلا :

لن أعود الآن حتى أزور كل الأماكن التي أود زيارتها.

أمسك اناكندا بساعده وجذبه بعنف قائلا في صرامة :

هل تظن أن لديك الحق في الرفض أو القبول؟

جذب سامي ساعده من بين أصابع اناكندا القوية زاعقا :

سأمكث أطول فترة ممكنة شئت أم أبيت .

كان الناس يشاهدون الجدال العنيف الدائر بين الرجلين، وعلى وجوههم يظهر امتعاض واضح، لكن ذلك الإمتعاض تحول إلى ذعر، عندما اشتبك الرجلان بغتة في عنف، وراحت اللكلمات تتبادل بينهما في قوة، شهق البعض في خوف، وحملق البعض الآخر في القتال الدائر، وهرب الباقون من المطعم كأن قنبلة يدوية توشك على الإنفجار، ثم تدخل رجال الأمن للحيلولة دون الإنهماك في مزيد من العنف، واستطاعوا السيطرة على الرجلين بصعوبة قبل أن يستدعوا رجال الشرطة، لم تمض عدة دقائق حتى حضرت سيارة الشرطة واصطحبوهم إلى مركز شرطة قريب، وهناك، اتهم سامي اناكندا بأنه تهجم عليه بعنف جراء رفضه العودة معه إلى عالمه، لم يفهم ضباط الشرطة حديث سامي الغريب على أسماعهم، ثم أودعوهم السجن حتى يعرضا على القاضي، لكن كان هناك من دفع كفالتيهما وخرجا في مساء نفس اليوم، وهنا تمت الخطوة الأولى من الخطة المعقدة التي وضعها ماسا، وبدأت الخطوة الثانية والأخطر، فبعد يومين فقط من ذلك العراك ظهر سامي في البرنامج الشهير (العرض اليومي مع تريفور نواه)، استضافه مقدم البرنامج الساخر (تريفور نواه) قائلا :

مرحبا بك يا سامي في هذا البرنامج، سامي أخبرني هل أنت مصري؟

اعتدل سامي في جلسته قائلا :

نعم، أنا مصري وأقيم في القاهرة.

قال تريفور :

لقد طلبت الظهور في برنامجي، والسماح لك بالحديث عن موضوع ما، فما هو هذا الموضوع؟

قال سامي في لهجة تعطي انطباعا بخطورة ما يتكلم عنه :

أنا اخبرتك أنني مصري، لكني لستُ من هذا العالم، وإنما جئتُ من عالم آخر، عالم يوازي هذا العالم.

انطلقت ضحكات الجماهير الرنانة، زينت وجه تريفور ابتسامة مزجت بين السخرية والدهشة، ثم هتف :

من عالم آخر مواز لعالمنا !

انطلقت القهقهات من حناجر الحضور كالرعد مرة أخرى، في حين مال تريفور ناحيته وقال :

حسنا، أخبرني يا سامي، كيف حضرت إلى عالمنا؟

التقط سامي نفسا عميقا متوترا، ثم اندفع قائلا :

لقد حضرت إلى هذا العالم عندما سمح لي كاهن أفريقي يدعى ماسا بعبوره، عن طريق جسر يكتنفه ضباب كثيف.

أطلق المتفرجون قهقهات عالية وتريفور يردد :

جسر يكتنفه ضباب، حسنا، ثم ماذا؟

استطرد سامي في نبرة حماسية :

رافقني إلى عالمكم هذا رجل يدعى اناكندا، وهو أحد حراس ذلك العالم، والمسؤول عن عودتي إلى عالمي مرة أخرى.

لم يتكلم تريفور هذه المرة، وإن بدا على وجهه انطباع ساخر، ثم قال :

حسنا ياسامي، أنت جئت إلى عالمنا عن طريق جسر يمتلأ بالضباب، ويرافقك حارس يدعى اناكندا، أليس كذلك؟

أومأ سامي برأسه متجاهلا قهقهات الجمهور التي تنطق بالسخرية والتهكم، فسأله تريفور :

دعني أسألك إذن، بما أنك قد أتيت من عالم مختلف عن عالمنا، ما أوجه الإختلافات بين العالمين؟

لوح سامي بيده قائلا والدهشة تعلو وجهه :

كنت أظن أن الإختلافات ستكون بسيطة، لكن عندما أتيت عالمكم، أدركت أن ثمة إختلافات كثيرة بين العالمين، وسبب هذا الإختلاف الجذري هو عمليات الإستنساخ التي بدأت في عام ألف وتسعمائة وثمانون، على يد بينچي والتر.

قال تريفور مصححا :

هل تعرف أن بينچي والتر العالم الأمريكي، هو نفسه رئيس أمريكا في هذه اللحظة؟

هتف سامي :

بالتأكيد، هو رجل عظيم، استطاع تغير شكل العالم كله، واستحق عن جدارة منصب رئيس أمريكا.

سأله تريفور :

فما المشكلة إذن أيها البطل؟

قال سامي :

المشكلة أن ذلك الحارس لم يمنحني سوى شهر واحد فقط، ولكني لم أستطع زيارة كل الأماكن التي تمنيتُ زيارتها في تلك المدة القصيرة، وعندما طلبت منه زيادة المدة رفض بشدة، ثم تعارك معي بعنف بالغ في المطعم الذي كنا نتناول طعامنا فيه، ولهذا تم إيداعنا السجن ثم دفعنا كفالة وخرجنا، ولكنه هددني إذا لم أعد معه غدا فإنه سيستخدم معي عنفا مفرطا .

مط تريفور نواه شفتيه بطريقة مضحكة أثارت الجمهور، ثم قال :

عنفا مفرطا! هل سيستخدم مثلا إزميلا كبير لتهشيم رأسك، أم منشارا كهربائيا لفصل جسدك ؟

انطلقت الضحكات مرة أخرى، فقال سامي في خوف :

لا أعرف، ولكن هؤلاء الحراس يتسمون بالقسوة والجبروت .

سأله تريفور في جدية هذه المرة :

أخبرني، هل زرت مصر في هذا العالم؟

أومأ سامي برأسه إيجابا في صمت، فسأله تريفور :

وهل كانت مختلفة عن مصر التي جئت منها؟

ضحك الجمهور على الرغم من نبرة الجدية التي يتكلم بها المذيع، لكن سامي قال وكأنه لا يسمع تلك الضحكات التي لا تنقطع من حوله :

تختلف كثيرا بالفعل، فأنا رأيت اثنين من الفنانين الذين ماتوا في عالمنا منذ سنوات طويلة، رأيتهم في هذا العالم يمثلون فيلما حديثا قام ببطولته فنانين آخرين في عالمي الأصلي .

قال تريفور :

لابد أنهم مستنسخون .

قال سامي :

بالتأكيد ، لكنهم يبدون كالأصل تماما، حتى في حركاتهم وطريقة تمثيلهم القديمة .

ابتسم تريفور قائلا بجدية لم يتخلى عنها بعد :

نعم، لأن نسبة الإستنساخ وصلت إلى مائة في المائة، أنا نفسي لدي نسختين طبق الأصل مني، ولديهم كل صفاتي دون أية تغيير .

قال سامي متظاهرا بالخوف :

لكني أخشى أن تصدق النبوءة وتصبح نهاية العالم في هذا العام إذا قامت الحرب العالمية النووية، التي يتحدث عنها الجميع منذ قدمت إلى هذا العالم.

سأله تريفور وقد عادت إليه روحه الساخرة :

وهل حدثت في عالمك حربا عالمية ثالثة؟

لم يلتفت سامي إلى القهقهات المتفجرة من الحناجر على هيئة قنابل يدوية صغيرة، ثم قال:

كلا، في عالمي لا يتكلم الناس عن الحرب، لأننا في عالمنا لم نصل إلى تقنية الإستنساخ بعد .

صاح تريفور في حماس :

هذا معناه أن عالمنا أكثر تطورا من عالمكم .

قال سامي في نبرة حازمة صارمة :

لكن عالمي أكثر استقرارا .

صفق تريفور بيده في إعجاب، وتعالت أصوات الجمهور في حماس جارف، فأردف سامي :

وأقل تعقيدا من عالمكم المليء بالمتناقضات .

تعالت الصيحات بين حماس واستهجان، ثم قطع تريفور تلك الصيحات بسؤال أخير :

وما الذي ستفعله لتظل في عالمنا مدة إضافية؟

قال سامي ملوحا بيديه في حيرة :

سأحاول إقناعه بالأمر، وإذا أصر على موقفه سأستغيث بالشرطة لحمايتي، أو حتى بالحكومة الأمريكية .

وقف الجمهور يصفق في حماس واستحسان، وأنهى تريفور نواه هذا اللقاء بعبارته الأخيرة قائلا :

ربما لا يكون عالمنا مستقرا كفاية، لكنه أكثر سحرا وإثارة من العوالم الأخرى بالتأكيد .

قال عبارته وانطلقت صيحات حماسية من حناجر المئات .

****

كان انعقاد حاجبي بينچي والتر على أشده، بعد انتهاء البرنامج الساخر الذي يحرص على مشاهدته منذ سنوات، راح يفكر فيما رآه منذ قليل، هو وحده في هذا العالم يدرك أن ماقاله ذلك الشاب المصري حقيقي تماما، هو وحده يعلم أن هناك عالما آخر غير هذا العالم الذي يحيا فيه مع أسرته، بل عدة عوالم، لم يكن عنده مشكلة في تصديق ذلك الشاب المصري، فتلك القصة التي حكاها لا تتوافر إلا لمن

عبر الجسر للمرور بين العالمين بالفعل، لكن ما كان يقلقه هو لماذا؟ لماذا ظهر ذلك الشاب في برنامج شهير ليتكلم بكلام سري عن عالم آخر، لمجرد أن وقع خلاف بينه وبين أحد الحراس؟ ولماذا في هذا البرنامج بالذات؟ وفي هذا الوقت بالتحديد؟ إنه يذكر أنه أبدى إعجابه بهذا البرنامج أمام عدد من الصحفيين، لذا ظهر ذلك المصري وهو يعرف أنه سيراه، أنفه تشم رائحة خداع قوية، وهي من الحساسية بمكان أنها تستطيع شم رائحة الخطر من مسافة ألف ميل، من الواضح أنه يرسل رسالة لشخص ما، وهذا الشخص بالتأكيد هو بينچي والتر، رئيس أمريكا. شعر بالتوتر يخترق قلبه فيضاعف من سرعة نبضه، تبدو المصيدة واضحة للعيان، يضعون له المصيدة في طريق سيره، ثم ينتظرون مروره في صبر، وعندما يقترب منها تنطبق عليه في قوة، ويخسر كل أمل في النجاة .

ابتسم بينچي في سخرية، هؤلاء القوم لا ييأسون أبدا، على الرغم من محاولاتهم العديدة الفاشلة في إعادته إلى عالمه، إلا أنهم لا ينفكون يسعون في القبض عليه واصطياده، لكن لأنهم يدركون أنه أصبح رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، لذا لا يجرأون بالظهور أمامه، بل يحاولون جذبه إلى مكان ما بدلا من المخاطرة بالإقتراب منه. هب قائما في توتر، ثم اقترب من المرآة الكبيرة وراح يتطلع إلى ملامحه التي لم تنجح سنوات عمره الثمانون في وضع بصمتها عليه بقوة، ويرجع الفضل في ذلك إلى استنساخ الخلايا المريضة، بخلايا شابة فتية تضمن له شبابا وعنفوانا طوال حياته، لكن ذلك الوجه كان يسرح بين ثناياه القلق على الرغم من دهائه وسلطته اللامحدودة، يشعر بقلق لا يدري سببه يأتي من بعيد، من غريمه الأزلي ماسا، فربما تعلم من أخطائه السابقة ويريد تجنبها هذه المرة! لكن السؤال ظل يلح على ذهنه، لماذا يصر ماسا طوال هذه الفترة الكبيرة من حياته على القصاص منه؟ لم يجد إجابة مقنعة فاستبدله بسؤال آخر :

ما الذي يفكرون فيه هؤلاء القوم هذه المرة؟ ولماذا يشعر بالخوف على عكس المرات السابقة؟

عاد إلى مقعده وهو يفكر أنه لابد من هزيمتهم قبل أن يخطون نحوه خطوة واحدة، ثم تمتم في صرامة : لن يقتنصونني وأنا رئيس أمريكا، أقوى دولة في العالم كله .

رفع سماعة هاتفه الخاص وطلب رقم مساعده هاوارد، ثم قال في نبرة قوية :

اذهب إلى مطعم نيفادا، ستجد هناك طاهيا يدعى بيتر، لا تستغرب إذا وجدته يشبهني كأنه نسخة مني إلا أنه ليس لديه لحية، أريدك أن تقبض عليه وتدعه

سجنا منيعا، لا أريد لأحد الإقتراب منه حتى تسمع مني أمرا شخصيا بهذا، هل تفهم؟

أنهى بينچي الإتصال وهو يشعر بشكل أو بآخر أن نظيره له دخل في تلك الخدعة الحقيرة، وأن مكمن الخطر سيأتي منه هو دون سواه .

رفع سماعة هاتفه مرة أخرى وطلب مساعده بيتر، ثم قال له :

ذلك الشاب المصري الذي ظهر في برنامج(تريفور نواه)، أريده في مكتبي الآن، نعم الآن .

وضع سماعة الهاتف بجواره في بطأ، ثم تسائل في حيرة : لماذا يشعر بالقلق على الرغم من نفوذه الرهيب؟ وكأن شيئا ما يخبره أنه سيفشل هذه المرة مهما حاول . طرد ذلك الهاجس من رأسه بكل إرادته، ثم سكب في كأسه من زجاجة خمر معتقة، وراح يرتشف من كأسه في بطأ، محاولا أن يجذب الراحة إلى نفسه من جديد .

****

توترت أعصاب سامي بشكل عجز عن التحكم فيه، ارتعشتا يداه فتركهما على حالهما بعد أن يأس من السيطرة عليهما، واستسلم للرجل القوي البنيان صارم الملامح الذي حدجه بنظرة لم يفهم معناها، ثم أشار له بركوب سيارته، فركبها سامي على الفور دون أن يسأله عن وجهته، مكتفيا بالنظر إلى هويته التي تحمل اسم هاوارد، وتشير إلى كونه ضابط مخابرات أمريكي. انطلقت السيارة عبر شوارع واشنطن تنهب الطريق في تلك الساعة المتأخرة من الليل، كان يعلم وجهة ذلك الضابط الذي يتكلم بكلمات مقتضبة تثير في نفسه الخوف، ولولا معرفته بحرص بينچي على حياته حتى يقابله، لكان تيقن أنه ذاهب إلى حتفه. وجد سامي نفسه بغتة أمام البيت الأبيض بسوره الضخم، ابتلع ريقه في صعوبة محاولا أن يبدو رابط الجأش، عبرت السيارة البوابة الكبيرة بعد أن فحصها رجال الأمن، ثم توقفت في الفناء الداخلي الواسع قبل أن ينزلا منها، اقترب منه رجلان فحصاه بدقة، وبعد الإنتهاء من فحصه قاده روبرت إلى داخل البيت الأبيض، ثم صعدوا الطابق الثاني عبر السلالم الحلزونية في سرعة، ثم قطعا ردهة طويلة قبل أن يدلفا إلى غرفة جانبية واسعة، خفق قلبه في عنف وهو يقف أمام الرئيس الأمريكي وجها لوجه، كانت دهشة سامي كبيرة عندما وجد الرئيس يستقبله وهو يرتدي منامة سوداء، شكر بينچي مساعده هاوارد باقتضاب فغادر الأخير على الفور، ثم التفت نحو المصري يتأمله بعينين فاحصتين، بطريقة بدت أشد قسوة

من الطريقة التي فحصه بها رجلي الأمن في الخارج، جلس بينچي على مقعد وثير، ثم سمح له بالجلوس أمامه قائلا في نبرة هادئة :

هل تشرب الخمر؟

قال سامي بصوت بدا مبحوحا :

كلا يا سيدي الرئيس .

صب بينچي لنفسه كأسا وارتشف منه رشفتين، ثم قال :

كيف حال ماسا ؟

بالرغم منه انتفض جسده انتفاضة اقتنصتها عيني بينچي بسهولة فدفعته للإبتسام في ظفر، أدرك سامي الخطأ الجسيم الذي ارتكبه، فاستدرك متظاهرا بالدهشة :

كيف تعرف الكاهن ماسا يا سيادة الرئيس؟

ابتسم بينچي في مكر وقال في صراحة :

لأني ببساطة أحد أبناء العالم الذي جئتَ أنت منه، وقد كان ماسا الحارس الذي رافقني عندما حضرت إلى هذا العالم منذ أكثر من ثلاثون عاما، قبل أن نتعارك سويا وانتصر عليه فيعود إلى عالمه مهزونا مدحورا .

اندهش سامي لصراحته ووضوحه، تسائل في نفسه مذعورا: هل معنى ذلك أن أمره قد انكشف، وأنها مسألة وقت قبل أن يأمر بقتله، أو بإرساله إلى أحد السجون سيئة السمعة؟ لم يجد سامي تفسيرا يرتاح إليه غير ذلك التفسير، أحنقه أن يفشل وهو لم يكد يخطو أولى خطواته في تنفيذ تلك الخطة المعقدة، قبل أن يسقط العالم كله ضحية طمعه الذي لا ينتهي، أدرك يقينا أن ذلك العجوز الذي يجلس أمامه، ويرتشف من كأسه في بطأ، ويتفحص ملامحه في تركيز وفضول، ماهو إلا ثعلب ماكر على هيئة بشر، أخرجه من أفكاره المظلمة صوت بينچي قائلا :

لكنك وصفت ماسا خلال حديثك بالكاهن، كيف ذلك؟

قال سامي في سرعة محاولا أن يبدو صادقا :

القصة تبدأ عندما تعرفت على رجل يدعى اناكندا قابلته عندما ذهبتُ إلى أوغندا للسياحة، وعندما رآني أعاني من الملل الشديد أخبرني عن عالم موازٍ لعالمنا،

نستطيع العبور إليه من خلال جسر، لم أصدقه في البداية، لكني رأيت أنني لن أخسر شيئا إذا ذهبت معه إلى قريته وتأكدتُ مما يخبرني عنه، وبمجرد وصولنا دلفنا إلى منزل كبير يتوسط ساحة واسعة، وفي داخله التقيت برجل عجوز مسن، يمتلأ وجهه بالتجاعيد، حياني بحرارة، ثم راح يخبرني عن هذا العالم أشياءا عجيبة.

قال بينچي في فضول :

وماهي تلك الأشياء التي أخبرك بها ذلك العجوز ؟

قال سامي محاولا أن يبدو متماسكا :

أخبرني أن هذا العالم كان يشبه عالمنا إلى حد كبير، حتى وصل إليه عالم أمريكي يدعى بينچي والتر، فحوله إلى عالم مختلف عما كان عليه، بسبب اكتشافه لتقنية الإستنساخ البشري الذي غير شكل العالم للأبد .

مط بينچي شفتيه قائلا :

وماذا أيضا ؟

صمت سامي في تردد، ثم قال :

عرض علي الذهاب إلى هذا العالم للإطلاع عليه، شرط أن يرافقني اناكندا في رحلتي، وأن أكون طوع أمره، لكني رفضت عرضه حيثُ كنت أشعر بقلق وعدم تصديق، ثم غادرت منزله وهممتُ بالرحيل من الدولة كلها .

سأله بينچي محدقا فيه بقوة :

وكيف جئت إلى هنا إذن؟

تماسك سامي قدر المستطاع وهو يقول :

جهزت حقيبتي وأوشكت على الرحيل عندما طرق بابي اناكندا وحاول إقناعي بالإنتقال معه، لم أكن أدرك سر إصرارهم على إرسالي لهذا العالم، لكن فضولي الشديد لمشاهدة عالم آخر باستطاعته قتل الملل الذي يطبق على أنفاسي جعلني أذعن لهم، ثم انتقلت إلى هذا العالم وحينها فوجئت بالمطلب الخطير .

اعتدل بيتچي وهو يسأله في فضول بالغ :

وماهو هذا المطلب؟

تردد سامي في خوف واضطراب، ثم أنهى تردده قائلا :

قتلك !

ارتفع حاجبا بينچي للأعلى في ذهول، لم يكن يصدق أن تصل الأمور إلى أن يرسل ماسا رجلا أبيضا لقتله بعد كل تلك السنوات، لا ريب أن قلبه يشتعل غيظا وسخطا، تطلع بينچي إلى سامي وسأله بنبرة صارمة :

أريدك أن تخبرني بكل التفاصيل، دون أن تترك أية تفصيلة مهما رأيتها تافهة .

ابتلع سامي ريقه في خوف حقيقى، ثم قال :

أخبروني انك أصبحت رئيس البلاد الآن، وعندما أبديت خوفي الشديد طمأنوني قائلين : كل ما عليك فعله هو أن تقترب منه مسافة معقولة، ثم تخرج مسدسك وتطلق منه رصاصتين على رأسه، ثم سيتلقفني اناكندا داخل سيارته، وينطلق مسرعا إلى مكان خاص خارج نيويورك، ومنه إلى عالمنا دون أن تعثروا علينا أبدا .

صمت بينچي وهو يحدجه بنظرة امتلأت شكا ودهشة، لكن هذا لم يمنعه من أن يقول في زهو :

الذي لا يعرفه هذا الحارس الأسود، أنني أعرف هذا المكان الذي تفكرون في الهروب عن طريقه جيدا .

هتف سامي في دهشة حقيقية :

حقا !

قال بينچي في تفاخر :

بالتأكيد، ولكنهم لا يدركون هذا .

ثم استدرك قائلا :

وماذا فعلت بعد أن أملى عليك خطته؟

أجابت سامي في سرعة :

لم أوافقه؟

سأله بينچي في شك واضح :

وهل تركك تذهب هكذا ببساطة؟

أومأ سامي برأسه نفيا وقال :

منحني مهلة يومين فقط قبل أن يعيدني إلى عالمي رغما عني، ثم لن يسمح لي بالعودة إلى هذا العالم مرة أخرى، فاتهمته حينها بالجنون، لكنه قال لي في ثقة : أنهم أعدوا لكل شيء بدقة ولا يوجد مجال للخطأ، وهم يعتمدون علي لأن بشرتي ليست سوداء، ولن يتخيل بينچي أن ماسا قد يرسل رجلا أبيضا لقتله .

قال بينچي مغتاظا :

الأوغاد يعلمون أنني لا أسمح لرجل أسود بالإقتراب مني، حتى إن الشعب يتهمني بالعنصرية جراء هذا .

غلفهم الصمت للحظات، ثم هب بينچي قائما بغتة في خفة، بالرغم من عمره الذي تعدى الثمانين، استل مسدسا صغيرا من جيب سري في منامته، ثم صوبه نحو رأس سامي، واستعد لإطلاق النار .

****

سار ماسا عبر الساحة الواسعة بخطوات بطيئة راسخة، كان يرتدي عباءة فضفاضة بيضاء لايخالطها لون آخر، اقترب من جذع شجرة مائل يكاد أن يمس الأرض ثم جلس عليه، ثم نكس رأسه وراح يفكر في عمق، كانت عادة متأصلة فيه منذ الصغر، أن يجلس على نفس الجذع _ منذ كان جزءا من شجرة مورقة_ كلما حاصرته الهموم، وهاجمته الأوهام، اقترب رجل أسود ضخم من ماسا، ثم قال في خفوت لم يخفي خشونة صوته :

أنت لا تجلس على هذا الجذع العاري إلا عندما يصيبك القلق .

تمتم ماسا دون أن يرفع رأسه إليه :

أجد هذا الجذع يشبهني في عمره الطويل، وانفراده بنفسه، وحرمانه من أصله .

قال الرجل بصوت أجش :

أنتما تتشابهان في كثير من الأمور بالفعل، فهذا الجذع ما زال يحيا، رغم سقوط الشجرة التي كانت تزينه وتمنحه الظل، وكذلك أنت، سقطت عنك قوتك، ولكنك مازلت ثابتا صلبا لا تلين، حتى لو انحنيت بفعل الزمن، لكنك لا تسمح لنفسك بالسقوط أبدا.

لاحت في وجه ماسا ابتسامة باهتة، فتردد الضخم قليلا ثم سأله :

هل تعتقد أن المصري سينجح في مهمته ؟

ظل ماسا على حالته الصامتة الساكنة، ناكس الرأس، معقود الحاجبين، كأنه لم يسمع سؤال الرجل ضخم الجثة، ثم رفع رأسه نحوه في بطأ وقال :

هل تعتقد أنني ألقيته في التهلكة؟

قال مساعده في سرعة :

كلا يا سيدي بالطبع، لكني لا أعتقد أن ذلك الشاب الخائف المنفعل يستطيع التغلب على ذاك الشيطان .

تمتم ماسا قائلا :

هو ليس وحده .

أومأ الرجل برأسه في احترام، ثم قال في خفوت :

لكنه في هذه اللحظة التي نتكلم فيها سيكون وحده في مواجهة ذلك الذئب الذي لا يرحم .

قال ماسا في يقين :

النور دائما يطغى على الظلمة، حتى لو كان ضعيفا باهتا.

قال الرجل معترضا في احترام :

لكن ظلمة ذاك الرجل شديدة، حتى أن نورك القوي فشل في..

بتر الرجل عبارته في خجل شديد، فقال ماسا دون أن يبدو عليه أي أثر للإنفعال :

فشل مرتين، نعم، أنا أدرك هذا جيدا، لكن في السابق كنا ضحايا انفعالاتنا ومشاعرنا السلبية، لم نخطط لهزيمة ذلك الشيطان، وكان هو على العكس منا، يخطط بدقة، وبمهارة، ويحسب لكل خطوة يخطوها .

سأله مساعده في قلق :

وهل تظن أن تلك الخطة قد تنجح في هزيمته؟

قال ماسا في هدوء وثقة :

لا أظن فقط، بل أثق في أن الخطة الموضوعة مع التزام الجميع بها، لن تدحر ذلك الشيطان فقط، بل ستنقذ العالم من دمار ساحق سيبيده عن بكرة أبيه .

تسائل الضخم في قلق :

ولو فشل الشاب المصري في مهمته؟

صمت ماسا لدقيقة كاملة، ثم قال :

حينها سينتهي أمر ذلك الشاب، لكن ليس هو فقط، بل سينتهي أمر ذلك العالم للأبد .

بدا على الرجل اليأس، فاستطرد ماسا :

سينجح يا رجل، لم يترك الله الظلام يعبث للأبد، لابد للنور أن يبدد الظلمة .

لم يبد على الرجل الضخم الإقتناع الكافي، فقال ماسا :

لن تكون هزيمة ذلك الشيطان سهلة أبدا، لكن كما قلت سابقا، النور يتغلب دائما على الظلمة مهما كان ضعيفا وباهتا، المهم أن تختار المكان الذي تريد إضائته، ثم تحسن التصويب .

هز الرجل رأسه دون أن ينبس ببنت شفة، لكن قلبه كان يخفق في شك وارتياب .

****

استل بينچي مسدسه وصوبه نحو صدر سامي الذي انتفض في ذعر، ثم هتف :

أقسم لك أن ما أقوله هو الحقيقة .

راحت سبابته تضغط على الزناد شيئا فشيئا، وجسد سامي يرتعش كفرخ مبلول في ليلة شتاء باردة، تعلق نظره بالزناد الذي أوشك على الوصول إلى طرف المظروف السفلي عند الكبسولة، فتشتعل المادة المتفجرة على الفور، ثم تنطلق الرصاصة. جف ريقه فلم يجد ما يبلعه، كأن حلقه صحراء جرداء قاحلة، ردد عبارته في يأس :

لقد أخبرتك الحقيقة، أقسم لك؟

قال بينچي بنبرة صارمة :

لكنك لم تخبرني الحقيقة كلها.

توقف قلب سامي عن النبض، وتوقفت رئته عن التنفس، وأدرك أن نهايته قد اقتربت، فالتزم الصمت، لكن عينيه ظلتا متعلقتان بالمسدس الذي يبتسم له هازئا ساخرا، لكن بغتة، دلف أحد مساعديه إلى المكان، ثم تسمرت عيناه على المسدس الذي يحمله الرئيس ويصوبه إلى الشاب المصري في قسوة، سأله بينچي في نبرة عدائية دون أن يبعد عينيه عن وجه سامي لحظة :

ماذا تريد يا روبرت؟

حملق روبرت في وجه الرئيس للحظات، ثم قال :

هناك على الشاشة، يتكلم الرئيس الكوري عن استعداده النهائي لإعلان الحرب علينا .

التفت إليه بينچي في هدوء لا يوحي بخطورة الأمر، ثم قال :

دع ذلك الحقير يقول ما يشاء، إذا قامت الحرب فلا فائز سوانا، هيا غادر المكان فأنا ليس لدي وقت أضيعه لهذه الترهلات .

بهت روبرت للرد غير المتوقع، تسائل في نفسه مندهش :

هل يبلغ ذلك الشاب المذعور المنكمش أهمية، تفوق إعلان الحرب العالمية الثالثة !

التفت إليه بينچي كالنمر المفترس زاعقا :

هيا قبل أن أصوب فوهته عليك أنت، هيا .

أسرع روبرت يغادر المكان وهو يوقن أن الرئيس قد أصابه مس من الجنون، عاد بينچي بعينيه إلى سامي قائلا :

إذا لم تخبرني بكل التفاصيل سأقتلك في الحال .

لم يجد سامي ما يقوله فالتزم الصمت، غاظه صمته فاعتصر بينچي الزناد قائلا :

حسنا، قل للدنيا وداعا يا رجل .

ضغط الزناد بقوة، فصدرت تكة تعلن أن المسدس خاليا، فحدق في المسدس بغضب وحيرة، ثم هتف في غيظ :

هؤلاء الخنازير أفرغوا خزانة المسدس لخشيتهم من استخدامه بالخطأ، ماذا سأفعل إذا لو هاجمني لص؟

ثم حدج سامي بنظرة قاسية قبل أن يسأله :

أين أجد هذا الحارس اناكندا الآن؟

تلعثم سامي وهو يجيب :

لستُ أدري، منذ أن ظهرتُ في ذلك البرنامج اختفى فلم يعد له أثر .

هتف بينچي والتر بغتة :

اذهب.

تسائل سامي في دهشة :

ماذا !

هتف بينچي مرة أخرى بنبرة أكثر قسوة :

قلت اذهب قبل أن أملأ خزانة المسدس عن آخرها، ثم أفرغها كلها في جسدك النحيف .

هب سامي واقفا قبل أن يهرول خارج المكان كقط مذعور يفر من أمام كلب شرس، تابعه بينچي ببصره ثم التقط الهاتف الداخلي وقال :

روبرت، اتبع ذلك الرجل كظلك، ولا تسمح له بالتقاط أنفاسه دون أن تحصيها، ولا تعد حتى أخبرك .

أنهى الإتصال ثم ذهب مسرعا إلى مكتبه البيضاوي فوجد مساعديه يشاهدون التلفاز ويبدو على وجوههم القلق، ما إن رأوه حتى هب من مقعده من كان جالسا، تجاهلهم بينچي وجلس يشاهد الرئيس الكوري الشاب الذي يخطب في شعبه غاضبا :

لقد مات أبي منذ عام واحد وأريد استعادته، وهؤلاء الأمريكان يرفضون إعطائنا تقنية استنساخ الموتى بتعنت واضح، على الرغم من أنهم مكنوا تلك التقنية لعشرات البلدان الأخرى، وهذا معناه أنهم أعدائنا، وقد حاول والدي إقناعهم بإعطائه تقنية استنساخ الأحياء منذ ثلاثون سنة دون جدوى، لذا فأنا أعلن غزو كوريا الجنوبية اليوم، وإذا تدخلت أمريكا سأعلن الحرب عليها أيضا .

ابتسم بينچي في سخرية، ثم تمتم وسط دهشة الحضور :

سأمحو بلدك أيها الأبله من الوجود .

****

ظل سامي حبيس غرفته طيلة يومين كاملين دون أن يحاول الخروج منها، كان الخوف يمنعه من الخروج خارج غرفته، ويمنعه من النوم أيضا على فراشه خشية أن يفاجئه قاتل محترف، كان يطلب الطعام عبر الهاتف، ثم يتناوله وهاجس شرس يحذره من وجود سم فيه، لكنه يتناوله رغما عنه حتى لا يموت جوعا، حيث آثر الموت السريع على الموت البطيء، لم يحاول اناكندا التواصل معه طيلة تلك المدة مطلقا، وكان سامي في حيرة من أمره، لا يدري أين ذهب اناكندا ولا لماذا لم يظهر حتى الآن؟ وعندما حلت الساعة الثامنة مساءا، سمع صوت طرقات حذرة على باب غرفته، فاقشعر جسده وتوترت عضلاته وهو يقترب من الباب في خطوات بطيئة مترددة، ثم هزم هلعه بصعوبة وفتح الباب مستسلما لمصيره، طالعه وجه اناكندا الذي دلف إلى الداخل في سرعة ثم أغلق الباب خلفه، فسأله سامي في حدة :

أين كنت طيلة اليومين الفائتين يا رجل ؟

قال اناكندا :

كنت هنا في الفندق؟

سأله والحيرة تمزقه بأنيابها :

ولماذا لم تظهر طوال تلك المدة أو حتى تحاول الإتصال؟

لم يكن بإمكاني الظهور حتى يذهب ذلك الرجل؟

قال سامي :

أي رجل!

تجاهل اناكندا سؤاله العصبي، وسأله في اهتمام :

أخبرني أنت، أين ذهبت عندما تلقفتك تلك السيارة السوداء؟

ذهبتُ إلى البيت الأبيض مباشرة، وهناك قابلتُ بينچي والتر، أقصد رئيس أمريكا، وقد راح يستجوبني مستخدما سلاحه لإرهابي، لكني لم أخبره إلا بما اتفقنا عليه فقط .

ابتسم اناكندا قائلا في ارتياح :

إذن فقد ابتلع الطعم؟

أومأ سامي برأسه إيجابا، ثم سأله :

وذلك الرجل الذي تقول أنه يراقبني؟

قال اناكندا وهو يجلس على طرف الفراش :

دليل على ابتلاع الطعم .

بان على وجهه الفهم فقال :

إذا فقد عاد إلى سيده.

قال اناكندا مؤكدا:

بالتأكيد.

تمتم سامي قائلا :

لا أدري، أشعر أننا من سنسقط في النهاية، وليس ذلك الداهية .

قال اناكندا في نبرة هادئة واثقة :

لقد أديت دورك ببراعة وبشجاعة منقطعة النظير، واستطعت جذب أنظاره نحو النقطة التي أعددناها مسبقا، وبهذا تكون أديت دورك بنجاح .

لم يبد علي سامي الإقتناع، فربت اناكندا على كتفه في مودة، ثم قال :

أعلم أن الأمر يستدعي القلق والذعر، لكن اطمئن، ستكون الغلبة لنا في النهاية هذه المرة .

ثم أخرج من جيبه صورة التقطت للرجل الذي كان يراقب الفندق من مسافة بعيدة، ما إن رآها سامي حتى هتف :

هو ذلك الرجل الذي رأيته هناك في البيت الأبيض، اسمه روبرت، وهو أحد مساعدي الرئيس الأمريكي على ما أعتقد .

ابتسم اناكندا وقال في ثقة :

ابتهج إذن يا رجل، فلم يتبقى للرئيس الأمريكي سوى سويعات قليلة، ثم يسقط في قبضة العدالة السماوية لا محالة .

لا يدري سامي لماذا لم يستطع الإطمئنان والتفائل كصديقه اناكندا، حيثُ كان يرى أن هزيمة الرئيس الأمريكي أمر شديد الجنون والغرابة، وأن المنطق يرفض ذلك السيناريو بصرامة، وأن السيناريو الأكثر عقلانية بالنسبة له، هو سقوطهم، وهزيمتهم هزيمة منكرة في معركة غير متكافئة على الإطلاق .

****

توقفت سيارتان أمريكيتان أمام منزل بيتر الطاهي بعد أن أصدرتا صريرا عنيفا، ثم نزلا منهما ستة رجال يبدو على وجوههم الصرامة والقسوة، طرق هاوارد الباب عدة طرقات، فتحت كارول الباب وتطلعت إليهم مستفهمة، تأمل هاوارد وجهها في دهشة، فقد كانت نسخة طبق الأصل من السيدة الأولى، ثم سألها :

من أنتِ؟

قالت في استغراب :

أنا كارول .

انعقد حاجبيه ونطق وجهه بالدهشة، فهتف :

هل هذه مزحة؟

لم تجب كارول، فقال هاوارد :

أين زوجك بيتر؟

قالت :

لم يعد إلى منزله منذ مساء أمس، ماالذي حدث؟

نحاها هاوارد بيده جانبا، ثم دلفوا جميعا إلى الداخل فهتفت كارول في ذعر :

ماذا تفعلون؟

تجاهل الرجال سؤالها، وراحوا يبحثون داخل المنزل في كل مكان، فصرخت :

ماذا فعل بيتر لتبحثوا عنه بهذا الشكل !

ظلوا على تجاهلهم لها وهم يبحثون عنه دون أن يجدوا له أي أثر، ثم التقط هاوارد صورة لبينچي وأخذ يتأملها في ذهول، كان يبدو نسخة مماثلة للرئيس الأمريكي لكن دون لحية، ويبدو أسن منه بعض الشيء، سأل كارول :

هل هذا بيتر زوجك؟

استرجعت كارول بذهنها تلك اللحظة التي غير فيها الرئيس الأمريكي اسم زوجها سرا، حتى لا ينتبه الناس إلى كم التشابه الموجود بينهما في الشكل والإسم، فقالت :

نعم، هو زوجي بيتر.

قال هاوارد دون أن يبارحه الذهول بعد :

هل تعلمين أن زوجك يشبه الرئيس الأمريكي وأنك تشبهين السيدة الأولى تمام الشبه؟

قالت كارول :

وهل هذه تهمة يحاسب عليها القانون؟

هز رأسه نفيا، ثم تمتم :

كلا، ولكن ليس من المنطقي أيضا أن يكون هناك رجل وزوجته يشبهان الرئيس وزوجته كل هذا الشبه، لولا أن الإستنساخ بدأ في عام ألف وتسعمائة وثمانون لظننتُ أنكما مستنسخان منهما.

قالت كارول في جرأة :

ربما نكون نحن الأصل وهما مجرد نسختان منا في هذا العالم .

صمت هاوارد قليلا وهو يفكر، كان يراجع بذهنه كل ما مر منذ استلم بينچي والتر السلطة، طباعه العجيبة، وأفعاله الغير منطقية، ثم استرجع تلك اللحظة التي كان يمسك فيها مسدسا ويصوبه إلى الشاب االمصري، دون أن يعبأ بخطاب الرئيس الكوري الذي يهدد فيها أمريكا والعالم كله، أحس أن الأمر أكبر مما يبدو عليه في الواقع، ثم نحى مشاعره جانبا واقترب من كارول قائلا :

ليس من مصلحتكِ أن تخفي أثره .

هتفت كارول :

أخبرتك أنني لا أعرف مكانه منذ أمس ؟

تنهد هاوارد في غيظ، ثم منحها هويته الأمنية وقال :

إذا عرفتِ مكانه أبلغيني فورا .

لم تنبس ببنت شفة، في حين رحل الرجال تاركين كارول تموت خوفا على زوجها، حيث تعلم أن حياته صارت على المحك، من أجل الحفاظ على العالم الذي تعرفه، وحمايته من رجل قدم من عالم آخر لاحتلاله وتدميره .

****

استبد بالرئيس الأمريكي الغضب عندما أخبره هاوارد بعجزه عن العثور على الطاهي في أي مكان، فهتف :

كيف لم تعثروا عليه حتى الآن؟ أنتم مجرد حفنة من الفشلة .

قال هاوارد مدافعا عن نفسه :

لقد بحثنا عنه في كل مكان يمكن أن نبحث فيه دون جدوى يا سيدي الرئيس .

دلف أحد مساعديه هاتفا في انفعال :

الرئيسين الروسي والصيني على التلفاز يا سيدي، يبدو أنهم على وشك إعلان الحرب أيضا.

مط بينچي شفتيه في امتعاض، ثم التفت إلى هاوارد قائلا في نبرة شديدة الصارمة :

اعثر عليه يا روبرت، فهذا الرجل أخطر على أمريكا من كوريا والصين وروسيا مجتمعين .

بهت هاوارد لعبارته لكنه أومأ برأسه في إذعان، فسأل بينچي روبرت :

هل مازال الشاب المصري في غرفته؟

نعم يا سيدي الرئيس؟

وذلك الرجل الأسود الذي يرافقه؟

قال روبرت في حرج :

توصلنا إلى شكله عن طريق كاميرات المراقبة، لكننا لم نعثر له على أثر حتى هذه اللحظة .

هتف بينچي صارخا :

أرسل البعض للقبض على ذلك المصري، واعثر على الطاهي والرجل الأفريقي بأي ثمن، هيا.

غادرا المكان لتنفيذ الأمر، لكن لم يفهم سر اهتمام الرئيس البالغ بشبيهه الطاهي والشاب المصري والرجل الإفريقي، اهتماما يكاد يفوق اهتمامه بالحرب العالمية التي على وشك الحدوث، والتي ستهدد العالم كله بالدمار والفناء، أما بينچي فوقف متمتما لنفسه في غيظ :

أولئك الرجال الثلاثة لابد أنهم يخططون لشيء ما.

نحى شعوره مؤقتا واندفع إلى مكتبه الذي امتلأ بمساعديه وهم يتابعون الرئيس الروسي وبجانبه يقف الرئيس الصيني والرئيس الكوري، والأول يقول بلغة روسية وبلهجة عدواني :

لم أشأ التدخل في ما يحدث بين كوريا وأمريكا في بداية الأمر، كنت أنتظر رد فعل الأمريكان جراء الحصول على تقنية استنساخ الأموات، لكن الأمريكان أبوا أن يمنحونا تلك التقنية، مذعورين من قدرتنا على إعادة أبطالنا من العدم إلى الوجود ثانية، لكننا لن نقف مكتوفي الأيدي ونحن نشاهد العالم يعود إليه أبطاله العظماء دون أن نفعل شيء حيال ذلك.

ثم قال الرئيس الصيني وهو يتحدث بنبرة غاضبة: نحن لا نحاول استخدام استنساخ الموتى لأننا نريد إيقاظ علمائنا من الموت، فتجديد العقول خير من الإبقاء على العقول القديمة، لكننا نريد استنساخ زعمائنا لقيادة الدولة الصينية الحديثة، وستكون تلك المهلة هي الأخيرة للولايات المتحدة الأمريكية، وإذا ما أصر رئيسها على رفضه إعطائنا تقنية استنساخ الموتى، سنضطر آسفين لإعلان الحرب عليها .

ثم قال الرئيس الكوري في غرور وتفاخر :

سمنح الولايات المتحدة وحلفائها مهلة ثلاثة أيام فقط، وإذا أبوا إلا التجاهل والرفض، فحينها سنعلن الحرب على أمريكا وكل من يحالفها .

انتهى البث فلاحت ابتسامة هازئة على وجه بينچي والتر وسط دهشة الحضور، ثم تمتم ساخرا :

وهل كان لديكم علماء أو فنانون لتستنسخوهم؟ في عالمي الحقيقي لم تكن الصين أو روسيا أو أية دولة أخرى مهما بلغت قدرتها القتالية، أن تجرأ على إعلان

الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية ولو بعد ألف سنة من الآن، يبدو أن ذلك العالم مائل للسقوط بالفعل .

لم يكد ينهي عبارته حتى راحت الضحكات تنطلق من فمه دون توقف .

****

مرت مهلة الثلاثة أيام دون أن يتنازل بينچي والتر عن موقفه، وعمت المظاهرات العالم كله مطالبين الرئيس الأمريكي بالتراجع عن تعنته من أجل العالم، لكنه تجاهل المطالبات الدولية ورغبة شعوب العالم في العيش بسلام، وفي اليوم الثالث اجتمع رؤساء الدول الثلاثة لإلقاء خطابا بإعلان الحرب على أمريكا.

ساد الهرج والمرج القاعة التي يقف فيها الرؤساء الثلاثة، وراح الصحفيون يتسابقون لإلقاء أسئلة تندفع من أفواههم كالمطر، وفي النصف الآخر من الكرة الأرضية وقف بينچي يستمع إلى إعلان الحرب العالمية الثالثة، لم يبدو على وجه الرئيس الأمريكي الغضب أو الدهشة، وكأنه كان يتوقع هذا، وفي الحقيقة كان هذا السيناريو هو مايريده بدقة، فهدفه منذ البداية لم يكن مجرد حكم أمريكا فقط، بل حكم العالم كله دون استثناء، لكنه لم يكن يعرف كيف يصل إلى هدفه ذلك دون حرب، وقد خدمه القدر عندما أعلنت الدول الثلاثة الحرب على أمريكا وحلفائها، التفت إلى وزير الدفاع وقال في نبرة شديدة الصارمة :

جهز مدافعك وطائراتك وأساطيلك واستعد جيدا، سنخوض حربا لن يكون فيها هوادة .

اندفع وزير الدفاع لتنفيذ الأمر، فالتفت إلى أحد مساعديه قائلا :

سألقي كلمة الآن، جهزوا مؤتمر صحفيا عاجلا .

اندفع مساعدوه لتنفيذ الأمر، في حين ابتسم بينچي ابتسامة ذئب جائع يوشك أن يلتهم فيلا كاملا بمفرده.

مضى عبر الردهة الطويلة ثم اتجه نحو غرفة جانبية، فتح بابها ثم تطلع إلى الرجال الخمسة الذين كانوا يجلسون يشاهدون التلفاز في اهتمام، كانوا خمس نسخ منه إلا أن أعمارهم جميعا كانت في العشرين، ما إن رأوه حتى هبوا وقوفا في احترام، تأملهم للحظات ثم قال وهو يضع يده خلف ظهره :

أنتم علمتم أن روسيا وحلفائها أعلنوا الحرب علينا، وهذا ما كنت أنتظره وأتمنى حدوثه منذ زمن، وهي الخطوة الأولى نحو حكم العالم من أقصاه إلى أقصاه، ولم

يكن يمثل عائقا أمامي سوى إقناع العالم بقيام حرب ضخمة، وهذا ما فعله أعدائنا بأنفسهم دون أن نبدو أمام العالم معتدين، وقد استنسختكم لتحكموا العالم معي، لن أجد أحد أستطيع الوثوق فيه غيركم، لذا ما إن ننتصر في الحرب حتى تأخذوا مكانكم الذي صنعتكم من أجله، هل أنتم مستعدون؟

قالوا في صوت واحد وبنبرة حازمة قوية :

نعم مستعدون .

لاحت ابتسامة واثقة على وجه بينچي العجوز ثم أشار لهم أن يتبعوه، ساروا جميعا نحو قاعة المؤتمرات عبر طرقات البيض الأبيض، لإلقاء الخطاب الذي ينتظره الأمريكيون والعالم أجمع، استعدت الكاميرات التلفزيونية للعمل، وساد الصمت القاعة، وامتنع الصحفيون عن الكلام بمجرد دخول الرئيس، الذي مضى نحو المنصة مباشرة واصطف خلفه نسخه الخمسة وهم ينظرون للجميع في ثقة، بدأ المصورون بتوجيه الكاميرات نحو أشباهه الخمسة، ثم ثبتوا الكاميرات على وجه الرئيس الأمريكي الذي قال :

أعلم أن الوضع خطير ويضع البلاد والعالم كله في مواجهة خطر الإبادة النووية، لكني سأحاول قدر المستطاع أن أجنب العالم حربا نووية مهلكة، ولكن لابد أن يعلم الشعب الأمريكي أن تلك الحرب قامت من أجل أطماع الصين وروسيا وكوريا في امتلاك ما لا يستحقونه، فتلك التقنية اخترعتها أمريكا، وهي وحدها صاحبة الحق فيمن تمنحه إياه، ومن مكاني هذا، أعلن قيام الحرب على روسيا والصين وكوريا لإعلانهم الحرب علينا، رافضين أن تكون القوة الغاشمة هي صاحبة الكلمة العليا، في هذا العالم الذي يكتنفه السلام والحق والعدل.

بدأ الصحفيون بإلقاء أسئلتهم في اهتمام بالغ، سأله أحدهم :

سيدي الرئيس، ألا يوجد فرصة لمنع قيام الحرب النووية المهلكة؟

قال بينچي متظاهرا بالغضب :

للأسف لا، حاولنا كثيرا منع قيام حرب عالمية ثالثة، لكن الطرف الآخر كانت له شروط مجحفة فرفضناها حفاظا على كرامتنا .

سأله آخر :

قلت سيادتكم أنكم ستتجنبون استخدام الأسلحة النووية، إلى أي مدة يمكن أن تلتزم الأطراف كلها بذلك، لاسيما أن روسيا والصين وكوريا أعلنوا استعدادهم لاستخدام أسلحة الدمار الشامل في الحرب القادمة.

قال بينچي :

سنبدي كامل استعدادنا لتجنيب العالم حربا نووية، ولكن على الآخرين أن يبدو استعدادهم على التحكم بالنفس أيضا.

سألته صحفية :

لا أدري سيدي الرئيس لماذا تقوم حربا عالمية كونية من أجل تقنية الإستنساخ، الأمر يبدو كما لو كان فيلما هزليا.

بدا غضبا حقيقيا على وجه بينچي قائلا :

أنا أقسمتُ على منع حصول أي دولة على تلك التقنية إلا لحلفائنا فقط، فأنتم لا تتخيلون مدى ما يمكن أن يصنعه هؤلاء إذا ما حصلوا عليها، إنهم يريدون صنع امبراطوريات بادت منذ عهد بعيد، يريدون إعادة استنساخ لينين لإعادة الإتحاد السوفيتي لسابق عهده، ويريد الصينيون استنساخ ماو تسي يونج لصنع إمبراطورية الصين البائدة، ويريد الرئيس الكوري استنساخ أبيه لإعادة الحكم الديكتاتوري في البلاد، وإعادة الصدام من جديد مع جارتهم الكورية، وهذا لن نسمح به إطلاقا.

سألته صحفية أخرى :

كيف ستقنع الشعب الأمريكي بتلك الفكرة القائمة على الإستعداد للحرب، في مقابل منع تقنية علمية مهما بلغت خطورتها.

كظم بينچي غيظه وهو يجيب :

الشعب الأمريكي يثق في قرارات الإدارة الأمريكية ثقة عمياء، وهو حين وضعها فينا لم يكن مخطئا، ونحن لا نستخدم تلك الثقة عبثا، ولكننا نستخدمها لمصلحة الدولة الأمريكية والعالم أجمع .

حاول الصحفيون إلقاء المزيد من الأسئلة، إلا أن الرئيس انسحب من القاعة بغتة، تبعه نظرائه وحراسه وهو يتجه إلى مكتبه لمتابعة أخطر لحظات العالم كله.

وبعد إعلان الحرب من الرئيس الأمريكي انطلقت مسيرات بالآلاف في جميع أنحاء العالم، راحت تشجب وتستنكر قيام حربا عالمية ثالثة، منددين بغطرسة الإدارة الأمريكية متمثلة في رئيسها من جهة، وعنجهية روسيا والصين وكوريا الشمالية من جهة أخرى .

****

انطلقت الحرب العالمية الثالثة كما كان يتوقع العالم حدوثها منذ عدة أشهر، وافتتحت روسيا الحرب عن طريق دخول أوكرانيا لاحتلالها، واقتحمت الصين تايوان برا وجوا دون رحمة، وشرعت كوريا الشمالية في غزو جارتها الكورية مستخدمة أقصى حدود قوتها، وبدأ العالم مرحلة الإشتعال، وراحت أمريكا تجهز قواتها الجوية لغزو الأجواء الصينية والروسية، وتحركت أساطيلها لحماية اليابان، لكن الصين ضربت بكل ذلك عرض الحائط ودخلت بقواتها اليابان، واتجهت الأساطيل البريطانية لضرب أساطيل الصين في مقتل، واشتبكت القوات الأمريكية مع القوات الروسية في العاصمة الأوكرانية (كييف)، وتحركت القوات الفرنسية صوب روسيا عبر الأراضي التركية، ومال العالم إلى قعر الجحيم، وفي تلك الأثناء التي اشتعلت فيها العالم، كان هناك رجل ملتحي يختبر الأطعمة الجاهزة التي انتهى من إعدادها طهاة آخرين، كان يتذوق من كل الأصناف الموضوعة أمامه، ثم يقول رأيه الخبير في كل طعام يتذوقه بشكل احترافي، وبغتة، دلفت زوجة الرئيس إلى المطبخ لتتفقده، وبعد أن تفحصت الطعام في سرعة أشارت إلى الطاهي الملتحي أن يقترب، ثم قالت له بصوت مرتفع :

أحسنت ياچاك، ثقتي فيك كانت في موضعها، على الرغم من اعتراض الكثيرون على تعيينك في البداية .

انحنى چاك ثم اعتدل وقال :

لي كل الشرف يا سيدتي في أن تختارينني لحمل تلك المسئولية الكبيرة.

منحته ابتسامة كبيرة ثم أشارت إليه ليسير معها متجهة إلى الخارج في بطأ، همست له في قلق وهي تتظاهر بالإبتسام :

استعد، فقد حانت ساعة الصفر .

تمتم بينچي الذي يضع لحية مستعارة هامسا :

لا تقلقي، لقد أعددنا كل شيء بدقة، ولن نترك شيئا للصدفة.

أومأت برأسها موافقة، ثم حيته بابتسامة لم تنجح في محو القلق الذي بدا خطوطه العريضة على صفحة وجهها، ثم غادرت المطبخ واتجهت نحو مكتب الرئيس مباشرة.

لكن لنعرف كيف وصل بينچي الطاهي إلى مطبخ الرئيس في البيت الأبيض، يجب أن نعود إلى الوراء شهرا واحدا. حين نزلت زوجة الرئيس من سيارتها الڤولڤو شديدة الفخامة، بعد أن فتح باب سيارتها أحد حراسها المرافقين، ثم سارت وسط الناس الذين هتفوا باسمها في حب وحماس، كانت قد أعلنت أنها ستزور مكتب منظمة حقوق الإنسان في نيويورك، ومن بين الواقفين كان هناك رجل ملتحي يرتدي نظارة سوداء كبيرة، أشار لها بيده ثم هتف قائلا :

إنه عالم موازي، لا تنسي ذلك .

خفق قلب كارول في عنف وهي تلتفت إلى مصدر الصوت، تأملت وجه الرجل الملتحي ذو النظارة السوداء الكبيرة، لكنها لم تستطع معرفة هويته، نزع الرجل نظارته للحظات ثم ارتداها ثانية، فاتسعت عيناها في دهشة، لقد كان هو، بينچي والتر الطاهي، نظير زوجها في هذا العالم، حاول بينچي الإقتراب منها لكن حراسها منعوه، أشارت بيدها لهم إشارة صارمة أن يدعوه، فسمحوا له على مضض، مد يده وأعطاها بوكيه ورد صغير قائلا :

هذا أجمل ورد استطعت جمعه لك يا سيدة أمريكا الأولى .

أخذته منه باسمة ثم استدارت ودلفت به إلى الداخل، اعترضها أحد حراسها مادا يده ليحمل عنها بوكيه الورد، لكنها رفضت في حزم ثم دلفت به إلى الحمام، وهناك عبثت يدها داخل الزهور في ترقب، ثم انتفض جسدها عندما عثرت يدها على ورقة صغيرة، بالرغم من إحساسها الغريزي بوجود شيء ما داخله مسبقا، سحبتها بأصبعيها السبابة والوسطى، ثم فضتها في لهفة والتهمت عيناها السطور القليلة بسرعة، كان فحوى الرسالة أنه يريد مقابلتها في أسرع وقت ممكن، لم تفهم كارول لماذا يريد نظير زوجها مقابلتها بعد تلك المدة الطويلة، لم تنسى معروفه ودماثة خلقه، فقد كان بإمكانه أن يستغل جهلها ويضاجعها كيفما شاء متظاهرا بأنه زوجها، لكن شهامته منعته من أن يستغلها ويستغل أبنائها لمصلحته الشخصية فأخبرها بكل شيء، لذا كانت ترى أن صنيعه لا يمحيه الزمن، ولابد أن ترد له معروفه يوما ما، لكن الأعوام مضت ونسيت ما حدث، ثم جاء في هذا اليوم وذكرها بغتة بكل شيء، مر الوقت دون أن تدري ماذا عليها أن تفعل، نزلت على الباب طرقات قلقة من يد حارسها روبنسن، فاستعادت نفسها وعدلت تسريحة

شعرها دون داع، ثم خرجت وهي تظهر ابتسامة واسعة، أخذت جولتها وعندما انتهت وعادت أدراجها إلى الخارج، لمحته من بين الناس يقف متلهفا ردة فعلها، فراحت تصافح الناس بيدها وهي تقترب منه، وعندما صارت بجواره همست :

تعالى غدا إلى البيت الأبيض في تمام العاشرة صباحا وسأترك خبرا عند رجال الأمن بذلك، لكن لا تخبرهم باسمك الحقيقي، أخبرهم ان اسمك چاك.

ثم ابتعدت بسرعة وركبت سيارتها وانطلقت مع حراسها عائدة إلى البيت الأبيض، وفي داخلها انبعث سؤال قلق :

هل مافعلته كان صوابا؟

****

تمشت كارول في حديقة البيت الأبيض وهي تصوب نظرها نحو البوابة الكبيرة تنتظر اللقاء المرتقب، كانت قد أخبرت مدير الأمن أنها تنتظر صديقا لها يدعى چاك، وعندما حضر بينچي في موعده، أسرعت بالتقدم نحوه وسط دهشة رجال الأمن، صافحها بينچي المتخفي خلف نظارة سوداء ولحية كثة، لم تسمح للأمن بتفتيشه رغم إلحاحهم، تقدمته نحو الداخل ثم سمحت له بالجلوس على أريكة وثيرة وجلست بجواره صامتة، همس بينچي :

آسف لإصراري على مقابلتك، لكن لم يكن أمامي سوى أن أفعل ما فعلتُ بالرغم من معرفتي بخطورة ذلك.

تمتمت في عصبية :

هل تظن أن بإمكاني مقابلة أي رجل في أي وقت دون أن يحاوطني حراسي ويعرف زوجي؟

قال :

صدقيني لم أجد بدا من مقابلتك لخطورة الأمر .

سألته في قلق بالغ :

ماذا هناك يا بينچي ؟

صمت لحظة في تردد، ثم قال :

ألا تريدين العودة إلى عالمك الحقيقي مرة أخرى؟ أم أن كونك السيدة الأولى أنساك عالمك؟

بدا على وجهها حزنا دفينا قاومته ببسالة، ثم قالت في أسى :

لقد نسيته من قبل أن أصبح السيدة الأولى بسنوات طويلة.

قال في نبرة حازمة :

لا أحد ينسى عالمه، كما أن لا أحد ينسى بلده وأقاربه وأصدقائه.

سألته كارول :

ماذا تريد بالضبط يا بينچي؟

اعتدل قائلا في نبرة جادة :

ننوي إعادتكم إلى عالمكم في أقرب فرصة.

انعقد ما بين حاجبيها في دهشة ثم سألته:

من أنتم، وكيف ستفعلونها؟

قال :

نحن ثلاثة رجال، لكننا لن ننجح في خطتنا بدونك .

ظهر الغضب على وجهها الذي بدت فيه التجاعيد بسبب سحنتها الغاضبة، بالرغم من كل كريمات التجميل التي تضعها على وجهها، قالت :

أي خطة تلك التي تتحدث عنها؟ وماالذي تنون فعله بالضبط؟

تطلع إلى عينيها مباشرة، ثم قال :

الحرب العالمية الثالثة على وشك الإنطلاق في أي لحظة، وكل هذا بسبب زوجك الحقير وأطماعه التي لا حد لها، لذا قرر ماسا إعادته إلى عالمه قبل أن يدمر هذا العالم عن بكرة أبيه .

حدقت في عينيه غير مصدقة لما تسمعه، ثم همست في عصبية :

وماالذي أستطيع فعله في هذه الخطة المزعومة؟

قال بينچي :

كما فعلتي الآن بالضبط، أن تساعديني لدخول البيت الأبيض كموظف دائم؟

تمتمت في عصبية :

وهل تظن أن ذلك سهلا؟

هز كتفيه وقال في بساطة :

لقد أدخلتيتي بالفعل، أليس كذلك؟

وماذا ستفعل إذا نجحت في توظيفك؟

قال بينچي في صرامة :

كما أخبرتك من قبل، سنعيدكم إلى عالمكم، وسيعاقب بينچي على كل خطاياه وآثامه.

حدقت في عينيه مباشرة، ثم هزت رأسها نفيا قائلة :

كلا، لا أستطيع أن أخون زوجي؟

قال بينچي في عصبية متهكمة:

لا تستطيعين أن تخوني زوجك لكنك تستطيعين أن تتركي العالم ينهار بأسلحة الدمار الشامل .

قالت في عناد :

لن يصل العالم إلى ذلك الحد أبدا .

هتف متهكما:

نعم، لكن لا بأس من استعمال صواريخ عابرة للقارات، واستخدام المدافع والدبابات والصواريخ ليموت خمسون مليون على الأقل كما حدث من قبل في الحرب العالمية الثانية .

قالت كارول في استسلام :

ومالذي بيدي لمنع حدوث هذا ؟

رمقها بنظرة صارمة ثم قال :

لم يعد الأمر قابل للتراجع يا كارول، لقد أفسد زوجك العالم وينتظر دماره ليجلس على أنقاضه، إما هو أو العالم، وعليك الإختيار .

ترقرقت دمعة في عينيها، لم تحاول مسحها وهي تفكر في حيرة، كان عليها الإختيار بالفعل، إما زوجها أو العالم، لم يمض الكثير من الوقت قبل أن تلفتت إليه قائلة في صرامة :

سألحقك بالمطبخ رئيسا للطهاة.

وابتسم بينچي في ارتياح، لقد حانت اللحظة المرتقبة، أخيرا.

****

اندلعت الحرب في أماكن عديدة من العالم، في كييڤ، طوكيو، بولندا، تايوان، المحيط الهادي، المحيط الهندي، القطب الشمالي، وبدأت دول عديدة من أوروبا والشرق الأوسط وإفريقيا تدخل الحرب مع أمريكا، وبعض الدول تساند كوريا والصين وروسيا، وبدأ العالم يمضي نحو الهاوية، وبعد مضي أربع وعشرون ساعة على قيام الحرب اجتمع في البيت الأبيض رئيس أمريكا مع رئيس وزراء بريطانيا، رئيس فرنسا، ورئيس كندا، ثم انضم إليهم رؤساء إيطاليا والنمسا والمكسيك، وأقيم مؤتمر صحفي عاجل ليلقي الرؤساء خطبا عصماء ليمنحوا الحماس في جيوشهم، والأمل في شعوبهم، وعندما حانت اللحظة تقدم الرئيس الأمريكي نحو المنصة لإلقاء كلمته قائلا :

إن الأمل ليحدونا لإنشاء عالما مثاليا خاليا من المنغصات، لكن ذلك الأمل يقف في طريقه عقبات كئود لعرقلته من الأمام، وأيادي عديدة تجذبه من الخلف، لكننا سنكمل طريقنا مهما كلفنا ذلك من ثمن، وما تفعله روسيا والصين وكوريا وحلفائهم، هو عمل إجرامي لابد من خلعه من جذوره، وإنبات غيره مكانه، لذا ينبغي على الشعوب الوقوف خلف جيوشهم لمساندتهم والشد من أزرهم، ومهما تكلفنا من ضحايا ومصابين وخسائر مادية جسيمة، فالعالم يستحق منا بذل الكثير .

أنهى بينچي كلمته ثم نزل من على المنصة، ثم صعد بعده رئيس وزراء بريطانيا وبدأ يلقي كلمته في حماس، في تلك اللحظة اقترب منه أحد حراسه ومال على أذنه وهمس قائلا :

سيدي الرئيس، السيدة الأولى تريد رؤيتك في أمر عاجل .

بدت الدهشة والإمتعاض على وجه بينچي وهو يسأله مستنكرا :

الآن !

أومأ حارسه في إحراج، فقال بينچي :

أخبرها أنني لا أستطيع ترك المؤتمر الآن .

خرج الحارس لإبلاغها، فهتفت كارول في غضب :

أخبره أنني لا أكترث بما يفعله الآن، وقل له ينبغي أن يحضر فورا لأمر بالغ الأهمية .

عاد الحارس إلى الرئيس مرة أخرى وأخبره بما قالته زوجته، فاربد وجهه وتمتم في غيظ :

ياليتني أعدتها إلى عالمها الحقير مرة أخرى .

تسائل الحارس في دهشة :

ماذا تقول سيدي الرئيس!

تجاهله بينچي وهو يهب قائما ثم يغادر القاعة وسط دهشة الحضور، مال رئيس كندا على أذن رئيس فرنسا هامسا :

أين يذهب هذا الوغد الآن، هل سيهرب ويدعنا ؟

تمتم رئيس فرنسا ساخرا :

كلا، أعتقد أنه جاع فجأة، فأنا أعلم أن لديه شراهة كبيرة للطعام .

مط رئيس كندا شفتيه في عدم رضا وهو يتابع ببصره رئيس وزراء بريطانيا يتكلم بحماس، كان الأخير يقول :

لم نكن نريد دخول هذه الحرب، ولكنها فرضت علينا، ولأننا لا نهرب من المواجهة، ولأنهم قوم بدأونا القتال، فلابد من رد العدوان بالقوة، فالقوة وحدها تهزم الظلم، وتقهر العدوان.

مضى بينچي نحو زوجته التي تقف تنتظره في لهفة، ثم قال في غيظ :

ما هو هذا الشيء الضروري للغاية لدرجة أنك لا تستطيعين الإنتظار حتى ينتهي المؤتمر؟

قالت متظاهرة بالقلق :

تعالى معي.

هتف ساخطا :

إلى أين؟

لم تكن تريد أن تخبره الآن، لكن مع إصراره قالت :

إلى المطبخ.

تمتم في دهشة غاضبة :

ماذا، المطبخ الآن، هل جننتِ؟

قالت وهي تخفي توترتها :

هناك شيء ينبغي أن تراه .

حاول بينچي كظم غيظه لكنه عجز، فزفر في ضيق ثم استدار عائدا إلى المؤتمر بعد أن حدجها في صرامة قاسية، مادت بها الأرض وهي تتخيل زوجها يعود إلى قاعة المؤتمر، قبل أن تنجح في إقناعه بالذهاب معها إلى المطبخ، فصاحت بغتة متظاهرة بالغضب :

لا تذهب وتدعني يا بينچي، أنت دائما تتجاهلني وكأنني شيء مهمل لا قيمة له، حتى إنني أعيش في عالم لا أنتمي له بسببك، لكني لن أسمح لك بمعاملتي بتلك الطريقة ثانية، هل تفهم؟

حدق في وجهها كأنه يتطلع إلى حمقاء، لم يستطع فهم حدتها المفاجأة، طوال حياتها التي قضتها معه منذ جائت إلى هذا العالم لم تحتد قط، بل استسلمت لمصيرها دون أن تبدي سخطا غير مرة واحدة، مرة واحدة يتذكرها لكنها لم تتكرر، اقترب منها قائلا :

ماالذي تريدين مني رؤيته في المطبخ يا كارول؟

حملقت في وجهه في صمت، ثم تمتمت في هدوء عجيب أذهله :

مفاجأة.

كاد يتراجع في دهشة وهو يسألها في حيرة :

أية مفاجأة تخبئينها لي في المطبخ؟

قالت بنبرتها الهادئة المثيرة :

تعالى وسترى.

التقط نفسا عميقا ليسيطر على توتره وانفعالاته المؤججة، ثم تبعها عبر الممرات الطويلة وسط دهشة العاملين في البيت الأبيض، الذين استنكروا وجود الرئيس بينهم تاركا المؤتمر الصحفي العالمي بينما يخطب رئيس الوزراء البريطاني والعالم يشتعل، تفادى بينچي نظراتهم المستنكرة المندهشة وهو يدلف إلى المطبخ خلف زوجته، ثم تفاجأ بالمطبخ الفارغ من كل العاملين به من الطهاة والقائمون على النظافة، جال ببصره في أرجاء المطبخ الواسع الفارغ في استنكار، ثم هتف :

أين أرسلتي العاملين يا كارول؟

قالت في ابتسامة ظافرة :

قلت لك أنني أعددتُ لك مفاجأة خاصة، لذا لا ينبغي أن يراها أحد غيرنا.

حرك يده في عصبية وهو يقول من بين أسنانه :

حسنا، أظهريها سريعا حتى أعود أدراجي إلى المؤتمر، قبل أن ينتبه الحضور إلى غيابي الطويل .

اقتربت منه حتى شعر بأنفاسها الحارة تضرب وجهه، ويديها تلتف حول رأسه في نعومة كأفعتين متحدتين، اقتربت شفتيها من شفتيه في حذر، لكن بغتة انعقد ما بين حاجبيه ولاح غضبا عنيفا في وجهه، ثم مد يديه خلف رأسه ليفك اليدين اللتان تلتفان حول رأسه كالكماشة هاتفا :

يبدو أنكِ قد جننتِ بالفعل .

تشبثت برقبته في عناد وهي تهمس :

انسى المؤتمر تماما يا بينچي، فعودتك إليه معناها أن يستمر العالم في حربه حتى يفنى .

اربد وجهه ومد يده ففك يدها المتشابكتين في حركة سريعة عنيفة، ثم هتف :

يبدو أنك قد جننت بالفعل فصرت تهذرين بكلام مجنون .

لكن بغتة شعر بإبرة رفيعة تنغرز في رقبته فاستدار خلفه بسرعة، قبل أن يرتد بجسده إلى الخلف في حركة حادة، فقد بدا له كأنه ينظر إلى نفسه في مرآة كبيرة.

****

كان القصف الصيني لليابان شديدا وعنيفا، لكن اشتباك القوات الأمريكية مع القوات الصينية في ذلك الوقت الصعب، منع سقوط طوكيو تحت الأقدام الصينية الثقيلة، واشتباك القوات البريطانية مع القوات الروسية في كييف جعل من سقوطها أمرا صعب المنال، وفي وسط تلك الأحداث، لم تتوانى كوريا الشمالية عن استغلال القتال الناشيء بين الأطراف المتحاربة، فدخلت بقوات كثيفة إلى أراض كوريا الجنوبية، وعندما لاقت تلك القوات صداما عنيفا من قوات الحلفاء وعلى رأسها فرنسا، أعلن رئيس كوريا الشمالية استعداد بلاده استخدام الأسلحة النووية، في حالة إذا لم تتراجع القوات الأمريكية والبريطانية وحلفائهما عن مساندة كوريا الجنوبية واليابان وأكرانيا، وبسبب تلك التهديدات المخيفة، امتلأت الشوارع في كثير من الدول بالناس الغاضبين والمذعورين، الذين يطالبون بوقف الحرب قبل أن تدخل نفقا مظلما لا مفر عنه، وفي تلك اللحظات المصيرية من حياة العالم، عالم بنچي والتر، وضع الأخير يده يتحسس بها مكان الألم الناشيء عن حقنه بشيء ما، وهو يقف مشدوها يتطلع إلى نظيره الذي بدا صورة طبق الأصل منه، بعد أن نزع لحيته المستعارة وارتدى حلة مطابقة تماما لحلته، وعن يمينه يقف الشاب المصري يحدجه بنظرة شامتة، ويقف عن يساره اناكندا الذي يبتسم في سخرية مستفزة، كان الجميع يتطلع إليه في شماتة ظافرة قاسية، تراجع إلى الخلف في حدة وهو يهتف :

ماهذا، أين الحراس، أين الأمن ؟

انقض عليه الثلاثة في نفس الوقت حتى لا يصل صوته لأحد رجال الأمن المنتشرين في الخارج، كبل سامي واناكندا حركته، في حين كتم صوته نظيره هامسا :

لا داعي للصراخ يا رجل، فالصوت المرتفع يسبب الإزعاج، ويكفي ما يلاقيه العالم من ويلات الحرب المستعرة .

قاومهم بينچي بكل قوته، لكن قوته راحت تضعف شيئا فشيئا مع توغل المادة المخدرة داخل دمه، تطلع بعينين صرختا استغاثة بزوجته، لكنها أشاحت بوجهها بعيدا في ألم، فتمتم نظيره في شماتة :

لا أستطيع أن ننكر أننا نكن لك كراهية عميقة، لكن الدافع هذه المرة كان من أجل الحفاظ على هذا العالم الذي حطمته بغرورك وطمعك وأنانيتك.

راح بينچي يقاومهم من جديد، قبل أن تنهار مقاومة جسده وتبدأ عيناه تقاومان الإغلاق في تراخ، حينها رفع يده عن فمه وترك الآخران يديه ووسطه بعد أن تأكدوا من انهيار جسده، همس بينچي لزوجته :

لماذا خنتيني؟

ذرفت عيناها الدموع وهي تقول في مرارة :

أردتُ أنقذ العالم .

قال سامي مبتسما في سعادة :

ولقد أنقذتيه بالفعل يا سيدتي.

ابتسم بينچي ابتسامة واهنة، ثم قال بصوت ضعيف وهو يعود بذاكرته إلى الوراء :

لقد كنت أحلم بامتلاك تقنية الإستنساخ منذ ماتت أختي الصغيرة بفعل ماس كهربائي، تمنيت أن تستيقظ وأنا أهزها بقوة محاولا إعادتها من الموت لكن دون فائدة، ومنذ ذلك الحين وأنا أسعى لتحقيق ذلك الحلم الذي أفنيتُ حياتي من أجل تحقيقه ، لكن عندما جئت إلى هذا العالم امتلكني طمع عنيف في أن أحكمه، لذا لم أحاول الرجوع إلى عالمي مرة أخرى لاستنساخ شقيقتي، ورحت أبحث عن أسهل طريقة لحكمه والسيطرة عليه.

قال اناكندا بصرامة :

الطمع نهاية الطغاة يارجل، لم تكتفي بحكم أمريكا فرحت تسعى لامتلاك العالم حتى لو حساب موت الملايين من الشعوب .

مال نظيره نحو بينچي الذي بدأ يفقد وعيه ونزع من حلته دبوسا على شكل العلم الأمريكي، ثم وضعه في حلته في موضع القلب تماما، وهنا ابتسم الجميع في ارتياح عارم لنجاح مهمتهم التي انتظروا أربعون عاما كاملة لتنفيذها، تطلع بينچي الآخر إلى ساعته ثم قال :

لقد تأخرنا كثيرا، يجب أن أعود إلى المؤتمر قبل أن يأتي أحد رجال الأمن إلى هنا.

صافحه الرجلين في حرارة، ثم تقدم فصافح كارول قائلا في امتنان :

لقد تشرفت كثيرا بمعرفتك يا سيدتي، أنتِ خير من يمثل العالم الآخر بنقائه وعظمته.

قال عبارته ثم عاد مسرعا إلى المؤتمر، بينما أخرج اناكندا قناعا مطاطا من جيب سترته الداخلي، ثم وضعه على وجه بينچي لتتغير ملامحه تماما فيبدو رجلا أحمر البشرة أشقر الشعر، ثم أجلسوه وبدأوا يغيرون ملابسه بملابس أحد الطهاة، في حين أشاحت كارول بوجهها أثناء نزع ملابسه، وما إن أنهوا مهمتهم حتى حمله سامي واناكندا بينهم، ثم تقدمتهم كارول إلى الأمام وهي تمسح بقايا دموعا التصقت بخديها، لم تكد تخرج من المطبخ حتى تفاجأت برجل من رجال الأمن يحدجهم بنظرة مرتابة، لكنها تماسكت بسرعة تثير الإعجاب قائلة في نبرة حازمة :

هيا ساعد هؤلاء لنقل الطاهي فاقد الوعي لأقرب مستشفى .

استجاب لها رجل الأمن دون تفكير ودلف إلى الداخل، طالعه رجلين يحملان بين أيديهم رجلا فاقد الوعي، فقال :

هل جربتم إفاقته بأي وسيلة؟

قالت كارول في صرامة تخفي توترها:

نعم لكنه لا يستجيب، هيا ساعدهم بسرعة قبل أن تتطور الأمور إلى الأسوأ .

لم يجد الرجل بدا من الإمتثال لأمر السيدة الأولى، وعندما أصبحوا خارج البيت الأبيض تركهم رجل الأمن وعاد إلى الداخل، اختلس اناكندا وسامي النظر إلى رجال الأمن الذي ينظرون إليهم في اهتمام، ثم وضعا جسد الرجل الفاقد الوعي في المقعد الخلفي للسيارة التي تستعد للإنطلاق، جلس اناكندا بجواره، في حين استقر سامي خلف عجلة القيادة وهو يتبادل مع اناكندا نظرة ظافرة صامتة، قبل أن ينطلق بالسيارة وفي داخلها يستقر حمل ثمين، الرئيس الأمريكي بشحمه ولحمه، وعناده.

****

مضى بينچي إلى قاعة المؤتمر وقلبه يخفق خفقانا مؤلما، لم يتخيل نفسه في هذا الموقف طوال حياته قط، كان أعظم أحلامه ان يفتح سلسلة محلات لعمل وصفات الدجاج شهية، لكن أن يصبح رئيسا الولايات المتحدة الأمريكية، وفي تلك اللحظات

الأخطر في حياة الأرض، فهو أمر فاق كل توقعاته وأحلامه تماما، دلف إلى القاعة يتبعه رجلان من ضباط الأمن، ثم جلس في مقعده يتابع رئيس كندا الذي يقول في نبرة حماسية :

لا توجد قوة على وجه الأرض تستطيع الوقوف بوجهنا، فنحن حماة العالم من الأشرار، وقادرين دائما على إبادة من يتجرأ على الإخلال بنظام العالم الجديد، وكان لزاما عليهم أن يتذكروا ما حدث في الحرب العالمية الثانية، وكيف خرجت أمريكا من تلك الحرب قوة عالمية أولى، لكنهم يتناسون ذلك عمدا، ولا يوجد غير قوتنا الحقيقية قادرة على...

ودون سابق إنذار، فوجئ الجميع بالرئيس الأمريكي يتقدم نحو المنصة في خطوات واسعة سريعة، ثم يطلب من الرئيس الكندي ترك المكان له، أصاب الرئيس الكندي دهشة كبيرة جراء التدخل المفاجئ، لكنه تراجع مفسحا له المجال، تطلع الرئيس الأمريكي إلى الجميع بنظرة ثابتة، ثم قال في نبرة حزينة غاضبة :

لاشك أن العالم يشهد لحظات إحتضاره الآن بينما نتكلم متفاخرين بقوتنا وشراستنا القتالية، لاشيء أشر على العالم من قوي مغرور، يرى أن القوة فقط هي من تحل جميع المشكلات، لكن خبرتي تنفي ذلك بشدة، لن يحمي هذا العالم سوى الإستماع لصوت العقل والمنطق، صوت الإيمان والعدل، صوت الرحمة والإنسانية، وأنا من مكاني هذا، أعلن تراجع الولايات المتحدة الأمريكية عن هذه الحرب التي ستقضي على كوكب الأرض خلال أيام معدودة، وأطلب من حلفائي التراجع عن تلك الحرب المجرمة الشرسة، ومستعد أن أمنح أعدائنا ما يطلبون شريطة أن ينسحبوا من كل الأراضي التي دخلوها عنوة الآن.

تعالى صوت التصفيق في القاعة الواسعة، وترك الرئيس مكانه فتلقفه الصحفيون يسألونه في لهفة :

لقد كنت يا سيادة الرئيس أول من استجاب لنداء الحرب، فماالذي حدث لتغير رأيك؟

قال الرئيس :

لم أكن أنا من اتخذ قرار الحرب، بل كان شيطاني الملعون .

سأله آخر :

وهل سيستجيب الطرف الآخر لطلب وقف الحرب؟

قال في صرامة :

بالتأكيد، فلم يعد هناك شيء يحاربون من أجله.

سألته إحدى الصحفيات :

أشعر أن بك شيء مختلف عما كنت عليه قبل تركك القاعة دون سبب وجيه، ربما شيء في وجهك، أو صوتك، أو حتى ابتسامتك، فماالذي حدث بعد أن تركتنا بغتة؟

قال بينچي باسما في اقتضاب :

لقد أعدتُ شيطاني إلى عالمه للأبد .

غادر القاعة تاركا الصحفيون خلفه يحاولون سؤاله المزيد من الأسألة، لكنه عندما خرج وجد الرؤساء الثلاثة يتطلعون إليه في غضب، هتف رئيس الوزراء البريطاني :

ماذا دهاك يا رجل، نخرج فنعلن على الملأ أننا سنواصل القتال، ثم إذا بك تقطع خطبة رئيس كندا معلنا التراجع عن الحرب، هل جننت يا رجل؟

قال بينچي في ارتياح :

ما فعلته كان هو عين العقل يا صديقي .

صاح الرئيس الفرنسي :

كان ينبغي أن تخبرنا أولا، نحن لسنا أتباعك أيها الوغد .

وأردف رئيس كندا :

إذا تجاوزت عن اتخاذك لقرار وقف الحرب دون الرجوع إلينا، فلن أتجاوز عن مقاطعتك لي دون استئذان .

جاوبه بينچي بابتسامة هادئة، ثم تركهم قائلا لحراسه :

أريد الذهاب إلى غرفة الإتصالات فورا .

في تلك اللحظة وصلت أصوات المتظاهرين في أنحاء العالم عنان السماء، بعد أن وصلهم خبر تراجع الرئيس الأمريكي عن الإستمرار في الحرب، وتناقل خطاب الرئيس وسائل الإعلام المختلفة، وراح بينچي يتبادل الإتصالات الدبلوماسية مع الروس والصينيين والكوريين، الذين استجابوا له غير مصدقين لما يحدث، لكن

انسحاب القوات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والكندية جعلتهم يتأكدون من أنها ليست خديعة سياسية، ثم أمروا قواتهم بالإنسحاب فورا من كل الميادين، وانتهت الحرب بعد اشتعالها بيوم واحد فقط، يوم راح ضحيته سبعون ألف قتيل، وخمسون ألف مصاب، لكن العالم على الرغم من خسائره التي تكبدها في مرارة، وحالة الرعب التي عاناها، نسي ماحدث كأنه كان كابوسا لعينا استيقظ منه بأعجوبة، وراح الناس في أنحاء العالم كله يبتهجون ويحتفلون ويرقصون، واشتعلت الحناجر بصيحات الفرح والسعادة، وجعل ذلك اليوم عيد للعالم كله، وسمي عيد النجاة.

****

خرجت كارول من البيت الأبيض مع ابنيها الشابين وأسرتيهما دون أن يفصحوا عن وجهتهم، ورفضت اصطحاب حراسها الشخصين بالرغم من إعتراضهم وحيرتهم إزاء فعلها الغريب، ثم انطلقت بالسيارة بعيدا في سرعة، ولم تمض عدة دقائق حتى توقفت سيارة أخرى في نفس المكان الذي كانت تقبع فيه سيارة كارول، ثم نزلت منها كارول وهي ترتدي فستانا مغايرا ومعها ابنيها وأسرتيهم أمام أعين رجال الأمن المذهولين، فقد كانوا جميعا يرتدون ملابس مخالفة لما كانوا يرتدونه وهم يغادرون منذ خمس دقائق فقط، لكن أحدا منهم لم يجرأ على الإستفسار على الرغم من حيرتهم وذهولهم، وبعد أن مروا بوسائل الأمن المختلفة دلفوا إلى الداخل، كانوا يبدوا عليهم التوتر وهم يسيرون في أنحاء البيت الأبيض، لكن وجود بينچي رئيسا للدولة جعلهم يطمئنون بعض الشيء، طلبوا من أحد رجال الأمن أن يوصلهم إلى حجرة رئيس الدولة، أطاعهم في دهشة وهو يتسائل كيف يمكن أن ينسوا طرقات البيت الأبيض بهذه السرعة، وبمجرد أن طرقوا الباب ودخلوا حتى احتضن بينچي زوجته بحرارة أمام عيني رجل الأمن الحائرة، حيث لم يمر على رحيلها سوى عشر دقائق فقط، عاد رجل الأمن إلى مكانه في الطابق الأرضي على الفور كاتما دهشته في أعماقه، أغلق بينچي الباب ثم احتضن ولديه قائلا في حماس :

لقد أصبح والدكم رئيسا لأمريكا.

احتضنت كارول زوجها وقالت من بين دموعها :

من كان يصدق أن بينچي الطاهي يصبح رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بين ليلة وضحاها!

ربت بينچي على رأسها في حنان ثم قال :

لا أحد عاقل يستطيع تصديق ذلك بالتأكيد.

قالت في لهفة :

كنت أريد مقابلة نظيرتي في العالم الآخر، هل ما زالت هنا؟

أومأ برأسه نفيا ثم قال :

لقد غادرو المكان قبل أن تأتوا ببضعة دقائق فقط.

بدا على وجهها الأسى، قال ابنها توم في حماس:

يستطيع أولادي الآن أن يلتحقوا بجامعة ماساشوستس أو هارفارد.

وقال مايكل :

وأنا أستطيع الآن أن أشتري لكل واحد من أولادي منزلا فخما وسيارة.

قال بينچي ساخرا :

هل تظنوني أحكم أحد بلدان العالم الثالث !

هتف توم :

دع حكم أمريكا إذن واحكم بلدا من تلك البلدان .

ضحك الجميع في صفاء وسعادة، ونشرات الأخبار تنقل ابتهاج الملايين في أنحاء العالم، بسبب انتهاء حربا عالمية كانت ستحيل الأرض إلى أثر بعد عين بعد يوم واحد فقط، والجميع يرفع صورة الرئيس الأمريكي بينچي والتر عاليا.

****

انطلقت كارول بسيارتها الكبيرة مع كل أفراد أسرتها حتى وصلت إلى المكان المتفق عليه مسبقا، حيثُ كان اناكندا وسامي في انتظارها، وبينهما يقف بينچي والتر منكس الرأس تبدو عليه المرارة، ما إن رآها حتى صاح في أسى وحزن بالغين :

لقد أضعت مجهود أربعين سنة أيتها الحمقاء!

قالت :

وأنت كنت ستضيع عالما كاملا يبلغ عمره آلاف السنين .

صاح بينچي والتر :

كان لابد من التضحية ببضعة الآف أو حتى ملايين، لينتقل العالم إلى مرحلة أخرى من التطور توفر عليه ألف سنة أخرى من العناء .

حدقته بنظرة تمتلأ بالكراهية، تسائل توم ومايكل في ذهول :

ماذا يحدث يا أمي، لماذا أبي مقيد من يديه كالمجرمين على الرغم من أنه رئيس أمريكا؟

قالت كارول :

لم يعد رئيسا لأمريكا ولا لأي بلد آخر، وسأخبركم كل شيء بالتفصيل عندما نعود إلى عالمنا .

تسائل توم في دهشة :

أي عالم تقصديه ؟

قالت في سعادة :

عالمنا الحقيقي .

هتف بينچي ملتاعا :

توم، مايكل، لا تتركوهم يخرجانني من هذا العالم، إنه عالمنا نحن، أنا رئيس أمريكا .

صاحت كارول :

لا تحاول خداعهم كما خدعتنا جميعا من قبل.

سألها اناكندا في نبرة حازمة :

هل أنتِ مستعدة يا سيدتي؟

تجاوزت كارول ما تشعر به في تلك اللحظة من مشاعر متضاربة ومتناقضة، ثم قالت :

نحن مستعدون للعودة إلى عالمنا.

صاح بينچي والتر غاضبا :

أنا غير مستعد، أعيدوني أيها الخونة الحقراء، أعيدوني فورا .

تجاهل اناكندا صياحه الغاضب، ثم تطلع بنظره إلى الأمام ومد يديه وأخذ ينطق بعبارات عجيبة، وبعد ثواني ظهر أمامهم جسر يطوقه ضباب كثيف، فأشار لهم اناكندا بالمضي نحوه، بدأوا سيرهم ومايكل يهتف في حيرة :

لقد تذكرتُ الآن ذلك الجسر يا أمي، عندما سرنا أنا وتوم معكِ عبره حينما كنا صغيرين، لقد حدث هذا منذ سنوات طويلة، وانطلقت في الأرجاء صرخات بينچي والتر الملتاعة الغاضبة .

****

تمت بحمد الله